في رحاب عاشوراء

سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي

المجلد الثاني

٣-٤-٥



دار الكتاب الإسلامي

في رحاب عاشوراء

(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

في رحاب عاشوراء

الجزء الثاني

آية الله الشيخ
محمد مهدي الآصفي

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

المولف : أصفي، محمد مهدى، ١٣١٧ -

العنوان و المولف : فى رحاب عاشوراء / محمدمهدى الأصفى.

الناشر : قم : دار الكتاب الاسلامى ، ١٤٣٠ ق = ٢٠٠٩ م = ١٣٨٨ .   الكتابة : العربية .

التسلسل الرقمي : BP٤١/٧٥/٤١١٦ف٩ ١٣٨٨ تسلسل ديوبى: ٢٩٧/٩٥٣٤ رقم الايداع بالمكتبة الوطنية: ٣١٤٠٩٧١

الترقيم الدولي : 9789644652912   الترقيم الدولي للمجموعة : 9789644652950

الكتاب : .... في رحاب عاشوراء(٢)

المؤلف : .... آية ا... الشيخ محمد مهدي الأصفي

الناشر: .... مؤسسة دار الكتاب الاسلامي

الطبعة : .... الاولى : ١٤٣٠هـ.ق / ٢٠٠٩م

المطبعة : .... ستارة

عدد المطبوع : .... (٣٠٠٠) نسخة

الترقيم الدولي للمجموعة : ٩٧٨-٩٦٤-٤٦٥-٢٩٥-٠

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٦٤-٤٦٥-٢٩١-٢

قم ميدان المعلم – شارع رقم ٢٢ – المبنى رقم ٢٦

تلفون: ٧٧٤٤٩٧٠ - ٧٧٣٠٩٩٤

فاكس: ٧٨٣٧٢٨٣

السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله

السلام عليك يا وارث نوح نبي الله

السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله

السلام عليك يا وارث موسى كليم الله

السلام عليك يا وارث عيسى روح الله

السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله

السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله

فهرس إجمالي

عاشوراء في مرآة التاريخ

عاشوراء في وعي الجمهور ووعي النخبة

فيما يلي نحاول أن نقف وقفة تأمل في رحاب يوم عاشوراء ونبحث عن العناصر والقيم والآفاق الواسعة لهذا اليوم العجيب.

هـذه الساعات القليلة والمعدودة من يوم العاشر من محرم تنطوي على آفاق واسعة جداً وعلى معاني وقيم تستحق أن يتوقف الإنسان عندها طويلاً ويتأمل فيها كثيراً.

هـذه الآفاق لم تلق بعد العناية الكافية من قبل الباحثين والمفكرين الذين أوْلـوا (عاشـوراء) اهـتمامهم رغـم كـثرة الدراسـات والأبحـاث والجهـود الفكـرية التي تصبُّ في الأحداث التي جرت على أرض كربلاء يوم العاشر من محرم من سنة ٦١ هـ ق.

وإنـني لا أشك أن وعي الجمهور لعاشوراء وعمقه وآفاقه أكثر بكثير من وعي المفكرين الذين تناولوا هذا اليوم العجيب من التاريخ بالدراسة والبحث.

إن الـذي يدركـه جمهـور الـناس بوعـيه الفطـري شـيء أعمق بكثير مما يـتلقاه الباحـثون والمفكرون من هذا اليوم ولو أمعنا النظر في وعي الجمهور لـيوم عاشـوراء، وجدنا أن الجمهور يسبق الباحثين والمفكرين في وعي هذا اليوم وآفاقه الواسعة وما ينطوي عليه من القيم والمفاهيم.

وأنـا مـن الذين يثقون بوعي الجمهور المؤمن وحسّه المرهف الدقيق في

التشخيص والتقييم. وأعارض الذين ينتقصون من وعي الجمهور المؤمن وفهمه وتشخيصه. فالجمهور يملك حساً مرهفاً ووعياً فطرياً وبصيرةً نافذة ـ في حالات السلامة والصحوة ـ لا يملكه دائماً أُولئك الذين يتتبعون الأحداث من خلال التأملات الفكرية والدراسات العلمية.

وهذا الحسّ الفطري المرهف يجعل الجمهور سبّاقاً إلى وعي هذه الآفاق الربانية في حياة الإنسان. وكثيراً ما يتفق أن الباحثين والمفكرين يتتبعون خُطى الجمهور ويقتفون أثره في الوعي والتفسير والتشخيص. ومع ذلك فإن الوعي الفطري للجمهور يبقى محتفظاً لنفسه بقدرة كبيرة جداً على التشخيص، والتقييم، ونفاذ البصيرة تقصر عنه أفكار وتفسيرات الباحثين والمفكرين أحياناً.

وهذا هو ما يتراءى لي فعلاً في (عاشوراء). فكلما يمعن الإنسان النظر في التعاطف الوجداني الكبير من قبل جماهير المسلمين مع حادث الطف في يوم عاشوراء، وقياس ذلك إلى التفسير والتقييم العلمي المطروح على الصعيد الفكري... يزداد إيماناً بأن الجمهور كان أقدر على استيعاب الآفاق الواسعة لهذا اليوم من الباحثين والمفكرين الذين تناولوا هذا الموضوع الخطير بالدراسة والبحث.

ويبدو أن الحس الفطري لدى جمهور المؤمنين، أسرع إلى وعي الحقائق من أُولئك الباحثين الذين يعتمدون (عصا) التفسير والتحليل العلمي بالوسائل العلمية المعروفة، وإنّ هذا الجمهور في حالة سلامة الفطرة يرى بنور الله ما لا يراه غيره.

وهذا ما نراه فعلاً من حيويّة (عاشوراء) في وجدان جمهور المؤمنين

وعواطفهم، وتفاعل الجمهور الواسع والعميق مع عاشوراء خلال هذه الفترة الطويلة والتي تزيد على ثلاثة عشر قرناً من الزمان، وعلى هذه المساحة الواسعة من الأرض وهذا أمر فوق العادة بالتأكيد... ولا ينبغي أن نمرَّ عليه مروراً سريعاً من دون وقفة تأمل وتفكير.

ولا نعرف نحن إلى الآن حدثاً يستقطب عواطف جماهير المسلمين بهذه الصورة من القوّة والفاعلية كعاشوراء ولا نعرف أمراً في حياة المسلمين يستقطب الجماهير بهذه الصورة الواسعة والقوية إلاّ الحج...

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن لقتل الحسين حرارة في قلوب المؤمنين لا تبرد أبداً)[١].

موقف السلاطين والحكّام من عاشوراء

ولأمر ما كان يُحسّ السلاطين والملوك أنّ في مظاهر الحزن والحداد على السبط الشهيد شيئاً يضرهم ويسيء إلى سلطانهم وملكهم، وكانوا يواجهون الجمهور الحسيني بالجفاء والإنكار، وأحياناً بالإرهاب والمطاردة تماماً كما كان الجمهور يشعر أن في قضية الحسين عليه السلام شيئاً يرتبط بمصيره ومصير الإسلام... وفي تاريخنا منذ العصر الأموي وعبر العصر العباسي إلى اليوم الكثير من الأمثلة على تنكّر السلاطين وامتعاضهم من إقبال الجمهور على زيارة الحسين والتعاطف مع قضية الحسين حتّى بلغ الأمر أن هارون الرشيد أمر بهدم القبر الشريف وكربه[٢] كما أمر المتوكل العباسي بهدم القبر

---

١ ـ مستدرك الوسائل ٢: ٢١٧.

٢ ـ تاريخ النياحة على الإمام الشهيد للسيد صالح الشهرستاني ٢: ١٢ نقلاً عن نزهة أهل الحرمين للسيد حسن الصدر الكاظمي: ٢٧.

وما حوله من المنازل والدور وأن يبذر ويسقي موضع القبر ويمنع الناس من الزيارة[١]... ومع كل هذه الضغوط السياسية والإرهاب الذي كان يمارسه السلاطين بشأن قضية الحسين وعاشوراء، فإن عاشوراء كانت تتفاعل، ولا تزال، مع عواطف الجماهير ومشاعرهم في حركة تصاعدية.

وقد وضع علماء البلاط الأموي أخباراً وأحاديث كثيرة في يوم عاشوراء (وأنه يوم بركة، ليعدل الناس ـ كما يقول الإمام الصادقعليه السلام ـ من الجزع والبكاء والمصيبة والحزن، إلى الفرح والسرور والتبرك) وقد بذل حكّام بني أمية لذلك الجوائز والهدايا[٢].

ومع كل هذه الضغوط السياسية بشأن هذا اليوم وبشأن قضية الطف فقد بقت (عاشوراء) تتفاعل مع عواطف الجماهير ومشاعرهم في حركة تصاعدية يستلمها جيل من جيل، وتنتقل من جيل إلى جيل بنفس الحيوية والقوّة وتضيف إليها الأجيال المقبلة الكثير من عواطفها ومشاعرها وأحاسيسها.

ولا أكاد أتصور أن هذا التعاطف العميق والواسع من قبل جماهير المسلمين في رقعة واسعة من الأرض وعبر تاريخ طويل تتكوّن وتستمر وتشق طريقها عبر مضايقات الحكّام والسلاطين... من دون أن يكون الجمهور قد وجد ـ بوعيه الفطري ـ في هذه الساعات القليلة من يوم عاشوراء من الآفاق الواسعة، والصور، والمعاني، والقيم المخبوءة، ما لم يتمكن من التقاطها وتسجيلها ورسمها أقلام الباحثين والمفكرين.

---

١ ـ الكامل لابن الاثير ٧: ٥٥ في حوادث سنة ٢٣٦هـ

٢ ـ بحار الأنوار ٤٤: ٢٧٠.

فلا يسعنا أن نفهم مثل هذا التعاطف الجماهيري الواسع مع عاشوراء دون أن نقبل أن الجمهور قد تمكن أن يرى في هذا اليوم ـ بحسّه الفطري ـ ما لم تتمكن الدراسات العلمية أن تسجله وترسمه في هذا اليوم. والحجم المطروح لعاشوراء من قبل الباحثين والعلماء لا يناسب هذا التعاطف والتفاعل الواسع من قبل الجماهير. وهذا هو الذي يدعو إلى القول بأن الجمهور له دور السبق في اكتشاف آفاق (عاشوراء). والباحثون الذين عملوا في تحليل وتفسير أحداث هذا اليوم كانوا يتحركون من وراء الجمهور، ويضعون خُطاهم في التحليل والتفسير موضع خطى الجمهور.

وليس في هذا ضير، إذا كانت أقلام الباحثين قادرة على متابعة الجمهور في وعيه ودركه للقضية الحسينية، وإنّما البأس أن تتوقف أقلام الباحثين وأفكارهم عن اكتشاف وتسجيل ما اكتشفه الجمهور من الآفاق الرحبة لعاشوراء بحسّه الفطري.

عاشوراء مرآة للتاريخ

من خلال هذا اليوم وساعاته القليلة الحاشدة بالأحداث الكبيرة... نقرأ التاريخ البشري كلّه، ومن خلال هذا اليوم نقرأ سنن الله في التاريخ، ونفهم كيف تسقط أُمّة، ويستدرجها الله تعالى، ويعذبها، ويهلكها، وكيف يستبدلها بأمة أُخرى. وكيف تسمو أُمّة في التاريخ، وتسقط أُخرى، وكيف يجري الله قانون الابتلاء على أُمّة فَيُضيّقُ عليها لتنمو وتبلغ رشدها، وكيف يستدرج أُمّة أُخرى لِيَحِلَّ عليها العذاب والنقمة، وكيف يكون استبدال هذا بذاك.

(عاشوراء) مرآة صافية للتاريخ تعكس التاريخ بصورة صادقة وأمينة...

ومن خلال قراءة هذا اليوم نستطيع أن نقرأ حركة التاريخ كلها منذ خلق الله تعالى الإنسان على وجه الأرض إلى اليوم.

ذلك أن التاريخ هو مجموعة (السنن الإلهية) في حركة الإنسان وصعوده وسقوطه. ولا يجري في التاريخ شيء بصورة اعتباطية وعفوية، وإنّما يجري كل شيء بموجب سنن وقوانين دقيقة وبالغة في الدقة، كما يجري التغيير في الفيزياء والكيمياء والميكانيك تبعاً لمجموعة من القوانين والسنن الخاصّة بهذه الحقول[١].

والذي يفهم هذه القوانين والسنن بشكل دقيق يفهم التاريخ وحركته وما يجري في هذه الحركة من هبوط وصعود ومن هلاك واستبدال للأُمم، ومن الصراع بين الحقّ والباطل، وبين جند الله وجند الشيطان.

وعاشوراء هي المرآة التي تعكس هذه السنن والقوانين بصورة دقيقة وكاشفة، ذلك أن (الصراع بين الحقّ والباطل وحزب الله وحزب الشيطان) هو العامل الأكبر تأثيراً في حركة التاريخ، بخلاف النظرية الماركسيّة التي تعتبر (الصراع الطبقي) هو العامل المحرّك للتاريخ[٢].

والتاريخ يتلخص في معظم جوانبه في هذا الصراع الذي يقود طرفاً منه الأنبياء والمرسلون ويقود الطرف الآخر أئمة الكفر.

و(الصراع الطبقي) حقيقة قائمة في ساحة التاريخ لا ننفيها، ولكنه لا يعتبر العمود الفقري للتاريخ، وإنّما يحتل جانباً من جوانب حركة التاريخ،

---

١ ـ بالطريقة التي شرحناها في فصل المذهب التاريخي في الإسلام وبيّنا موضع إرادة الإنسان واختياره في هذه الحركة في النظرية الإسلامية. من كتاب (في رحاب القرآن).

٢ ـ والفرق الآخر أن النظرية الماركسيّة تؤمن بالعامل الواحد في حركة التاريخ بينما النظرية الإسلامية لا تؤمن بنظرية توحيد العامل في حركة التاريخ.

ومهما كانت قيمة هذه المساحة التي يحتلها الصراع الطبقي في تاريخ الإنسان فلن يعتبر العمود الفقري للتاريخ، ولسنا الآن بصدد إثبات هذه الحقيقة القرآنية.

فالتاريخ ـ إذن ـ يتلخص في معظم جوانبه في هذا الصراع الذي يقود طرفاً منه الأنبياء والمرسلون والمؤمنون، ويقود الطرف الآخر الطاغوت وأولياءه.

وفي هذا الصراع التاريخي يبرز أهم خصائص حركة التاريخ، وتتكشّف للإنسان جوانب واسعة من التاريخ لا يكاد يراها إلاّ في هذا الجوّ من الصراع بين أولياء الله وأولياء الشيطان.

فإن الصراع يستخرج بصورة قوية خصائص كلّ أُمّة وكل فئة من الناس، ويبرزها على حقيقتها، ويفرز الناس إلى فئتين متمايزتين.

فقد تنزع الأُمّة المؤمنة في حالات اليسر والرفاه إلى الدعة والترف وإيثار العافية في حياتها، وتنسى ذكر الله عزّ وجلّ فإذا حلّ بها الابتلاء نزعت إلى الله نزوعاً قوياً وقطعت ما بينها وبين هذه الدنيا من أسباب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾[١].

والعكس أيضاً صحيح، فقد يتمكن المنافقون والمخلّفون وأولياء الشيطان من إخفاء حقيقتهم، وما تستبطن نفوسهم من حبّ الدنيا والانقياد للأهواء والولاء للطاغوت والخوف والضعف في ساعات اليسر والأمن... فإذا جدّ الجدّ ووقعت المواجهة والصدام طفح على حياتهم ما كانوا

١ ـ الأعراف: ٩٤.

يستبطنونه من خوف ونفاق.

يقول تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[1].

فيكشف الصراع الخصائص الحقيقية لكلّ أُمّة من الناس، ويفرز الناس إلى محورين متميزين، ويعكس التناقضات القائمة في حياة الناس، ويعكس السنن الإلهية التي تجري في حياة الناس، وحركتهم، وصعودهم، وهبوطهم، وسقوطهم، واستبدالهم بأمم أُخرى... فإن هذه السنن جميعاً ـ أو في معظمها ـ تجري في جو الصراع بين الحقّ والباطل، بقوّة ووضوح، أكثر من أية حالة أُخرى.

ولنقرأ هذه الآيات المباركات من سورة الأحزاب لنجد كيف تهتز النفوس الضعيفة في القتال، وكيف يجري فيها الزلزال، وكيف تزيغ الأبصار، وتنقلب القلوب المؤمنة التي لم يستقر فيها الإيمان إلى الظن بالله؟. وكيف يكشف القتال المنافقين، ويلقي عليهم الضوء، بعد أن كانوا يخفون أنفسهم في صفوف المسلمين... ومع ذلك كيف تتدخل المشيئة الإلهية لإسناد ودعم القلّة المؤمنة الثابتة في هذه الساعات العسرة والحرجة؟.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۞ إِذْ جَاءُوكُم

١ ـ الأحزاب: ١٨ـ١٩.

مِّـن فَوْقِكُـمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ وَبَلَغَت الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّه الظُّنُونَا * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا * وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾[1].

ترى كيف يكشف القتال والصراع المنافقين؟ وكيف يدخل النفوس في ساعة القتال الظن والريب؟ وكيف يهتز المؤمنون ـ الضعاف ـ من الأعماق؟ وكيف يتحول دور المنافقين في ساعات الشدّة إلى التهريج والتثبيط؟

وفي مقابل هؤلاء، الصادقون من المؤمنين الذين تطمئن نفوسهم إلى الله، ويثبتون للأعاصير والعواصف، ولا يدخل نفوسهم شك أو ريب، مهما اكفهرت الأجواء ومهما ضاقت الأحوال.

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّـهُ وَرَسُـولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَـا عَـاهَدُوا اللَّـهَ عَلَـيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَـبْدِيلاً * لِـيَجْزِيَ اللَّـهُ الصَّـادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ..﴾[2].

وتتدخل المشيئة الإلهية، وتؤيد المؤمنين بجنود لم يروها:

﴿..اذْكُـرُوا نِعْمَـةَ اللَّـهِ عَلَـيْكُمْ إِذْ جَـاءَتْكُمْ جُـنُودٌ فَأَرْسَـلْنَا عَلَـيْهِمْ رِيحًـا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا..﴾.

---

١ ـ الأحزاب: ٩ـ١٣.

٢ ـ الأحزاب: ٢٢ـ٢٤.

ويردّ الله الذين كفروا بغيظهم، ويقذف في قلوبهم الخوف، ويورث المؤمنين أرضهم وديارهم:

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾[١].

كل ذلك يتم في أجواء الصراع والمواجهة والقتال. تهتز النفوس، ويصيبها الزلزال، ويكشف النفاق عن نفسه، ويجد المنافقون فرصة للتهريج والتثبيط، وتثبت النفوس المؤمنة، وتطمئن إلى وعد الله، وينزل الله تأييده ونصره على المؤمنين، ويقذف في قلوب الذين كفروا الرعب والخوف، ويهلكهم بأيدي المؤمنين، ويورث المؤمنين أرضهم وديارهم... كلّ هذه التحولات، والانقلابات، والسنن، والقوانين، والصعود، والسقوط، والثبات، والانهيار يحدث في ساحات المواجهة والقتال... وكلّ هذه الحركة القوية التاريخية والسنن والقوانين الإلهية، والفرز، والتفريق، والكشف يتم في جوّ الصراع.

إذن، الصراع الحضاري بين الحقّ والباطل يكاد أن يكون نموذجاً ممثلاً لمساحة التاريخ وللسنن الإلهية الجارية في هذه المساحة بشكل كامل أو غالب.

وما يجده الإنسان في امتداد التاريخ الطويل وعرضه العريض يجده بصورة مختزلة ومصغرة في الصراعات الحضارية الحقيقية التي يقف جند الله في مواجهة جند الشيطان.

---

١ ـ الأحزاب: ٢٥ـ٢٧.

...تماماً كما أن قدحاً من ماء المحيط يستطيع أن يعكس لنا بصورة مصغرة ومختزلة معظم الخصائص الموجودة في مياه المحيطات الكبيرة من التبخير والتجميد والتموّج والتّحرك وما يرسب فيه من الأجسام، وما يتعوّم عليه، وقانون المدّ والجزر والعناصر التي تشكل الماء وما إلى ذلك من الخصائص الكيميائية والفيزيائية لمياه المحيطات، والمطالعة الدقيقة لقدح من الماء تغني عن مطالعة المحيطات الواسعة في معظم الخصائص الكيميائية والفيزيائية لمياه البحار.

وما يصح عن قانون الاختزال والتمثيل في الفيزياء والكيمياء في العيّنات الصغيرة يصحّ في التاريخ والمجتمع.

فإنّ شريحة ممثّلة من المكان والزمان يمكن أن تعكس معظم الخصائص والسنن القائمة في التاريخ والمجتمع.

وإنّما نقول شريحة زمانية ومكانية ممثّلة، لأنّ من الشرائح الزمانية والمكانية والاجتماعية ما لا يحمل هذه الصفة التمثيلية. فليس كلّ الشرائح الفيزيائية الكيميائية والاجتماعية تحمل هذه القوّة التمثيلية التي تستطيع أن تعكس بها الخصائص الموجودة في كلّ المساحة التي اقتطفنا منها هذه الشريحة... وهذه هي الشرائح غير الممثلة.

أمّا الشريحة الممثلة من الزمان والمكان والتاريخ والمجتمع فإنّها تحمل هذه القوّة التمثيلية... وهي بالذات ما نقصده في هذا الموضع.

ولا شك أنّ الصراع الحضاري بين جند الله والطاغوت من أفضل الشرائح (الزمكانية) التي تختزل وتمثل حركة التاريخ، وتعكس هذه الحركة بقوانينها وسننها الإلهية.

و(عاشوراء) نموذج نادر من الصراع الحضاري الذي تتجسد فيها سنن التاريخ بشكل قوي ومركّز، وعيّنة ممثّلة لمساحة التاريخ، بكل ما في هذه الكلمة من معنى، ومرآة صافية لحركة التاريخ... يجد فيها الإنسان الصراع القديم بين جند الله وجند الشيطان، وأسباب وموجبات هذا الصراع، وقيم كلّ من طرفي المواجهة، وأساليبهم في هذا الصراع، وحتمية هذا الصراع، ومعاناة طرفي الصراع في هذه المعركة التاريخية، وما يستتبع هذا الصراع من سقوط، وثبات وولادة وهلاك، واستبدال، واستدراج، وتساقط العناصر الضعيفة، وصعود، وتسامي العناصر القوية المؤمنة، ونصر الله للفئة القليلة المؤمنة، وهلاك جند الشيطان... كلّ ذلك ينعكس في مرآة عاشوراء... في هذه الساعات القليلة الحافلة بالأحداث الكبيرة من يوم عاشوراء... ونحن نقرأ كلّ ذلك وغير ذلك من قوانين وسنن التاريخ والمجتمع والصراع في مرآة عاشوراء... بل ماذا أقول. نحن نرى أنفسنا في مرآة عاشوراء فإنّ الإنسان المؤمن ليس نسيج وحده، وليس نبتة طفيلية مجتثة من فوق الأرض، ما لها من قرار، وإنّما هو حصيلة هذا الصراع التاريخي بين الحقّ والباطل، وكلّ هذا الصراع وما استتبعه من معاناة، وآلام، ونصر، وتأييد، وثبات، وصبر قد ساهم بصورة مرئية أو غير مرئية في ثباته وتكوين شخصيته، وعاشوراء امتداد لكلّ هذا الصراع، ومرآة لهذا التاريخ الحافل بالصراع والمعاناة، والمؤمنون يرون أنفسهم في مرآة عاشوراء، رؤية صافية، صادقة، وواضحة، ولذلك يجذبهم عاشوراء، ويشعرون بأنهم مدينون لعاشوراء، وإنّ عاشوراء تمثّلهم، وتساهم مساهمة فعالة في تكوينهم، وتشكل المرآة الصافية التي تعكس وجودهم وكيانهم.

وهـذا هـو مـا نعنـيه عـندما نقـول إن عاشوراء نافذة على التاريخ، يستطيع الإنسـان بوعـيه الفطري أن يطل على التاريخ من خلال هذه الساعات القليلة من يوم عاشوراء.

أرأيـت كـيف تمـثّل صـفحة الخارطة الجغرافية سطح الأرض، وتعكس إقليماً واسـعاً مـن مساحة الأرض... كذلك عاشوراء تمثّل مساحة واسعة من التاريخ.

ونحـن، لكـي نسـتوعب عيّـنة مـا استيعاباً كاملاً بصورة علمية، نقوم عادةً بواحـد مـن اثنيـن، حسـب اخـتلاف العيّـنة. أمّا أن نكبّر العيّنة تحت المجهر حتّى يمكـن اكتشـاف وفهـم الجزئـيات الدقـيقة مـنها التـي لا تخضع للعين المجـرّدة، أو نصـغّر المساحة مع الاحتفاظ بكلّ مقوماتها وأركانها ونختزلها حتّى يمكن استيعاب المساحة الواسعة بنظرة واحدة وفي دائرة صغيرة.

و(عاشـوراء) مـن الـنوع الثاني. اختزال شديد لحركة التاريخ وما في هذه الحركة من السنن والقوانين. وهذا الاختزال يتصف بالتمثيل الدقيق لمساحة التاريخ الكبيرة وسننها وقوانينها.

ذلـك أنّ (عاشـوراء) مـن بيـن نمـاذج الصـراع بيـن أولـياء الله وأولـياء الطاغوت نموذج نادر من الصراع الحقيقي الحاسم في التاريخ.

ففي هذه المعركة التاريخية الحاسمة يتقرر مصير الإسلام، وبالتالي مصير رسالات الله تعالى، الذي كاد أن يسقط في أيدي السلاطين الرسميين الذين كانوا يحكمون باسم الإسلام.

وهـذه المعـركة استطاعت أن تضع حدّاً للسلطة الزمنية الحاكمة وتفصل بيـن (الإسـلام) ومـا كان في قصور الخلفاء وأجهزتهم، من لهو وسقوط في

لـذات الحـياة الدنـيا، ومـن ظلم واضطهاد واعتداء وتجاوز لحدود الله تعالى وأحكامه.

في (عاشوراء) يتقابل صفوة مؤمنة خالصة، وعلى رأسهم ابن بنت رسول الله ﷺ والصفوة الصافية من أهل بيته وأصحابه، مع رؤوس الإجرام والنفاق. وفـي هـذا الـتقابل والمواجهـة لا أدري مـاذا يحـسّ الإنسـان مـن بون شاسع وفاصـل كبـير بيـن نمطيـن مـن الـناس، وبيـن هـذا السـقوط إلـى الحضيض والصعود إلى القمة... بين النور والظلمة.

يشـعر الإنسـان بوجـود نمطين مختلفين تماماً من الناس، وبالفاصل الكبير الشاسع الـذي يفصـل بيـنهما فـي الأهـداف، والقـيم، والأخـلاق، والتربـية، والقـرب، والـبعد مـن الله، ثـم يجـد هذيـن النمطيـن من الإنسان في مواجهة حقيقية حاسمة في ساحة الطف.

يدعـو أحدهمـا إلـى الله تعـالى، وإلـى إقامـة الصـلاة وإلـى العـودة إلـى الإسلام، وإلى الأخذ بأسباب العبودية، ويدعو الآخر إلى الطاغوت والانقياد لـه. يطلـب أحدهما وجه الله ومرضاته في هذه الحركة والصراع، يقول أحد شعراء أهل البيت عليهم السلام على لسان الحسين عليه السلام:

إن كـان ديـن محمّـد لـم يسـتقم إلاّ بقتلـي يـا سـيوف خذينـي

ويقول أبو الفضل العباس عليه السلام:

والله إن قطعـتم يمينـي إنـي أُحامـي أبـداً عـن دينـي

ذلـك فـي معكسـر الحسـين عليه السلام، وفـي المعسكر الأموي المقابل لمعسكر الحسين عليه السلام يطلب أحدهم سقط المتاع في الحياة الدنيا ويقول:

إمـلأ ركابـي فضـة أو ذهـبا إنـي قتلـت السـيد المهذبـا

يجسّد أحدهما في سلوكه وقتاله أسمى القيم وأنبلها حتّى في القتال، ويجسّد الطرف الآخر أحط ألوان السلوك في ابتغاء الدنيا وفي الإجرام.

إنّ التقابل العجيب بين هاتين الفئتين اللّتين تقاتلا في كربلاء وبين أهدافهما يعتبر واحداً من أغرب نماذج الصراع بين الحقّ والباطل في التاريخ.

لقد كان أحد الطرفين حقّاً امتداداً لإبراهيم وموسى وعيسى ورسول الله، ويحمل معه ميراث هؤلاء الصديقين وهمومهم وطموحاتهم، ويُعَدُّ الآخر حقّاً امتداداً لقابيل وفرعون ونمرود والقتلة والمجرمين في التاريخ.

وعلى نتائج هذا الصراع يتوقف مصير هذا الخط أو ذاك. لقد كان أحد الخطّين يستجمع كلّ قِيم الأنبياء، وعطائهم وتضحياتهم والخطّ الآخر يستجمع كلّ ألوان الانحطاط والسقوط الذي يشهده الناس في التاريخ لهذا الخطّ.

لقد كان مشهد (عاشوراء) مشهداً غريباً في نوعه، ولم يكن يلتبس الأمر في تمييز الحقّ والباطل وتشخيصهما على أحد بين هذين المعسكرين، فقد بان الحقّ، وبان الباطل، وامتاز أمرهما، ولم يبق موضع للالتباس لأحد.

فمن دخل مع هؤلاء دخل على بيّنة وبصيرة، ما بعدها بيّنة وبصيرة، ومَن انساق من وراء أُولئك، كان ممن أضلّه الله على علم.

فقد كان يوم عاشوراء يوماً من أيّام الفرقان في التاريخ حقّاً، افترق فيه الحقّ والباطل، ولم يعد لأحد فيها موضع للشك واللبس.

كلّ أرض كربلاء وكلّ يوم عاشوراء

إذن عاشوراء مرآة لكلّ حركة التاريخ، وامتداد للصراع القائم بين الحقّ والباطل في التاريخ.

والعكس أيضاً صحيح، فإنّ كلّ صراع في التاريخ بين الدعاة إلى الله

وأولياء الطاغوت نسخة من عاشوراء على درجات مختلفة من التمثيل وهذا هو معنى الكلمة المأثورة والدقيقة المعروفة: (كلّ أرض كربلاء وكلّ يوم عاشوراء).

ففي كلّ أرض وفي كلّ يوم صراع بين الحقّ والباطل بموجب قانون حتمية الصراع بين أولياء الله، وأولياء الطاغوت، ولا تخلو أرض من هذا الصراع، ولا يخلو يوم من أيّام التاريخ منه.

وكلّ صراع في هذه السلسلة الطويلة من الصراعات والحروب والقتال يعتبر نسخة من (كربلاء) ومن(عاشوراء)، على درجات مختلفة من التمثيل حسب سعة وعمق هذا الصراع، وأبعاده في حياة الإنسان.

فالزمان (:كلّ يوم) والمكان (: كلّ أرض) أكثر من وعاءين لحضارة الإنسان... أنّهما وعاءان لحضارة الإنسان، ومقوّمان لها أيضاً، يتفاعلان مع الإنسان، يمنحانه ويأخذان منه. والإنسان في تفاعل مستمر مع الزمان والمكان، يأخذ منهما ويمنحها ويؤثر فيهما ويتأثر بهما.

فالزمان والمكان ـ إذن ـ لا يعتبران وعاءين لحضارة الإنسان فقط، بالمعنى المعروف للوعاء، الذي ليس لها أي تأثير فيما تحتويه. إن الزمان والمكان جزءان مقومان لحضارة الإنسان، ويحملان شحنة وطاقة حضارية معينة في تاريخ الإنسان، وعندما نقول (كلّ أرض كربلاء وكلّ يوم عاشوراء) يعني أنّ الصراع جزء حتمي لا يتجزأ من حضارة الإنسان.

وهذا الصراع يمتد زماناً ومكاناً مع حضارة الإنسان، وفي كلّ مراحله يعتبر نسخة ممثلة لكربلاء وعاشوراء على درجات مختلفة من التمثيل. فهذه ثلاثة أصول وثلاثة قوانين:

١ ـ حتمية الصراع.

٢ ـ استمرارية الصراع على خطّي الزمان والمكان.

٣ ـ تمثيل عاشوراء بدرجات مختلفة.

إذن عاشوراء مرآة للتاريخ والتاريخ مرآة لعاشوراء ومن خلال عاشوراء نُطلُّ على حركة التاريخ، ومن خلال حركة التاريخ نطل على عاشوراء.

إنّ عاشوراء تصغير واختزال شديد لمساحة التاريخ الكبرى، وحركة التاريخ الممتدة على بعدي الزمان والمكان، تكبير وتوسعة لعيّنة عاشوراء، وتمديد لها. ولو وضعنا هذه العيّنة (:عاشوراء) تحت المجهر شاهدنا حركة التاريخ، ولو اختزلنا حركة التاريخ وصغرناها بدرجة عالية جداً التقينا عاشوراء.

إنّ (عاشوراء) ينبغي أن يدرس من خلال هذا الأُفق التاريخي الواسع، من خلال حركة التاريخ، وسنن الله في التاريخ، وسقوط الأُمم وصعودها، وصراع الحقّ والباطل الممتد في أعماق التاريخ، وفي ساحة التاريخ الكبرى... أمّا طريقة بعض الباحثين في دراسة عاشوراء... في اقتطاع هذا اليوم العجيب من مساحة التاريخ، ودراسته بمعزل عن مساحة التاريخ وحركة التاريخ الكبرى، وبتره عما قبله وبعده، وتكليس عاشوراء، وتعتيم هذه الرؤية النافذة التي تنفذ بنا من خلال عاشوراء إلى مساحة التاريخ الواسعة، فهو من الظلم لهذا اليوم وقيمته التاريخية.

وأذكر أنّي قرأت كتاباً عن (عاشوراء) قبل ما يقرب من أربعين سنة لا أحبُّ أن أذكر مؤلفه (رحمه الله) يتصور كاتبه أنّ جذور حادث الطف تكمن في قضية أُرَينب وما تلفّ هذه القضية من ظروف الغزل والغرام

وواسطة أبي هريرة، للحسين عليه السلام ويزيد بن معاوية في أمرها!! أو الخلاف والتنافس التاريخي بين (هاشم) و(أُمية)، حيث ولدا توأمين ملتصقين ببعض، وفصل الجراح بينهما وتنبئوا يومذاك أن يقع بينهما أو أبنائهما الدم!!.

إن عاشوراء أعمق بكثير من المستوى الذي يتناوله هؤلاء الكتّاب وأمثالهم.

ثأرالله

ثأر الله:

رؤية قرآنية للنصر والهزيمة

من المفاهيم العميقة الواردة في زيارة الحسين عليه السلام مفهوم «ثأر الله» وهذا المفهوم يفتح علينا آفاقاً واسعة للتفكير والتأمل ويطرح علينا مسائل من صلب الرسالة والعمل والحركة والجهاد، وهي مسائل بالغة الحسّاسية والأهمية مما تواجهها أُمتنا اليوم، ولذلك فسوف نتوقف قليلاً عند هذه الكلمة لنتأمل معطياتها وإيحاءاتها.

الجذور اللغوية للثأر:

يقول ابن سيده: «الثأر الطلب بالدم»[1]، والثائر: الطالب بالدم، وقيل الثأر طلب المكافأة بالجناية، والثائر: الطالب بالمكافأة بالجناية والدم.

ومنه حديث محمّد بن مسلم يوم خيبر: «أنا له يا رسول الله الموتور الثائر» أي طالب الثأر، وهو طالب الدم[2].

ولهذه الكلمة جذور تاريخية وأصل قرآني؛ فقد كان الدم يستثير أولياء المقتول وذويه للقصاص والانتقام من القاتل، وهذه سنّة تأريخية قديمة، والعرب قبل الإسلام كانوا من أكثر الأُمم والشعوب إهتماماً بمسألة

---

١ ـ يراجع لسان العرب ٢: ٧٧ لابن منظور الأفريقي المصري. دار احياء التراث العربي ـ بيروت.

٢ ـ النهاية لابن الأثير ١: ٢٠٤. دار احياء الكتب العربية.

القصاص والانتقام (الثأر)، وملاحقة المجرم وكانوا يعتقدون أنّ الرجل إذا قتل تمثلت روحه بشكل طير يقال له: «الهامة» ووقفت على قبره وصاحت «اسقوني»: أي أسقوني من دم قاتلي، ولا يزال كذلك حتّى يثأر أهل القتيل من قاتله، ومن المعيب على ذوي المقتول أن يتركوا القاتل ينعم بالحياة، دون أن يثأروا منه ويقتلوه؛ يقول السموأل في مفاخر قومه:

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طلّ منا حيث كان قتيل[١]

أي لم يذهب دم قتيل منا هدراً دون أن نثأر له.

والعرب في الجاهلية كانوا يتجاوزون في الثأر الحدود المعقولة حتّى قتل (مهلهل) بأخيه كليب من بكر بن وائل مقتلة كبيرة، وكاد يفني بكر بن وائل، حتّى جاء الإسلام وشرّع القصاص والمساواة والعدل في الأخذ بالثأر.

المعنى الاجتماعي للدم:

ولمسألة (الثأر) تأريخ ينفعنا أن نلمّ به في هذا العرض، فقد كان الدم في حياة العرب القبلية قبيل الإسلام مسألة اجتماعية تخص كرامة القبيلة كلها ضد القبيلة التي صدر العدوان منها كلّها؛ فإذا اعتدى فرد من قبيلة على فرد من قبيلة أُخرى لم يكن الدم يخص وليّ المقتول والقاتل فقط، وإنّما كانت القبيلة التي وقعت عليها الظُلامة هي صاحبة الدم؛ والقبيلة التي كان المعتدي منها هي التي تتحمل مسؤولية الدم، وليس شخص المعتدي فقط، وكان كلّ فرد من القبيلة الأُولى يعطي لنفسه الحقّ أن يثأر من كلّ فرد من القبيلة الثانية، وإنْ كان الثائر بعيداً عن المقتول والفرد الذي يقتل به لا علاقة له قريبة بالقاتل.

١ ـ ديوان الحماسة بشرح التبريزي ١: ١١١.

والسرّ في هذا الاهتمام والتعميم في مسألة الدم، أنّ القبيلة العربية كانت تعتبر الدم حقّاً للجميع، وعلى الجميع أن يعملوا لحماية دمائهم وللثأر من القاتل أو القبيلة التي تؤوي القاتل وتمنحه الحماية، فالدم للقبيلة وليس للفرد، والدفاع عن الدم يقع على القبيلة وليس مسألة فردية.

ولهذا التصوّر لمسألة الدم أصل صحيح في الإسلام في بعض الحدود، وإن كان الإسلام يختلف في أمر الدفاع عن الدم وحمايته والثأر من القاتل اختلافاً كبيراً عن قوانين الثأر في الجاهلية، فالدم مسألة تخص الجميع، ولا تخص المقتول فقط، يقول القرآن الكريم في التعقيب على أول عدوان وقع في تاريخ الإنسان على وجه الأرض على يد قابيل ضد أخيه هابيل:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا..﴾[1].

فالعدوان على شخص عدوان على الجميع أو كأنّه عدوان على الجميع.

إلاّ أنّ الإسلام هذّب قانون الثأر، ولم يسمح للجميع بالثأر وإنّما خصّ أولياء الدم بذلك، فإن لم يكن للمقتول ولي تولى ولي الأمر هذا الأمر، وذلك لئلاّ يكون الأمر فوضى، ولم يسمح مطلقاً بالقصاص والثأر من غير القاتل؛ يقول تعالى:

﴿..وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾[2].

---

١ ـ المائدة: ٣٢.

٢ ـ الإسراء: ٣٣.

فجعل الله تعالى لولي الدم الذي أُريق بغير حقّ سلطاناً ينتقم من الظالم ويقتص منه، على أن لا يسرف في القتل ولا يتجاوز حدود الله تعالى؛ يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١]

فلكلّ دم أُريق بغير حقّ ـ إذن ـ ثأر، ولولي الدم أن يطالب بإنزال العقوبة على المعتدي مقابل الجريمة، فيوكل الإسلام الأمر إلى ولي الدم ليثأر للمقتول، وإن لم يكن للمقتول ولي فولي الأمر.

الثأر في أسرة التوحيد:

وأمّا عندما تكون إراقة دم من أجل قضية التوحيد والعبودية لله وتحكيم رسالة الله في الأرض فإنّ الأمر يختلف؛ فالدم هنا أُريق في قضية رسالية وليس في قضية شخصية، والأمر يتعلّق بأُسرة التوحيد، ولا يتعلّق بالأُسرة العائلية، بمعناها الضيق.

وأُسرة التوحيد بمجموعها ثائرة لهذا الدم، وليس ذوو الدم من الأُسرة الشخصية للمقتول بمعناها المحدود والضيق، وكما أن الظلامة تقع على كلّ أفراد أُسرة التوحيد، كذلك العدوان يصدر من أُسرة الشرك بأسرها وليس من فرد أو أفراد بخصوصهم ما دام يجمعهم الرضا بذلك، فإن الآمر بالعدوان

١ ـ البقرة: ١٧٨.

والمـنفّذ له، والـذي يُعدُّ له أسبابه ومقدماته، والمشاهد لساحة الظلم الراضي بـه. كـلّ أولـئك يجمعهم الرضا بالظلم، وكلّ أولئك مطالبون بهذا الدم، نقرأ فـي زيـارة الإمـام الحسين عليه السلام هـذه الجملـة العجيبة التي تتضمن وعياً عالياً للصـراع والتاريخ والمجتمع، وتستوقف الإنسان طويلاً للتفكير: «لعن الله أُمّة قتلتك ولعن الله أُمّة ظلمتك ولعن الله أُمّة سمعت بذلك فرضيت به».

فالـثأر ـ فـي مـثل هـذه القضية ـ لا يخصّ الأيدي التي تلطخت بالجريمة مباشـرة، وإنّمـا يعـمّ كـلّ الراضـين بذلـك، والناس يجمعهم ويفرقهم الحبّ والـبغض والـولاء والـبراءة والرضـا والسخط في مثل هذه الأُمور التي ترتبط بالعقيدة والجهاد.

والناس في هذا الأمر ينقسمون إلى شطرين وولائين وعقيدتين، وأُسرتين:

أحدهما: أُسرة (التوحيد).

والأُخرى: أُسرة (الشرك).

والـدم الـذي يـراق مـن أجـل قضـية التوحـيد دمٌ لا يخصّ ذوي المقتول فقـط، وإنّمـا يعـمّ كـلّ أعضـاء هـذه الأُسـرة، كمـا أنّ المطالـبة بهذا الدم لا تـتوقف عـند القـاتل والمعـتدي فقـط من أُسرة الشرك والجاهلية، وإنّما تعمّ كـلّ أطراف العدوان من تلك الأُسرة: الآمر والمنفذ والمعد، وحتّى المشاهد الراضـي بذلـك؛ فالجـريمة إذن مـن أُسـرة الشرك على أُسرة التوحيد، والثأر لأُسرة التوحيد من أُسرة الشرك.

وحـقّ الـثأر هنا لا يتحدد بعصرٍ أو جيل، فما دامت الظُلامة باقية، وما دام هـناك دمٌ أُريـق ظُلمـاً وعدوانـاً مـن أُسـرة التوحيد، وأُسرة الشرك تتبنى هذا العـدوان وتدافع عنه، وترضى به، فإن الثأر حقّ لهذه الأُسرة من أُسرة الشرك

والجاهلية. وكلّ جيل من أجيال التوحيد لابدّ أن يطالب بالثأر، ويسعى له ليرفع الظُلامة، والدم ـ وهو هنا دم الشهيد ـ لا يفتأ يستصرخ الضمائر ويستثير الهمم في أعضاء الأُسرة للثأر، ولا يزال يغلي في ضمائر المؤمنين، من كلّ جيل حتّى يثأروا له.

ثأر الله:

وإذا كان دم الشهيد يستصرخ كلّ الضمائر المؤمنة في كلّ الأجيال للثأر، وكانت مسؤولية دم الشهيد على عهدة كلّ عضو في هذه الأُسرة، ومن كلّ الأجيال حتّى يتم الثأر فإن ولي الدم هنا ليس من قبيل ولي الدم في الدماء التي تراق في القضايا الشخصية، فهناك ولي الدم الأب والجد وإذا فُقدا فولي الأمر، وهنا ـ في دم الشهيد ـ الذي يراق من أجل قضية توحيد الله وحاكميته تعالى فإن ولي الدم هو الله تعالى، وهو ولي أُسرة التوحيد كلّها: ﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1].

والله تعالى هو الذي يتولى الثأر لدم الشهيد ويضمن له أن يأخذ بثأره من بين سائر الدماء. وهذا هو معنى «ثأر الله» الوارد في زيارة وارث: أي أنّ الله تعالى هو ولي الدم والمتصدي للثأر للشهيد، وأنّ دم الشهيد ثأر الله، فإنّ الدم هنا لكل أُسرة التوحيد ولكل الأجيال، والله تعالى هو عميد هذه الأُسرة ووليها الذي يطالب بالثأر لدمها.

---

١ ـ البقرة: ٢٥٧.

ومن هذا الباب نخاطب الحسين بن علي‌عليه‌السلام في زيارة «وارث» فنقول: (السلام عليك يا ثأر الله وابن ثأره).

وقد كان من عادة العرب قبل الإسلام أن تنصب راية حمراء على قبر القتيل حتّى يتم الثأر له، وتبقى هذه الراية لتذكّر أفراد القبيلة بالدم الذي أُريق ظلماً ولتستصرخ ضمائر أفراد القبيلة.

والذين يزورون مرقد الإمام الحسين‌عليه‌السلام اليوم يرون على قبة المرقد هذه الراية الحمراء تُرفرف لتذكّر الأجيال من أُسرة التوحيد بالثأر، لئلا تنام هذه الأُمّة على الظلم، ولئلاّ تقر لها عين، ولمّا يثأر المؤمنون بعد للدم الذي أُريق بكربلاء ظلماً وعدواناً.

موقع الثأر في الصراع الحضاري بين التوحيد والشرك:

ولنقف قليلاً عند هذه الكلمة لننظر كيف يكون هذا الدم «ثأراً لله» من دون سائر الدماء.

ليس المقصود بـ(الثأر) هنا القصاص فإنّه تشريع عامّ لكل من قتل بغير حقّ، إذا طالب أولياء الدم بذلك، وليس للشهيد خصوصية في هذا المجال، كما ليس المقصود بذلك معاقبة القاتل والمعتدي في الآخرة فهو أيضاً حكم عام لا يخصّ عدواناً دون عدوان، فلابدّ أن يكون للثأر هنا معنى آخر غير المعنى المألوف الذي يعرفه الناس، فالثائر هنا هو الله، وهو تعالى ولي الثأر، فما عسى أن يكون معنى (الثأر) هنا؟

وكيف يتولى الله تعالى المطالبة بدم الشهيدين الولد والوالد: «ثأر الله وابن ثأره»؟

وما هو المقصود من كلمة «ثأر الله» الواردة في هذه الزيارة؟

إن الصراع هنا ليس صراعاً شخصياً ليكون ثأراً من شخص ـ كما هو المألوف في الدماء والثارات ـ وإنّما الصراع صراع حضاري، فيكون الثأر ثأراً للقضية والرسالة، وإنتقاماً من الخط الحضاري الذي يريد أن ينال من خط الرسالة. فالشهيد يقاتل في سبيل الله، ولتثبيت كلمة الله على وجه الأرض، ولإسقاط الطاغوت، وإحباط دوره وعمله في الأرض وفي المجتمع ولإزالة الفتنة التي تعيق الناس عن سبيل الله، والجريمة هنا ليست جريمة على شخص وإنّما جريمة على الخط والرسالة، التي يقاتل من أجلها الشهيد وهي تحكيم شريعة الله في الحياة.

فلا بُدّ أن يكون (الثأر) إذن من جنس الجريمة ومن جنس القضية: ثأراً للقضية وانتقاما من الخط الحضاري المناوئ لسبيل الله وللصراط المستقيم، وانتصاراً للرسالة التي ضحّى من أجلها الشهيد، وإحباطاً لدور الطاغية وسعيه في الأرض.

فكما أن إنزال العقوبة المكافئة للإجرام بشخص المجرم من الثأر والانتقام، كذلك تسقيط الطاغية و(المجرم)، وإحباط دوره في الأرض، والانتصار للرسالة، وتأييدها ودعمها وإسنادها، يُعدّ انتقاماً من الطاغية وثأراً للشهيد، والثائر الذي يطلب بدماء الشهداء من أُسرة التوحيد، الإبراهيمية، ويتولى الانتقام من الظالمين والمجرمين، والانتصار للشهداء، هو الله تعالى فهو ولي الثأر، وولي الدم، والمنتقم الثائر.

كربلاء الساحة النموذجية للصراع بين الحقّ والباطل:

هذا المعنى من الثأر والانتقام الإلهي قد تحقَّق في الصراع التأريخي الذي حدث في كربلاء سنة (٦١هـ) بين سيّد الشهداء الحسين عليه السلام ويزيد بن

معاوية وجيشه.

لقد كانت هذه المعركة على صغر مساحتها العسكرية تجسد صراعاً ضخماً بين معسكرين، وحضارتين، وفكرتين ومدرستين، بين الإسلام والجاهلية، والذي ينظر إلى هذه المعركة من بعيد تتراءى له أنّ المعركة كانت بين طائفتين من المسلمين، ولخلافات ومسائل داخلية وسياسية تتعلق بالحكم والسلطان في الحياة الدنيا.

ولكن الأمر أعمق بكثير من هذا البعد؛ لقد اتخذت الجاهلية الأُولى ـ بعد هزيمتها أمام انطلاقة الرسالة الإسلامية ـ دولة بني أُميّة مظلة إسلامية واقية لها لتعود من جديد إلى صلب الحياة، ولتصادر كلّ مكاسب الإسلام في الحكم والإدارة والاقتصاد والتربية والتعليم والأخلاق والعقيدة، ونجحت هذه المحاولة الجاهلية نجاحاً كبيراً، حتّى استطاعت أن تتسلل من خلال آل أُمية إلى الخلافة وهو قمة النجاح السياسي والحضاري؛ والذي ينظر بإمعان في تأريخ معاوية وابنه يزيد من غير تعصب، لا يحتاج إلى عناء كبير ليلمس عودة الجاهلية الأُولى من خلال ولايتهما على المسلمين في البذخ وتبذير أموال المسلمين وفي استعمال المحرمات، من غناء، وخمر، وقمار، وفي الاستهانة بحدود الله. وفي تصفية قادة الأُمّة (الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه) وفي الاعتداء على معاقل العالم الإسلامي (مكّة المكرّمة والمدينة المنورة) وعشرات النماذج الأُخرى التي تكشف عن هذه الحقيقة، والتي لا يحتاج فهمها إلى أكثر من التجرّد عن التعصب.

وكان الحسين عليه السلام يدرك هذه الحقيقة إدراكاً جيداً، ويرى رؤية واضحة عودة الجاهلية إلى صلب المجتمع من جديد تحت مظلة بني أُميّة، ويرى

غفلة الأُمّة عن هذه المأساة، فلم يجد بُدّاً من أن ينهض بأهل بيته وأصحابه، ليكافح هذا التيار الجاهلي، ويصبغ هذه المقاومة بدمه ودماء الثلّة المؤمنة التي واكبته في هذه المسيرة، ولينبه الأُمّة إلى ضخامة الجريمة والمؤامرة التي تُنْسَجُ خيوطها في قصور بني أُميّة ضد الإسلام.

فكانت (واقعة كربلاء) مقاومة جريئة وفدائية وخالصة دارت رحاها حول مسألة حضارية مهمة هي (إيقاف الردّة الجاهلية) إلى صلب المجتمع ـ بعد أن أزاحها وعزلها الإسلام عنه ـ وإيقاف التيار الجاهلي، وصدّه من التقدّم، وفضحه، وكشف أبعاد هذه الجريمة، وتنبيه الأُمّة إلى عمق المأساة، وخطورة تلك الردّة التي تسللت إلى موقع الخلافة من خلال يزيد بن معاوية، ومن قبله أبوه معاوية ابن أبي سفيان.

إنّ الانتقام الحقيقي لدماء شهداء كربلاء، ليس في إنزال عقوبة مادية مماثلة، بالقتلة وإنّما الانتقام الحقيقي والمكافيء للجريمة هو: تحقيق الغاية التي قاتل من أجلها أهل البيت عليهم السلام وكشف حقيقة ونوايا الجهاز الحاكم، وإيقاف تيّار الردّة الجاهلية، وإحباط المؤامرة الجاهلية.

هذه النقاط في الحقيقة هي النقاط الأساسية للانتقام من الظالم والانتصار للمظلوم وتحقيق إرادة الشهيد وإحباط إرادة (الطاغية).

والله تعالى هو الذي يتولّى تحقيق هذه الغايات وتوفير هذه الضمانات جميعاً للشهيد، فهو ولي الدم وصاحبُ الثأر والمنتقم من الطاغية، والمنتصر للشهيد.

و(هذا الثأر الإلهي) من الظالم يعم كلّ الشهداء بدرجات مختلفة: فكلّ دم أُريق في سبيل الله دم مضمون القضية، والله تعالى ولي كلّ دم أُريق في

سبيله وهذه الضمانة الإلهية لدم الشهيد تعطي دم الشهيد قيمة حركية كبرى في التأريخ، فهو الدم المضمون والمؤمّن الذي يتولى الله تعالى الثأر له، وتحقيق قضيته ورسالته ودحض أعدائه وإسقاطهم وفضحهم؛ وقلّما يتمتع شيء في حياة الإنسان بمثل هذه الحركية التي يمنحها الله تعالى لدم الشهيد.

الضمانة الإلهية لدم الشهيد:

وهذه الضمانة الإلهية لمسيرة الدعوة يرسمها القرآن الكريم في أكثر من آية بطريقته الخاصة، ليبعث في نفوس المؤمنين الثقة والطمأنينة بالعاقبة، وليثبتهم على طريق ذات الشوكة.

وآيات القرآن تتناول هذه الحقيقة ـ الضمانة الإلهية للمسيرة بتعابير وصيغ مختلفة ـ وبصورة مؤكدة وواثقة، وذلك إذا أخلص المؤمنون لله، وصدقوا وثبتوا، وانتزعوا من قلوبهم حبّ الدنيا وآثروا رضوان الله على كلّ شيء، وابتغوا طاعة الله وحده؛ يقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾[٢].

﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ..﴾[٣].

﴿..وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٤].

﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾[٥].

---

١ ـ محمّد: ٧.

٢ ـ غافر: ٥١.

٣ ـ التوبة: ١٤.

٤ ـ الحج: ٤٠.

٥ ـ آل عمران: ١٥٠.

﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[١].

﴿..وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[٢].

﴿..فإن حزب الله هم الغالبون﴾[٣].

﴿..وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيرًا﴾[٤].

﴿..وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[٥].

وليست هذه الآيات المباركات ضمانات اعتباطية، وخارجة عن دائرة السنن الإلهية، التي لا تتبدل ولا تتغير، وإنّما تأتي هذه الضمانات الإلهية بموجب سلسلة من الأسباب والعلل، منها ما يرتبط بالقلب والجوانح، ومنها ما يرتبط بالجوارح؛ وجملة هذه الأسباب هي التي تستنزل النصر والقوّة من عند الله تعالى للجماعة المؤمنة في صراعها مع قوى الكفر والجاهلية على وجه الأرض.

وأهم هذه الأسباب هي الإيمان، والتوكل على الله والثقة به، والجهاد، والعمل في سبيله، والإخلاص وابتغاء وجهه الكريم، والانتصار لدينه، والصبر، والثبات، والصدق في الموقف، والإعداد الميداني للمعركة وغير ذلك من الأسباب التي تستنزل النصر من الله تعالى، وتؤمّن الضمانة الإلهية للنصر في ساحات القتال والمواجهة.

والشهداء في طليعة المؤمنين، إيماناً، وثقة بالله، وجهاداً، وتضحيةً،

---

١ ـ الأنفال: ٤٠.

٢ ـ الحج: ٧٨.

٣ ـ المائدة: ٥٦.

٤ ـ النساء: ٤٥.

٥ ـ الفرقان: ٣١.

وعطاءً، وبذلاً في سبيل الله تعالى، وابتغاءً لوجهه الكريم، وثباتاً، وصدقاً في القول والعمل، وصبراً في مواجهة التحديات.

هذه كلّها مفاتيح النصر، والأسباب التي تستنزل النصر من عند الله تعالى، ودم الشهيد يجمع هذه الخصال جميعاً، ويشهد للشهيد بالصدق والصبر والعطاء.

معنى النصر والهزيمة:

وقبل أن نسترسل في الحديث عن الضمانة الإلهية لدم الشهيد ومواكب الشهداء في التأريخ، ووعد الله تعالى لهم بالنصر والتأييد والغلبة على معسكر الجاهلية، لابدّ أن نقف هنا وقفة قصيرة لنقول:

إنّ هذا النصر ليس بالمعنى العسكري للنصر، فقد كان بنو أُمية هم المنتصرون يوم الطف على معسكر الحسين عليه السلام، لو كنا نقصد بالنصر هذا المعنى الذي يفهمه الناس من النصر عادةً، ولكننا عندما نتجاوز الشعاع المنظور للمعركة، والأبعاد العسكرية والسياسية القريبة لها نجد أن الحسين عليه السلام قد تمكن من إسقاط يزيد وإسقاط القناع عن وجهه كأمير للمؤمنين، وفضحه، ومصادرة الشرعية التي حاول أن يسبغها على نفسه، والقواعد التي كان يستند إليها، وإنهاء خطه السياسي في تحريف الإسلام عن مجراه الصحيح.

وهذا هو كلّ ما كان يريده سيد الشهداء عليه السلام في صراعه مع يزيد، فلم يكن الحسين عليه السلام يطلب حكماً أو سلطاناً عاجلاً، وقد كان على بيّنة من أمره هذا، عندما خرج من الحجاز إلى العراق، وإنّما كان يريد أن يعرّي يزيد أمام المسلمين، ويسقط القناع عن وجهه، لئلاً يتمكن من تحريف

مسيرة الإسلام وتحويله إلى ملك عضوض - كما يقول رسول الله ﷺ - وقد استطاع الحسين عليه السلام أن يحقق بالدقة كلّما يبتغيه من خروجه على يزيد.

إنّ المعركة التي خاضها سيد الشهداء الحسين عليه السلام لم تكن تستهدف أهدافاً عسكرية أو اقتصادية لنقيس نجاح المعركة وفشلها بما حقق من أغراض عسكرية أو اقتصادية، وإنّما كانت معركة حضارية، فقد استطاعت الجاهلية الأُموية التي هزمها الإسلام أن تتسلل إلى مراكز القيادة في المجتمع الإسلامي من جديد بكلّ أبعادها وتراثها الجاهلي، وكان هدف الحسين عليه السلام هو إيقاف هذا المدّ الجاهلي الذي بدأ يمتد إلى جسم الإسلام وباسم الإسلام، وصدّه، وفضحه وتعريته، وقد حققت ثورة الحسين عليه السلام كلّ ما كان يريده في هذه الحركة المباركة.

لقد أسقطت شهادة أبي الشهداء عليه السلام وأهل بيته وأصحابه القناع عن وجه يزيد، وعرّته تماماً للمجتمع الإسلامي وللتأريخ، وانتزعت منه وممن خلَفَه الشرعية التي كان يحرص عليها هؤلاء، فلم يعد يزيد وخلَفَه من حكّام بني أُمية يشكّلون خطراً على أُصول هذا الدين وفروعه وخطّه، ومقاييسه وتراثه.

وقد تولى الله تعالى قضية هذه الدماء ورسالتها وثأر لها وحقق قضيتها، لو أننا فهمنا النصر بمعناه العميق الحضاري والتاريخي، وليس الفوز في جولة عسكرية، وليس من الصحيح أن نقيس النصر والهزيمة بمقياس النجاح والفشل في جولة عسكرية، ولو أردنا أن نفهم النصر والهزيمة في هذه الدائرة الضيقة وبمثل هذا الفهم المحدود لم نستطع أن نفهم حركة التأريخ وسنن الله في التأريخ؛ فقد يربح أحد الأطراف جولة من المعركة ولا يكون منتصراً بالمعنى البعيد والحضاري لهذه الكلمة؛ وقد يخسر أحد الأطراف

الجولـة والجولتيـن في المعركة ولن يكون مهزوماً؛ وقد يربح الطرف الذي يحسـن اللعب على الحبال، ويُحسـن شـراء وبـيع الضـمائر ويحسن الخيانة وتجـاوز القـيم، ولكنه لن يكون منتصراً؛ وقد يخسر الطرف الذي يثبت عند القـيم والمـبدأ الجولة الواحدة والثانية والثالثة في المعركة وتكون لـه العاقبة المحمودة والنصر.

إذن لا يقاس النصر بهذه المقاييس الآنية والوقتية وإنّما بتحقيق الأهداف والغايـات الحضارية؛ والحسين عليه السلام بهذا المقياس قد انتصر على يزيد، وقبله أخـوه الحسـن المجتـبى عليه السلام علـى معاويـة، وقـبلهما أبوهمـا علـي بـن أبـي طالـب عليه السلام على معاوية، وهذا هو المقياس الصحيح لمعرفة النصر والهزيمة، وهـذا الذي نقصده نحن من النصر في الصراع الخالد بين الإسلام والجاهلية الذي يضمنه الله تعالى للصالحين من عباده.

ثأر الله:

القيمة الذاتية للشهادة

في هذه النقطة نتناول قيمة الدم ودوره في تكامل شخصية الشهيد وسلوكه إلى الله تعالى.

إنّ (الدم) في الوقت الذي يعتبر من أقوى عوامل التحريك في المجتمع، يُعدّ من أهم عوامل بناء شخصية المؤمن وتكامله وسلوكه إلى الله تعالى.

ولكي نفهم قيمة الدم ودوره في تكامل شخصية الإنسان وسلوكه إلى الله لابدّ أن نلم إلمامة سريعة بهذه الرحلة الطويلة والعسيرة التي تنقل الإنسان من محور (الأنا) و(الذات) و(الهوى) إلى محور (ولاية الله) وتمثل حركة الإنسان وسيره التكاملي إلى الله.

رحلة الإنسان إلى الله:

ويوجز القرآن الكريم هذه الرحلة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾[1]، وبالتأمل في هذه الآية الكريمة نلتقي بالنقاط التالية:

١ ـ إن هذه المسيرة والنقلة، هي الهدف والغاية من خلق الإنسان، ولذلك يتوجه الخطاب في الآية الكريمة إلى (الإنسان)، على غير طريقة القرآن في

---

١ ـ الانشقاق: ٦.

الخطابات التي تترتب على الإيمان بالله، حيث يوجه القرآن فيها الخطاب إلى ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، وتوجيه الخطاب هنا إلى الإنسان دون تخصيص بالذين آمنوا فقط، ينمّ عن أن هذه المسيرة والرحلة هي الهدف والغاية من خلق الإنسان، ومن دون أن يدخل الإنسان في هذه المسيرة، ويتعرض لكدحها وعنائها لا يمكن أنْ يحقّق الغاية والهدف من تكوينه وخلقه، ولا يتحقق النضج والرشد والكمال المطلوب منه.

٢ ـ وتبدأ هذه المسيرة بـ (الأنا)؛ بما تكتنف الأنا من الشهوات والأهواء والغرائز، بصورة طبيعية، وتنتهي إلى الله: ﴿إِلَى رَبِّكَ...﴾. وهذا القوس الصعودي من الأنا إلى الله هو مسار حركة الإنسان ونموه وتكامله.

٣ ـ ولابدّ أنْ تتم هذه الحركة بصورة اختيارية وطوعية في حياة الإنسان، وقيمة هذه الحركة أنّها تتم بصورة اختيارية وطوعية وبإرادة الإنسان. ولو أن هذه الحركة كانت تتم بصورة قهرية لم تكن تحقق للإنسان هذا التكامل والنمو الذي سوف نشير إليه.

إنّ الموت ينتزع الإنسان بصورة قهرية من محور الأنا، ولذّاته، وشهواته، وأهوائه، وما يملك من متاع الحياة الدنيا، ومن الأبناء، والأزواج، والأموال، إلاّ أن هذا الانفصال حيث يتمّ بصورة قهرية لا يحقق للإنسان لقاء الله الذي تشير إليه الآية الكريمة.

ولعلّ صعوبة (النزع) نابعة من هذا الانتزاع القهري من الحياة الدنيا وكلما تكون علاقة الإنسان بالحياة الدنيا أكثر وأعمق تكون نزعات الموت عليه أصعب وأقسى. وإن الإنسان ليفقد دراهم معدودات من المال أو بعض أعزائه، أو بعض ما يملك من حطام الدنيا فيشق عليه ذلك مشقة بالغة،

فكيف إذا قهره الموت لينتزعه من كلّ علاقاته في الحياة الدنيا على الإطلاق، ومرّة واحدة.

وهذا الانتزاع القهري الذي يحققه الموت لا يرفع من درجة الإنسان ولا يحقق للإنسان كمالاً. لأنه تم بصورة قهرية ومن دون إرادة الإنسان وإنّما يتكامل الإنسان عندما يسعى لانتزاع نفسه من التعلّق بالحياة الدنيا، ومتاعها، ولذاتها، بصورة اختيارية، وبشكل تدريجي، حتّى يتحرر من حبّ الدنيا والتعلّق بها ومن (الأنا) و(الهوى) بشكل كامل.

ولعلّ الحديث المعروف: «موتوا قبل أن تموتوا»[١] يشير إلى هذه الحقيقة، ويكون المقصود بالموت الأول هو الموت الاختياري وبالموت الثاني هو الموت القهري والطبيعي. وهذه الحركة الطوعية إلى الله تتطلّب من الإنسان الكثير من الجهد والمعاناة، وربما تشير الآية الكريمة إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى:﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾.

٤ ـ وهذه المسيرة مسيرة كمال الإنسان وعروجه إلى الله. والغاية من هذه المسيرة هي أشرف الغايات وأسماها في حياة الإنسان على الإطلاق وهي: لقاء الله، وإلى هذه الغاية العليا تشير الآية الكريمة: «فملاقيه».

فإن لقاء الله هو النتيجة التي تترتب على مسيرة الإنسان الكادحة إلى الله، وحسب الإنسان في هذه الرحلة الشاقّة والكادحة أن ينال (لقاء الله) وتلك غاية لا ينالها إلاّ القليل ممن ارتضاهم الله تعالى واختارهم.

٥ ـ وهذه المسيرة بقدر ما تحقق للإنسان الكمال والتسامي ونيل لقاء الله ـ

١ ـ بحار الانوار: ٥٩: ٧٢ ح١.

الـذي هـو أشـرف مـا يـناله الإنسـان فـي دنـياه وآخـرته ـ تتطلب منه الجهد والعـناء والكـدح، وهـذه الضـريبة الحتمية في الطريق إلى الله هي التي تشير إليها الآية الكريمة: ﴿كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ﴾.

دراسة للمنطلق والغاية في حركة الإنسان

مـنطلق الإنسـان فـي هـذه الحـركة هـو (الأنـا)، وغايـة الإنسـان فـي هـذه الحـركة هـو (الله) تعـالى، والإنسـان يكـدح بيـن هـذا المنطلق وتلك الغاية، والمـنطلق (الأنـا) محفـوف دائمـاً بالشـهوات والأهواء، ويتطلب من الإنسان الـركون إلـى متاع الحياة الدنيا ولذاتها، والتسليم لها، ويسعى لفرض سلطانه على الإنسان، وحبسه عن العروج والصعود إلى الله.

والغاية في هذه الرحلة هي الله تعالى وهو سبحانه يطلب من عباده الطاعة والانقـياد والتسـليم والرضـا والحـبّ والنصر وتجتمع هذه المعاني جميعاً في كلمة (الولاء).

والإنسـان يـتحرك كادحـاً بيـن هـذا المـنطلق وتلـك الغايـة، بيـن جاذبـية المنطلق بما تحفه من الشهوات والغرائز، وبين الكدح الشاق والعسير إلى الله تعالى.

ولابـدّ أن نقف وقفة قصيرة عند هذا المنطلق وتلك الغاية، لنعرف قوانين وسنن هذه الحركة الصاعدة (الكادحة) إلى الله تعالى من (الأنا).

١. المنطلق

أول شيء يوقفنا في هذه المسيرة نقطة المنطلق وهي (الأنا) والذات الإنسانية، وتكتنف (الأنا) ثلاثة أنواع من العوامل: اثنان منهما يتجاذبان الإنسان ويسحقانه كحجري الرحى، ويشدّان الإنسان إلى الحياة الدنيا شدّاً وثيقاً ويقيدانه، ويعرقلان تحركه وانطلاقه، ويثقلانه بحبّ الدنيا ومتاعها ولذاتها.

وأجمل تعبير عن هذا الانشداد هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[1] وهذان العاملان اللذان يضغطان على الإنسان، ويشدّان الإنسان إلى الأرض هما:

أ ـ الشهوات والغرائز والأهواء والميول النفسية. وهذا النوع يكمن داخل النفس ويصطلح عليه القرآن بـ(الهوى).

ب ـ المغريات والمثيرات التي تحرك الشهوات وتهيج الغرائز، وهذا النوع قائم في ساحة الحياة، ويثير الشهوات والغرائز في نفس الإنسان، كالبنين والنساء والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ويصطلح القرآن عليه بـ(الفتنة).

وبين هذا العامل وذاك يقع اللعين إبليس وجنوده من شياطين الجن والإنس، الذين يقومون بدور الوساطة بين (الأهواء) و(الفتن) بتحريك الشهوات في نفس الإنسان بالمغريات والمثيرات، وجذب الشهوات إلى

١ ـ التوبة: ٣٨.

هـذه المثيرات. والإنسان في نقطة (المنطلق) هـذه يقع تحت تأثير هذه العوامل الثلاثة التي تضغط عليه، وتحدد حركته، وتقيده عن الانطلاق والصعود.

مثلث الابتلاء في القرآن الكريم

ونعود مرّة أُخرى إلى القرآن الكريم لنتعرف على دور (الأهواء) و(الفتن) و(الشيطان) في حياة الإنسان.

ونبدأ الحديث عن الشهوات والأهواء:

أ ـ الهوى:

عن الهوى ودوره التخريبي في حياة الإنسان يقول تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وفي الرواية إن هذه الآيات نزلت في بلعم بن باعوراء من علماء بني إسرائيل الذي آتاه الله تعالى آياته فانسلخ منها باتباعه الهوى.

وسواء صحت هذه الرواية أم لم تصح فإن الآية الكريمة تشير إلى الدور التخريبي الواسع لسلطان الهوى على حياة الإنسان.

الأثر الأول: هذه الآثار هو الخلود إلى الأرض ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾ والمقصود بالأرض الحياة الدنيا، والخلود: السقوط. وهذا هو

---

١ ـ الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦.

الأثـر الأول لسـلطان الهـوى علـى الـنفس وهـو السـقوط فـي لـذات الدنـيا وحطامهـا، والالتصاق بها، وهذا السقوط بطبيعة الحال في مقابل العروج إلى الله، يحبس الإنسان عن الله.

والأثــر الثانــي: هـو الانسلاخ عن آيات الله ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ كما تنسلخ الحية من جلدها، وينفصل ويبين عنها تماماً، فلم تعد لها علاقة به، ولم يعد لـه علاقـة بهـا، كذلـك الإنسـان إذا تمكـن مـنه الهـوى ينسلخ عن آيات الله وتبيـن عـنه، ويصبح غريباً عنها وتصبح غريبة عنه، ويفقد كلّ بصيرة ووعي بآيات الله، ويرفضها، كما يرفض المريض الطعام الشهي اللذيذ.

والأثر الثالث: إتباع الشيطان ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي أدركه، وتمكن منه، ومـن تمكـن مـنه الشـيطان ونشبت فيه مخالبه، سلب منه عقله وقلبه وضميره وفطـرته وكـلّ مـا آتاه الله تعالى من القيم وذلك أقصى درجات السقوط في حياة الإنسان.

والأثــر الرابع: الغواية والضلالة ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، وكيف يمكن أن يسـتقيم علـى هـدى الله مـن تمكـن مـنه الشـيطان، وسـلب مـنه عقلـه وقلـبه وضميره وفطرته ومسخه فلا محالة يكون سعيه كلّه في ضلال وغي.

والأثــر الخــامس: الجشـع والحـرص علـى حطـام الدنـيا ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ فلا يروي ظمأهم إلى حطام الحـياة الدنـيا وزخـرفها شـيء ومهمـا أكـثروا مـنها ازدادوا إلـيها جشعاً. كما يصـيب الكـلاب داء (الكَلَـب) فـلا يـرويها مـاء، فهي تلهث على كلّ حال، كذلـك هؤلاء الذين اتبعوا أهواءهم فأخلدوا إلى الأرض فلا يزيدهم السعي إلـى الدنـيا إلاّ لهاثـاً وظمـأً ولسـت أقـول لا تـزيدهم الدنـيا، وإنّمـا أقـول لا

يـزيدهم السعي إلى الدنيا، فقد يسعى المؤمن إلى الدنيا فيصيب منها ما يشاء الله قـلّ أو كـثر، ولكنه لا يلهث خلف الدنيا ولا يزيده السعي إلى الدنيا ظمأً ولهاثاً من ورائها.

روي أن الإمام الصـادقعليه السلام قـال لـرجل اشـتكى إليه حرصه على الدنيا: «إن كـان مـا يكفـيك يغنيك، فأدنى ما فيها يغنيك وإن كان ما يكفيك لا يغنيك، فكل ما فيها لا يغنيك»[1].

تلـك صـورة عـن سـلطان الهـوى علـى الإنسان ودوره التخريبي في حياة الإنسان... من القرآن الكريم.

ويرسـم القـرآن، علـى لسـان امرأة العزيز، في سورة يوسف لوحة أُخرى لسلطان الهوى على الإنسان، وهي لوحة معبّرة وناطقة وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[2] وتحمـل هذه الآية المباركة ـ من معاني تأكيد سـلطان الهـوى علـى الـنفس ـ الشـيء العضـيم وكان أساتذتنا عندما كنا نقرأ (النحو) يستشهدون بهذه الآية الكريمة في تكرار التأكيد وتوكيده.

فالجملـة اسـمية، ومصـدّرة بـأنّ، والأمّارة صيغة مبالغة معروفة، ومصدّرة باللام لتأكيد المبالغة والتأكيد.

وكـلّ هـذه التأكـيدات لتثبـت الـدور التخريبـي السـيء للهـوى (الأمـارة بالسوء) ونكتفي بهاتين الآيتين من كتاب الله في تقرير الدور السلبي لسلطان الهوى في حياة الإنسان.

---

١ ـ أُصول الكافي ٢: ١٣٩.

٢ ـ يوسف: ٥٣.

ب. الفتنة:

وهذا هو الضلع الثاني من مثلث الابتلاء، والفتنة والفتن هي المغريات والمثيرات التي تغري الإنسان وتثير النفس، وهي تقع خارج النفس، وفي الحياة الدنيا، بعكس الهوى الذي يكمن داخل النفس. والدنيا فتنة، وحطامها فتنة، وما فيها من الذهب والفضة والأموال والأولاد والأزواج فتنة. وهذه الفتن تأسر الإنسان وتسلبه إرادته، وتستذله.

يقول تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[1].

وهذه النقاط التي تذكرها الآية الكريمة هي أعظم اهتمامات الإنسان عندما يحوم حول محور (الدنيا). وللشيخ بهاء الدين العاملي ﵀ التفاتة طريفة في تفسير هذه الآية الكريمة كما ينقل ذلك العلاّمة الطباطبائي في الميزان[2] يقول الشيخ: إنّ الله تعالى استعرض هذه الحالات الخمس بترتيب وموازاة مراحل عمر الإنسان المختلفة. فالإنسان يبدأ المرحلة الأُولى من عمره باللعب، ثم تعقب هذه المرحلة مرحلة المراهقة وهي مرحلة اللهو، ثم بعد ذلك تأتي مرحلة الزينة والأناقة في حياة الإنسان، وهي مرحلة اكتمال ونضج الشباب ثم في نهاية مرحلة الشباب تبرز في الإنسان حالة حبّ التفاخر والرثاء والتظاهر، فإذا تقدّم السن بالإنسان وأشرف على الشيخوخة

---

١ ـ الحديد: ٢٠.

٢ ـ الميزان ١٩: ١٨٨.

ظهرت فيه حالة التكاثر في الأموال والأولاد.

ويقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[١].

وهذه النقاط هي أهم المسائل التي تستثير غرائز الإنسان وتهيّجها وتشدّ الإنسان إلى هذه المغريات التي يحصي القرآن طرفاً منها في هذه الآية.

ج . الشيطان:

وإبليس وجنوده من الشياطين هم الضلع الثالث من (مثلث الابتلاء) يقرّب البعيد للإنسان، ويبعد القريب، ويوسوس في النفس، ويزيّن للإنسان القبيح، ويقبح له الجميل، ويعرض عليه الفتن عرضاً ليزيد في إثارتها وإغرائها، ويحرك أهواء الإنسان وشهواته ويفتنه بها:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا..﴾[٢].

﴿..وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاء وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٣].

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً..﴾[٤].

---

١ ـ آل عمران: ١٤.

٢ ـ الأعراف: ٢٧.

٣ ـ البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩.

٤ ـ البقرة: ٢٦٨.

﴿..وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ..﴾[١].

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ..﴾[٢].

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[٣].

تلك هي الأضلاع الثلاثة لمثلث الابتلاء الرهيب الذي يشدّ الإنسان إلى الحياة الدنيا، وتلك هي نقطة المنطلق في حياة الإنسان.

أعراض التعلق بالدنيا في نقطة الانطلاق:

وينشأ من تعلق الإنسان بالدنيا، وانشداده إليها ثلاثة أنواع من الأعراض المرضية الصعبة:

منها: ما يتعلق بعلاقته بالدنيا.

ومنها: ما يتعلق بعلاقته بالله تعالى.

ومنها: ما يتعلق بعلاقته بالآخرين.

والنوع الأول هو: الأمراض الأخلاقية التي تخص علاقة الإنسان بالدنيا مثل (الحرص) و(الطمع) و(الجشع) و(الركون إلى الدنيا) و(البطر) و(طول الأمل)... وغير ذلك.

والنوع الثاني: الأعراض التي تخص علاقة الإنسان بالله تعالى وهي كثيرة وممّا لاشك فيه أن علاقة الإنسان بالدنيا لها انعكاس مباشر ونسبة عكسية على علاقة الإنسان بالله تعالى وكلما كان إقبال الإنسان وانشغاله

---

١ ـ النساء: ١١٨ ـ ١١٩.

٢ ـ المجادلة: ١٩.

٣ ـ طه: ١٢٠.

بالدنيا أكثر قلّ إقباله على الله تعالى وذكره إياه. والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[1] أن الإحساس بالاستغناء وهم كاذب ناتج عن تعلق الإنسان بالدنيا وإقباله عليها واعتماده عليها، وهو ليس من الاستغناء فإن الإنسان لا يستغني عن الله تعالى في كلّ حال، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ..﴾[2]، وإنّما هو وهم كاذب للاستغناء وتعبير القرآن عن ذلك دقيق ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ وليس (أن استغنى) وبين هذا وذاك فرق. إذن المسألة نفسية، وليست موضوعية. وبتعبير آخر ليس الغنى والتمكن من أسباب الحياة الدنيا هي التي تؤدي بالإنسان إلى الطغيان، إذا كان الإنسان يشعر في قرارة نفسه في كلّ الحالات بفقره وحاجته إلى الله، وإنّما الذي يؤدّي إلى الطغيان في علاقته بالله هو وهم الاكتفاء بالدنيا عن الله والاستغناء بالدنيا عن الله، وهو يؤدي إلى الشره والحرص ويؤدي إلى الطغيان والإعراض عن الله تعالى في وقت واحد.

إذن الإقبال على الدنيا، والاعتماد عليها، والتعلّق بها يؤدي بالإنسان إلى الإعراض عن الله بدرجات مختلفة على قدر إقباله على الدنيا، وتعلقه بها، وانشداده إليها، ويؤدي به إلى ضعف الثقة بالله وضعف التوكّل على الله، وضعف اليقين بالله، وينعكس انعكاساً سلبياً على يقينه وثقته وإقباله وتوكله على الله وهذا هو النوع الثاني من الأعراض النابعة عن تعلق الإنسان بالدنيا.

---

١ ـ العلق: ٦ ـ ٧.

٢ ـ فاطر: ١٥.

والنوع الثالث من هذه الأعراض: هي الأعراض الناجمة عن الاحتكاك والتنافس، والتزاحم فيما بين الناس على حطام متاع الدنيا، كالحسد والبغضاء وسوء الظن، والغيبة، والكذب، والمماراة، والجدال، والتقاطع، والتسقيط والعدوان.

وهذه الأمراض الثلاثة نابعة من حبّ الدنيا، وهي من عوامل انحراف الإنسان وسقوطه، ولذلك ورد في الحديث الشريف «حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة»[١].

هذا هو ـ على نحو الإيجاز الشديد ـ المحور الأول أو المنطلق في حياة الإنسان، وهو (الأنا). والأعراض المرضية الناجمة عن ارتباط الإنسان بهذا المحور والتي تجرّه إلى السقوط والهلاك.

٢ـ الغاية

والمحور الآخر في حياة الإنسان هو (الله)؛ فعندما ينتقل الإنسان إلى هذا المحور يضع نفسه بشكل كامل تحت تصرف حكم الله وإرادته وسلطانه، وأمره، ونهيه، وينقاد لسلطان الله انقيادا كاملاً في كلّ أمر يرتبط بحياته، فيما يتعلّق بجوارحه وأعضائه، وما يتعلّق بجوانحه وحبّه، وبغضه، ويخرج بشكل كامل من سلطان الهوى والأنا، وينتزع نفسه انتزاعاً كاملاً من سلطان هذا

---

١ ـ الدنيا ليست مذمومة في الفكر الإسلامي، واقتناء متاع الدنيا ليس أمراً مذموماً، إنّما المذموم هو التعلّق بمتاع الحياة الدنيا والانشداد إليها فليس من بأس أن تكون الدنيا بمتاعها ولذاتها وطيّباتها في قبضتك، فليست هذه الطيبات محرّمة على عباد الله، ولكن البأس كلّ البأس أن يكون الإنسان في قبضة الحياة الدنيا وتحت تأثيرها.

المحور، ويدخل في دائرة سلطان ولاية الله بشكل مطلق، ومن دون حدود وقيود فلا يحبّ إلاّ ما يحبّ الله، ولا يبغض إلاّ ما يبغض الله، ويحبّ الله، ويحبّ لله، ويحبّ في الله، ويبغض في الله، وينقاد لأمر الله ونهيه، ويستسلم لمشيئة الله وحكمه، استسلاماً كاملاً.

والآية الكريمة التالية من سورة الأنعام تعطي تصوّراً واضحاً ودقيقاً لهذا المحور الذي نتحدث عنه، والذي هو دين إبراهيم عليه السلام: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1].

فلن يكون الإنسان داخلاً في دائرة ولاية الله، وخاضعاً للمحور الربّاني في الحياة إلاّ عندما يكون كلّ شيء في حياته لله تعالى من دون استثناء: صلاته ونسكه، وحياته، ومماته.

الطاعة والتسليم والذكر والرجاء والرهبة والحبّ:

ومن أهم مقومات هذا الارتباط:

الطاعة والتسليم والذكر، والرجاء والرهبة والحب ورأس كلّ ذلك (اليقين)، وهو من أعز ما أنعم الله تعالى على عباده من النعم. ولابدّ أن تجتمع هذه الأمور جميعاً حتّى يخرج الإنسان من دائرة الأنا، ويدخل في دائرة ولاية الله تعالى.

ومن الطاعة: التبعية لأحكام الله، والالتزام بحدوده تعالى والقيام بفرائضه، والتقوى.

---

١ ـ الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣.

ومن التسليم: الرضا بقضائه وقدره، والتسليم لمشيئته وإرادته.

ومن الذكر: وعي حضور الله تعالى، واستحضار سلطان الله في كلّ الحالات، والمراقبة والمحاسبة، وانفتاح القلب على الله والانصراف إلى الله وانشغال القلب بالله تعالى وصفاته وأسمائه الحسنى عن كلّ شيء آخر إلاّ أن يكون في امتداد ذكر الله وأمره.

ومن الرجاء: الدعاء والسؤال والاستغفار.

ومن الرهبة: التضرع والبكاء والتقوى والخشية والخشوع.

ومن الحبّ: الأُنس بالله والحبّ في الله والبغض في الله، والحنين والشوق إلى لقاء الله والابتهاج بذكر الله وقضائه.

وسبيل الإنسان إلى حبّ الله تعالى: الطاعة والتبعية والتقوى والانقياد لأحكام الله وإذا أحبّ الإنسان ربّه أحبّه الله، يقول تعالى: ﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ..﴾[1] وإذا أحبّ الله عبداً رزقه نوراً في بصره، وسمعه، وقلبه، وقوّة في بطشه، وتسديداً في كلامه ونطقه وفعله.

فقد ورد في الحديث القدسي: «ما يتقرب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، وانه ليتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته»[2].

---

١ ـ آل عمران: ٣١.

٢ ـ روى الفريقان هذا الحديث بشكل متواتر فقد ورد عن طريق أهل البيت بطرق متعددة رواها شيخ الإسلام الكليني في الكافي، والبرقي في المحاسن، والحرّ العاملي في الأحاديث القدسية وغيرهم كما ورد عن طريق العامة بروايات متعددة رواها البخاري في الصحيح والغزالي في الإحياء وغيرهما من الرواة والعلماء.

وإذا خرج الإنسان من سلطان الهوى ودخل في دائرة ولاية الله رزقه الله، كما في هذا الحديث، نوراً في بصره، وسمعه، وتسديداً في كلامه ومنطقه وفعله، وقوّة في بطشه. فيسمع بالله ويبصر بالله وينطق بتسديد الله ويبطش بحول الله وقوته.

كيف يأخذ الإنسان ويعطي بالله؟

وبالتأمل في هذا الحديث نجد أن الإنسان عندما يتحول بشكل كامل إلى محور الولاية الإلهية يتحول إلى أداة طيّعة لتنفيذ مشيئة الله، في الأخذ والعطاء معاً، فهو في الجانب الأول (الأخذ والتلقي) يسمع بالله ويبصر بالله. وفي الجانب الثاني (العطاء والإرسال) ينطق بتسديد الله، ويبطش بحول الله وقوته. والله تعالى يختار الإنسان في هذه الحالة ليكون أداةً لتنفيذ مشيئته وإرادته على وجه الأرض. يأخذ بالله ويعطي بالله ولله، فلا يكون للأنا، والذات، والهوى دور في عمله وحبّه وبغضه وتحركه وكلامه، وموقفه وسكوته، ولا يكون للأنا والهوى أي درجة من درجات السلطان والنفوذ والتأثير على حياته، وسلوكه وفكره ورأيه.

وهذا هو معنى الانسلاخ والانتزاع الكامل من سلطان الأنا والخضوع والارتباط التامّ بولاية الله تعالى وهو معنى الانفصال الكامل عن المحور الأوّل والانتقال الكامل إلى المحور الثاني.

ولهذا الانفصال والانتقال من محور إلى محور آيات وعلامات في حياة الإنسان يشير إلى بعضها حديث الولاية القدسي السابق: «إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته».

هذه هي خلاصة شديدة الاختصار عن المحور الثاني في حركة الإنسان. والآن نريد أن نتحدث عن حركة الإنسان من نقطة البداية (محور الذات) إلى نقطة النهاية والغاية في حركته ونموه وتكامله (محور الولاية الإلهية).

٣. الحركة من (الأنا) إلى (الله)

وخلاصة هذه الرحلة: الانطلاق من الشهوات والأهواء و(الأنا) (المحور الأول) إلى الله (المحور الثاني) والصعود من حضيض (الذات) و(الشهوات) إلى قمة الحبّ والارتباط بالله والولاء له.

وهذه الحركة ذات شطرين:

شطر يتعلّق بالانطلاق من (الأنا).

والآخر يتعلّق بالصعود والعروج إلى الله.

وعلى القاعدة العامّة، فإن الانطلاق أصعب من الصعود والحركة. والمعروف أن أكثر ما تحتاجه الصواريخ من الوقود والطاقة في الانطلاق من الأرض والتحرر من نفوذ جاذبية الأرض.

والانطلاق هنا من (الذات)، وما تكتنف الذات من (الشهوات). وفي هذا الانطلاق يتحرر الإنسان من الشهوات والأهواء، ويخرج من دائرة نفوذ الشهوات والأهواء.

وهذه الدائرة تطوق الإنسان عادةً، وتطبق عليه، وتحصره في نطاقها، بين الأضلاع الثلاثة لمثلث الابتلاء الذي تحدثنا عنه، فلا يستطيع الإنسان أن ينفلت من قبضة سلطان هذا المثلث الرهيب، ولن يتحرر منه إلاّ بمشقّة بالغة.

فإن الشهوات والغرائز الكامنة في النفس تشد الإنسان شدّاً وثيقاً ومحكماً بالمال والبنين والأزواج والمواقع وما يشبه ذلك من زينة الحياة الدنيا، ولا يستطيع أن ينطلق إلى لقاء الله ويدخل في دائرة ولاية الله قبل أن يتحرر من هذه القيود التي تعيق تحركه وانطلاقه.

ولذلك فالشطر الأوّل من مهمة الإنسان هو التحرر من هذه القيود والتعلقات، والشطر الثاني هو الصعود والتحرّك إلى الله، والدخول في دائرة ولاية الله ومن دون أن يتحرر الإنسان من المحور الأوّل لا يستطيع أن يرتبط بالمحور الثاني، ومن دون أن ينتزع نفسه من سلطان الأنا والهوى، لا يستطيع أن يدخل في دائرة سلطان ولاية الله.

(التقوى) و (ذكر الله) في شطري الحركة:

وإذا عرفنا أن لسفر الإنسان من محور (الأنا) إلى محور (ولاية الله) مرحلتين: مرحلة التحرر من (الأنا) ومرحلة الارتباط بمحور ولاية الله، فلابدّ أن نعرف الأداة التي تمكّن الإنسان في كلّ من هاتين المرحلتين من العمل وهما أداتان اثنتان: (التقوى) في التحرر من أسر الشهوات ومكافحة الأهواء و(الأنا) (للمرحلة الأُولى).

(والذكر) في السير إلى الله والارتباط بالله والانضمام إلى محور (ولاية الله)، (للمرحلة الثانية). وهاتان الأداتان هما قوام كلّ التعليمات الإسلامية لإعداد الإنسان وتربيته وتأهيله للتكامل.

وقد ورد فيما أوصى الإمام أمير المؤمنين ابنه الحسن عليه السلام: «أُوصيك

(بتقوى) الله يا بني ولزوم أمره وعمارة قلبك بذكره»[١].

ولنتحدث أوّلاً عن الأداة التي تمكّننا من التحرر من الهوى والذات في المرحلة الأُولى وهي (التقوى) وبعد ذلك نتكلم عن الأداة التي تربطنا بمحور الولاء لله تعالى، وتقربنا من الله.

التقوى للتحرر من الهوى:

أن العقبة الكبرى التي يواجهها الإنسان في حركته إلى الله هي (الهوى).

قال الله تعالى: **﴿..وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ..﴾**[٢].

يقول الصادق عليه السلام: **«احذروا أهواءكم كما تحذرون أعداءكم فليس شيء أعدى للرجال من إتباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم»**[٣].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان: إتباع الهوى وطول الأمل فأما إتباع الهوى فيصدعن الحقّ وأما طول الأمل فينسي الآخرة»**[٤].

وكما أن تجاوز الهوى هو المرحلة الأُولى والأهم في حركة الإنسان التكاملية إلى الله... كذلك في الاستجابة للهوى السقوط والتردي الكامل للإنسان. ودرجة سقوط الإنسان وانحطاطه الروحي والخلقي تتناسب تناسباً طردياً مع درجة استجابته واستسلامه للهوى. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«أنكم**

---

١ ـ بحار الانوار ٧٧: ١٩٩.

٢ ـ سورة ص: ٢٦.

٣ ـ سفينة البحار ١: ٧٢٨ «هوى».

٤ ـ نهج البلاغة:٨٣ الكلام ٤٢.

إن أمَّرتم عليكم الهوى أصمّكم وأعماكم وأرداكم»[١].

وعن الإمام الجوادعليه السلام: «من أطاع هواه أعطى عدوه (الشيطان) مناه»[٢].

وقد عدّ الإسلام مكافحة (الهوى) الجهاد الأكبر، في الوقت الذي يعد فيه مكافحة (الطاغوت) الجهاد الأصغر.

عن موسى بن جعفرعليه السلام: قال:« إن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث سرية فلما رجعوا قال مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس»[٣].

المقارنة بين الهوى والطاغوت:

والمقارنة هنا بين مكافحة الهوى ومكافحة الطاغوت تلفت الانتباه، فإن العقبة في طريق الإنسان إلى الله عقبتان: الهوى و(الأنا) من جانب والطاغوت من جانب آخر. وكلاهما يعيقان الإنسان عن الله... وللطاغوت دور بارز وفاعل ومؤثر في تحدي الأنبياء ورسالات الله وإعاقة حركة الأنبياءعليهم السلام. والصراع بين الأنبياء والطاغوت أبرز أحداث التأريخ بل هو التأريخ، وما عدا ذلك أحداث على هامش التأريخ... ومع ذلك فإن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول أن مواجهة (الطاغوت) من (الجهاد الأصغر) ومواجهة (الهوى) من (الجهاد الأكبر).

---

١ ـ غرر الحكم: ٢٩٢.

٢ ـ المحجة البيضاء ٥: ٤٩.

٣ ـ بحار الأنوار ١٧: ١١٦.

الصيغة الإيجابية للتقوى:

والأداة المفضّلة والقوية في مكافحة الهوى ومجاهدة النفس في الإسلام هي التقوى. و(التقوى) هي ضبط النفس على حدود الله وأحكامه، وتحكيم حدود الله، وشريعة الله على تصرفات الإنسان وتحركه وعمله، وليست التقوى كبتاً للنفس، ولا حظراً على الإنسان من الاستجابة لرغبات النفس ومشتهياتها... وإنّما هي ضبط النفس فقط على حدود الله من الحلال والحرام، وفرض سلطان الحدود الإلهية على النفس.

ليست التقوى حرمان النفس من الاستجابة لمتطلباتها ورغباتها ومشتهياتها المحرّمة فقط وإنّما التقوى قبول سلطان الحدود الإلهية، وتحكيمها على النفس، والتمكّن من نزوات النفس ورغباتها، والتحرّر من سلطان الهوى، وانتزاع النفس من قبضة (الأهواء) و(الفتن).

والتقوى بهذا المعنى معنى إيجابي، وهو التمكّن من النفس، والقدرة على انتزاع النفس من سلطان الأهواء والشهوات، وليس معنىً سلبياً بمعنى ترك الحرام، وهي بهذا المعنى الشوط الأول لحركة الإنسان إلى الله.

الشوط الثاني من حركة الإنسان:

والمرحلة الثانية من هذه الرحلة هي العروج والصعود إلى الله، والدخول في دائرة ولاية الله تعالى، بعد أن يتمكن الإنسان من انتزاع نفسه من محور الأنا والذات والهوى.

ولابدّ في الشوطين جميعاً من الطاعة، فهو العنصر المشترك في كلّ من هاتين المرحلتين، إلاّ أن المرحلة الأُولى تتميز بالتحرّر من محور الهوى

والأنا، والمرحلة الثانية تتميز بالتحرّك للدخول في دائرة نفوذ وسلطان ولاية الله والارتباط بالمحور الإلهي، وكل منهما يتطلب الطاعة والاستجابة لأمر الله تعالى ونهيه.

ومعنى الارتباط بالله: أن يجعل الإنسان وجه الله تعالى هدفاً له في كلّ أعماله وتصرفاته، ويخلص في كلّ أعماله لله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ويجعل مرضاة الله محوراً ثابتاً لكلّ حياته وتصرفاته، ولا يبتغي غير مرضاة الله شيئاً، وأن يدخل بشكل كامل في دائرة ولاية الله، فلا يكون له رأي أو حكم، أو هوى أو حبّ، أو بغض، أو عمل، أو حركة، أو كلمة، في غير ما يحكم الله تعالى ويريد. ويحبّ ويبغض في الله، ويحكّم إرادة الله ومشيئته وحبّه وبغضه على قلبه وصدره وعقله وعواطفه وأحاسيسه وجوارحه وأعضائه. ويتجرّد عن كلّ صبغة، ورأي، وهوى، ويتخذ صبغة الله تعالى صبغة لنفسه، ويوجه نفسه، ورأيه، وهواه، وحبّه، وبغضه، حيث يريد الله، ويرضى به الله، ويمكّن حبّ الله من قلبه ونفسه، فلا يكون هناك شيء أحبّ إليه من الله ورسوله. فلن يكون الإنسان ذائباً في هذا المحور الربّاني، ولن يكون إيمانه من الإيمان الكامل، ولن يأمن عذاب الله ومكره إذا كان هناك في حياته شيء أحبّ إليه من الله ورسوله. ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[1] ذلك أن هؤلاء لم يتمكنوا بعد من الانتقال من

---

١ ـ التوبة: ٢٤.

المحور الأول، ولم يتوفقوا في انتزاع أنفسهم من سلطان الآباء، والأبناء، والإخوان، والأزواج، والعشائر، والأموال، والتجارة، والمساكن، وما زالوا تحت سلطان ونفوذ هذه المغريات والمثيرات من متاع الحياة الدنيا، وعلاقاتها و(فتنها).

أما الذين آمنوا، والذين انتزعوا أنفسهم من سلطان الهوى، وارتبطوا بمحور الإيمان بالله، وولاية الله فإنهم أشدّ حبّاً لله من كلّ ذلك... وهذا هو معنى الانفصال من محور الأنا والانتقال إلى محور ولاية الله، ﴿..وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ..﴾[1].

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «لا يمحّض رجل الإيمان بالله حتى يكون الله أحبّ إليه من نفسه، وأبيه، وأمّه، وولده، وأهله، ومن الناس كلّهم»[2].

وعن الفضيل بن يسار قال سألت أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن الحبّ والبغض أمن الإيمان هو؟ فقال: «وهل الإيمان إلاّ الحبّ والبغض»[3].

وفي الحديث الشريف: «الدين هو الحبّ والحبّ هو الدين»[4]

ذكر الله للعروج إلى الله:

والأداة المفضلة والمؤثرة في تحكيم وتوثيق الارتباط بين المؤمنين وبين الله عزّ وجلّ، وتعميق الصلة والعلاقة بين العبد وربّه، وربط الإنسان بهذا

---

١ ـ البقرة: ١٦٥.

٢ ـ بحار الأنوار ٧٠: ٢٤.

٣ ـ الكافي ٢: ١٢٥.

٤ ـ نور الثقلين ٥: ٢٠٥.

المحور الربّاني في الحياة وإخلاص عمله وجهده لله تعالى... أقول إنّ الأداة التربوية المفضلة في الإسلام لتحقيق هذه الغاية هو (الذكر)، وإن للذكر دوراً كبيراً وأساسياً في ربط الإنسان بالله وفي انشداده بهذا المحور الإلهي الذي تحدثنا عنه، وفي حركته التكاملية إلى الله.

فإن (الذكر) هو الصلة القلبية التي تربط الإنسان بالله وتجعله على ذكر منه، ويجعل الإنسان واعياً وشاعراً لحضور الله سبحانه وتعالى بصفاته وأسمائه الحسنى... ومستحضراً لعظمة الله وجلاله وجماله، وينبّه الإنسان إلى حضور الله، ويزيل عن نفسه الغفلة، يقول تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾[1].

ويعصم صاحبه عن الذنب. روي عن الباقر عليه السلام: ثلاث من أشدّ ما عمل العباد! إنصاف المرء من نفسه، ومواساة المرء أخاه، وذكر الله على كلّ حال، وهو أن يذكر الله عزّ وجلّ عند المعصية يهمّ بها فيحول ذكر الله بينه وبين تلك المعصية وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[2].

وسر هذه (العصمة) و(الحصانة): إن الذكر استحضار لسلطان الله وحضوره الدائم، واستحضار لحضور العبد في كلّ حالاته بحضور الله تعالى، وهذا الإحساس والوعي لحضور الله يعمّق في النفس حالة المراقبة الدائمة والانتباه الدائم، ويحجز الإنسان عن الانزلاق مع الشهوات والأهواء

---

١ ـ الاعراف: ٢٠٥.

٢ ـ بحار الأنوار ٩٣: ٣٧٩. والآية في سورة الأعراف: ٢٠١.

إلى معصية الله تعالى.

و(الذكر) انفتاح العبد على جلال الله تعالى وجماله، وهذا الانفتاح يشدّ الإنسان بالله تعالى ويملأ قلب العبد حبّاً له وشوقاً إليه وأُنساً به.

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «الذكر نور العقول وحياة النفوس وجلاء الصدور»[١] و«ذكر الله مجالسة المحبوب»[٢] و«الذكر يؤنس اللب»[٣]، إذن (الذكر) يؤنس الإنسان بالله تعالى، ويشوقه، ويحببه إليه، ويقرب الإنسان من الله كما يقرب الجليس من جليسه ويأنس به، وحاشاه وسبحانه من مشابهة خلقه ومجالستهم. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن موسى بن عمران عليه السلام لما ناجى ربّه عزّ وجلّ، قال: يا رب أبعيد أنت منّي فأناديك أم قريب فأُناجيك؟ فأوحى الله جلّ جلاله: أنا جليس من ذكرني»[٤].

ومن الذكر الذكر الخفي ومنه الدعاء، والمناجاة، والأذكار الواردة، والصلاة: ﴿..وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾[٥]، وفي الحجّ الكثير من الذكر، والجهاد لا يتم إلاّ بذكر الله واستحضار صفاته الجلالية والجمالية والشوق إلى لقاء الله، وإيثار لقاءه على الحياة الدنيا.

وعلى نحو الإجمال فإن العبادات في الإسلام تشتمل على الكثير من أبواب الذكر وألوانه، ولأهمية الذكر بشكل خاصّ فقد ورد الأمر بالإكثار من الذكر والمداومة على الذكر في النصوص الإسلامية.

١ـ غرر الحكم: ١١١.

٢ـ غرر الحكم: ٣٦٩.

٣ـ غرر الحكم: ١٠١.

٤ـ بحار الأنوار ٩٣: ١٥٣.

٥ـ طه: ١٤.

يقول تعالى في الإكثار من الذكر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾[١]، وفي الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «عليك بتلاوة القرآن وذكر الله كثيراً فإنّه ذكر لك في السماء ونور لك في الأرض»[٢].

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «أكثروا ذكر الله ما استطعتم في كلّ ساعة من ساعات الليل والنهار فإنّ الله أمر بكثرة الذكر له»[٣].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام في دوام الذكر: «المؤمن دائم الذكر كثير الفكر»[٤].

وفي وصية الإمام لابنه الحسن عليه السلام: «وكن لله ذاكراً على كلّ حال»[٥]، وورد في الدعاء: «إلهي فألهمنا ذكرك في الخلاء والملاء، والليل والنهار، والإعلان والأسرار، وفي السراء والضراء وآنسنا بالذكر الخفي»[٦].

وبعد: فهذا هو المنهج العلمي في الإسلام لحركة الإنسان من محور (الأنا) إلى (الله) ويتمّ هذا المنهج ضمن مرحلتين: المرحلة الأُولى في الإقلاع عن محور الذات والهوى، وأداة هذه المرحلة (التقوى)، والمرحلة الثانية في الارتباط بالمحور الإلهي والدخول في دائرة ولاية الله، وأداة هذه المرحلة (الذكر).

---

١ ـ الاحزاب: ٤١ ـ ٤٢.

٢ ـ بحار الأنوار ٩٢: ١٩٨.

٣ ـ بحار الأنوار ٩٣: ١٦٠.

٤ ـ ميزان الحكمة ١: ٢٠٧.

٥ ـ بحار الأنوار ٤٢: ٢٠٣.

٦ ـ بحار الأنوار ٩٤: ١٥١.

المنهج الأخلاقي في حركة الإنسان إلى الله:

وإلى جنب هذا المنهج العملي هناك منهج تربوي وأخلاقي في الإسلام يعين الإنسان في هذه المرحلة في الحركة من الأنا إلى الله، ويسرع عملية الانفصال والانتقال التي تحدثنا عنها.

والفصل الأوّل من هذا المنهج يعين الإنسان على التغلب على النفس وأهوائها ونزواتها، مثل (الإيثار) و(الزهد) و(الجود) و(حسن الظن) الذي يكافح حالات (الحرص) و(الطمع) و(البخل) و(سوء الظن) في نفس الإنسان وغير ذلك من الوسائل الأخلاقية التي تمكن الإنسان من أهوائه وشهواته.

والفصل الثاني يعين الإنسان على الارتباط بالله كالشكر، والتسليم لله، (والرضا بأمر الله)، والأُنس بالله، والحبّ، وما إلى ذلك من أبواب وفصول الأخلاق التي تعين الإنسان على الارتباط بالمحور الإلهي. وبهذه الطريقة المزدوجة (العملية ـ الأخلاقية) يسعى الإسلام لنقل الإنسان من محور الأنا إلى محور ولاية الله.

ولا يمكن أن يستغني الإنسان بأحد من المنهجين (العملي أو الأخلاقي) عن الآخر. فإن طريق الإنسان في الانتقال من الأنا إلى الله طريق شاق عسير، وكادح: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾، ولا يتيّسر للإنسان أن يسلك هذا الطريق الكادح والمتعب إلاّ بالتنفيذ الكامل لهذا المنهج الإسلامي المزدوج (المنهج العملي والأخلاقي).

واستعينوا بالصّبر والصّلاة:

ومع كلّ هذا الإعداد التشريعي والتربوي للإنسان، فإنّ مشقّة الطريق،

وعناء الرحلة، والمزالق الخطرة على الطريق، وبعد الشُقة، وطول المعاناة، والمراصد المبثوثة للشيطان على امتداد الطريق، هنا وهناك، ووعورة السير فيما بين هذين المحورين يؤدي بالكثير من الناس إلى التباطؤ، والضعف عن مواصلة السير، وإيثار العافية والراحة على وعثاء الحركة والسير، والتراجع، والتساقط أثناء السير، ولذلك يأمرنا القرآن الكريم بالصبر والصلاة في هذه المسيرة الكادحة دائماً: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[1]، الصبر على عناء الطريق، ووعثاء السفر، ومواجهة المتاعب.

والصلاة والدعاء، والاستعانة بالله، والاستمداد من حول الله وقوته في هذه المسيرة الصعبة والطريق الطويل فإذا استسلم الإنسان للضعف والعجز وحبّ العافية والراحة فلن يتمكن من مواصلة السير، وإذا اطمأن إلى حوله وقوته، دون حول الله وقوته، ووثق بقدرته على الاستمرار في الطريق، دون أن يطلب العون والمدد في هذا الطريق من الله، فلا يكاد يتمكن من الاستمرار والمضي في هذه الرحلة الكادحة. فلابدّ إذن في هذه المرحلة من (الصبر) ومن (الصلاة) معاً حتّى يتمكن الإنسان من الاستمرار والمضي على هذا الطريق الطويل.

ضريبة الحركة إلى الله:

وبعد: فهذه النبذة إجمال شديد الاختصار لمسيرة الإنسان الكادحة من محور (الأنا) إلى محور (الله) والتي يقول عنها القرآن الكريم: ﴿..إِنَّكَ

---

١ ـ البقرة: ٤٥.

كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾، وهذه الرحلة يقطعها الإنسان في عناء ومشقة بالغة: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَد * وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَد * وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾[1]، فقد خلق الله تعالى الإنسان لهذه المسيرة الكادحة في وسط من العناء والجهد والمشقة والكبد، ولن ينال الإنسان حظه من الكمال الذي أعدّه الله تعالى له إلاّ في هذه الرحلة المحفوفة بالابتلاء والعناء والآلام والكدح.

وليست هذه السنة الإلهية في الابتلاء خاصة بهذه الأُمّة دون سائر الأمم، وإنّما هي سنة لله تعالى عامّة، شملت من قبلنا من الأُمم، كما شملتنا، وأحاطت مسيرتهم بالعناء والابتلاء، كما حفت مسيرتنا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء..﴾[2].

الشهادة اختزال للحركة من الأنا إلى الله:

والشهداء ـ وهنا نريد أن ننتقل إلى صلب الموضوع بعد هذه الجولة الواسعة في مسيرة الإنسان ـ يقطعون هذه المسيرة بحركة سريعة وقوية وخفيفة واحدة بالشهادة والتضحية، فتنقلهم الشهادة والتضحية مرّة واحدة من محور الأنا والهوى إلى محور الله، وتنتزعهم انتزاعاً كاملاً من الأهواء والشهوات، ومن كلّ العلاقات التي تربطهم بهذه الدنيا إلى محور ولاية الله نقلة.

واحدة من حبّ النفس وحبّ الدنيا إلى حبّ الله، ومن ولاية الطاغوت

---

١ ـ البلد: ١ ـ ٤.

٢ ـ البقرة: ٢١٤.

إلى ولاية الله، ومن الانهماك في لذات الدنيا إلى الاستغراق في رضوان الله تعالى، ومن ألوان التعلقات والحبّ والبغض التي تصبغ مشاعر الإنسان في هذه الدنيا إلى صبغة الله الفريدة.

هذه القفزة السريعة والخفيفة التي تنقل الإنسان مرّة واحدة من محور إلى محور هي من خصائص الشهادة. والشهيد عندما يُقدم على الشهادة، بوعي وبصيرة من أمره، ينتزع نفسه بحركة قوية وخفيفة واحدة من وسط كلّ العلاقات والصلات والأواصر التي تشدّه إلى هذه الدنيا من مال وبنين، وزوج، ومتاع الدنيا، ولذات، وشهوات، وجاه واعتبارات اجتماعية، وبحركة واحدة يقطع كلّ هذه الحبال، والخيوط، والوشائج التي تشدّه إلى الدنيا ويخفّ للصعود إلى الله.

أرأيت المنطاد عندما تتقطع الحبال التي تشدّه إلى الأرض كيف يخفّ للصعود ويرتفع إلى السماء؟ كذلك الشهيد... لا يعيقه شيء بعد أن ينتزع نفسه من وسط هذه الأواصر الدنيوية عن التحرّك والصعود إلى الله.

إن الشهادة عملية مباركة مزدوجة: انتزاع النفس من أواصرها التي تشدّها بهذه الدنيا، والتي قوامها في هذه النفس، والصعود إلى الله ثمّ التحرّك إلى رضوان الله وقوامه الحبّ، والتسليم، والرضا، والطاعة، والذكر، واليقين.

نقلة الحرّ رضي الله عنه من محور الطاغوت إلى محور الله:

فقد كان الحر بن يزيد الرياحي رضي الله عنه قائداً في جيش عمر بن سعد وكان يقع تماماً في الجهة المقابلة للحسين عليه السلام، فأنتقل في أحرج اللحظات بحركة سريعة وخاطفة إلى جبهة الحسين عليه السلام يقول أصحاب السير: إن الحر

أقبل على عمر بن سعد وقال له: أمقاتل أنت هذا الرجل؟ قال: أي والله قتالاً أيسره أن تسقط فيه الرؤوس وتطيح الأيدي. قال: ما لكم فيما عرضه عليكم من الخصال؟

فقال عمر بن سعد: لو كان الأمر إليّ لقبلت، ولكنّ أميرك (ابن زياد) أبى ذلك فتركه ووقف مع الناس، وكان إلى جنبه قرّة بن قيس فقال لقرّة: هل سقيت فرسك اليوم؟ قال: لا.

قال: فهل تريد أن تسقيه؟ فظن قرّة أنه يريد الاعتزال، ويكره أن يشاهده، فتركه. فأخذ الحر يدنو من الحسين قليلاً، فقال له المهاجر بن أوس: أتريد أن تحمل؟ فسكت وأخذته الرعدة، فارتاب المهاجر من هذا الحال، وقال له: لو قيل لي من أشجع أهل الكوفة لما عدوتك، فما هذا الذي أراه منك؟

فقال الحر: إنّي أُخيّر نفسي بين الجنّة والنار، والله لا أختار على الجنّة شيئاً ولو أُحرقت، ثم ضرب جواده نحو الحسين عليه السلام، منكساً برأسه حياءً من الحسين حيث جعجع بهم في هذا المكان[1].

هكذا، في لحظات قصيرة، وسريعة، وبحركة خفيفة، ينتقل الحر من محور إلى محور، ومن موقع إلى موقع معاكس للأوّل تماماً، ويهاجر من إمارة جيش عمر بن سعد إلى جند الحسين، ومن الأنا إلى الله تعالى، وتلك هجرتان تتمان في اللحظات الأخيرة من حياته في لحظة قصيرة وسريعة، ولطالما قرأنا الهجرات إلى الله تعالى، ولكنني لا أعرف هجرة إلى الله تعالى أسرع وأقصر من هذه الهجرة.

---

١ ـ مقتل المقرّم: ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

نقلة زهير رضي الله عنه من ولاية الطاغوت إلى ولاية الله:

ومثال آخر على هذه الحركة السريعة إلى الله تعالى ـ عبر الشهادة ـ هجرة زهير بن القين رضي الله عنه. فقد كان عثماني الهوى. ولم يكن هواه مع آل محمّد صلى الله عليه وآله وقد حجَّ البيت في عام (٦٠ هـ)، وكان يساير موكب الحسين عليه السلام في الطريق إلى العراق إلاّ أنّه كان يحرص ألاّ ينزل بالقرب من خيام الإمام، مخافة الاجتماع به، حتّى انتهت قافلة الإمام إلى (زرود)، فلم يجد زهير رضي الله عنه بداً من أن ينزل بخيامه بالقرب من خيام الحسين عليه السلام. فأرسل إليه الحسين عليه السلام رسولاً يدعوه إليه وكان زهير مع صحبه يتناولون الطعام، فأبلغه الرسول دعوة الحسين فطرحوا ما في أيديهم من طعام، وكأنّ على رؤوسهم الطير، فأنكرت عليه زوجته ـ رحمها الله ـ ذلك. وقالت: «سبحان الله، يبعث إليك ابن بنت رسول الله ثم لا تأتيه! لو أتيته فسمعتَ كلامه!». فانطلق زهير على كراهية منه إلى الإمام، فلم يلبث أن عاد مسرعاً، وقد تهلّل وجهه وامتلأ غبطة وسروراً ثمّ أمر بفسطاطه وما كان عنده من ثقل ومتاع، فحوله إلى خيام الإمام. وقال لزوجته: «أنتِ طالق»، ثم قال لأصحابه سأحدثكم حديثاً: «غزونا (بلنجر)[1] ففتح الله علينا، وأصبنا غنائم، ففرحنا وكان معنا سلمان الفارسي. فقال لنا: أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من الغنائم؟ فقلنا: نعم، فقال: إذا أدركتم سيد شباب آل محمّد، فكونوا أشدّ فرحاً بقتالكم معه مما أصبتم اليوم من الغنائم»[2].

---

١ ـ احتمل أن الكلمة الصحيحة هي (بالبحر). وقد بدأت عساكر المسلمين في ذلك التاريخ غزوات البحر ولكن الكلمة وردت خطأ بأقلام بعض النساخ بلنجر. وقد وردت الكلمة في بعض المصادر بالبحر.

٢ ـ حياة الإمام الحسين عليه السلام للشيخ باقر القرشي ٣: ٦٦ـ٦٧. نقلاً عن الإرشاد: ٢٦٤. وتأريخ ابن الأثير ٣.

وينقلب زهير رضي الله عنه، وينقلب هواه من بني أُمية إلى آل علي، وينتزع نفسه من كلّ ما تربطه بهذه الدنيا، حتّى زوجته التي أنكرت عليه تباطؤه عن استجابة دعوة الحسين عليه السلام، حتّى يستطيع أن يخفَّ للقاء الله.

ولما جمع الحسين عليه السلام أصحابه وأهل بيته قرب المساء قبل مقتله بليلة، فقال لهم: «إنّي قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلّ، ليس عليكم منّي ذمام، وهذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، وليأخذ كلّ رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي وتفرّقوا في سوادكم ومدائنكم فإن القوم إنّما يطلبوني، ولو أصابوني لذهلوا عن غيري، قال زهير بعدما سمع كلام الحسين عليه السلام: والله لوددت أنّي قتلت، ثم نشرت، ثم قتلت، حتّى أُقتل كذا ألف مرّة، وإنّ الله عزّ وجلّ يدفع بذلك القتل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك»[1].

هكذا تحرّر الشهادة الإنسان من كلّ القيود، والأواصر التي تربطه بالحياة الدنيا مرّة واحدة، وبقوّة وخفّة، وتدفعه إلى لقاء الله.

فالشهادة إذن اختزال شديد، واختصار للطريق بين هذين المحورين. والمسافة التي يقطعها عامة الناس بتكلف، وتعثر، ومشقّة، يتعثر فيها أُناس، ويتساقط فيها آخرون، ويضعف عن السير فيها قوم ويقوى عليه آخرون... يقطعها الشهيد بوعي، وبصيرة، وقوّة، وثبات، في لحظات قصيرة، وحركة خفيفة، تنتزعه من الدنيا، وتعرج به إلى لقاء الله.

---

١٧٧. وأنساب الأشراف ق ١: ١. والدر النظيم: ١٦٧.

وسلمان هذا ليس هو سلمان الفارسي وإنّما هو سلمان الباهلي.

١ ـ مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

القيمة الحركية للشهادة

تحدثنا في الفصل السابق بشيء من التفصيل عن القيمة الذاتية للشهيد ودور الشهادة في نمو وتكامل شخصية الشهيد. والآن نتحدث من البعد الثاني (الأُفقي) للشهادة: وهو دور الشهيد في تحريك المجتمع، والقيمة الحركية للشهادة في حياة الأُمّة.

ونبدأ حديثنا عن الشهيد من مادة اشتقاق هذه الكلمة ومنها نسترسل في الحديث عن دور الشهيد في تحريك المجتمع.

(الشاهد) و(الشهيد) بمعنى واحد تقريباً فإن الشاهد اسم الفاعل من هذه الكلمة، والشهيد فعيل بمعنى الفاعل كالنصير والناصر.

وقفة عند اشتقاق كلمة (الشهيد):

وأصل الاشتقاق في هذه الكلمة: (الشهود)، و(الشهادة) وهما بمعنى الحضور؛ يقال: شهد المعركة: أي حضرها. وفي المصطلح الشرعي الشهادة تستعمل في معنيين:

١ـ تحمّل (الشهادة):

بمعنى الحضور والرؤية؛ فإنّ الشخص الذي يحضر وقعة ويراها عن قرب، رؤيّة حسّية واضحة يتحمل مسؤولية هذا الحضور والرؤية، فإذا

حضر جريمة وشهدها، تحمل مسؤولية هذه الرؤية والشهادة، وكأنّما تُحَمِّلُهُ هذه الشهادة مسؤولية شرعية يجب عليه أن يبرّيء ذمّته منها.

٢ ـ أداء الشهادة:

وهذا المعنى شائع أيضاً في استعمالات الشهادة، فإذا بلّغ الشاهد ما شهده أدّى ما تَحَمَّلَهُ من مسؤولية الشهادة، ولا يتحلل الشاهد من مسؤولية الشهادة حتّى يؤديها ويبلغها.

والشهادة بهذا المعنى هي معيار الحكم للقاضي وملاكه إذا كان الشاهد عدلاً. ففي كلّ واقعة يختلف فيها الأطراف قد يجنح فيها بعض الأطراف أو كلّ الأطراف عن الحقّ، فيأخذ القاضي بشهادة الشاهد، فإن أمانة الأداء تتطلب منه أن يؤدي ما رآه بالحسّ من الواقعة، ويعتبر القاضي هذه الشهادة ملاكاً للقضاء ويحكم بموجبها، إذا تمت الشهادة بالموازين الشرعية، فيكون الشاهد بهذا المعنى ملاكاً للحكم ودليلاً عليه.

الشهيد مقياس للتقييم:

وأحتمل أن تكون تسمية الشهيد بالشهيد متأثرةً بالمعنى الثاني وهو أداء الشهادة.

فإن (الشاهد) و(الشهيد) يستعملان بمعنى الدليل والميزان والمعيار والمقياس الذي نزن به الأحكام والأُمور كثيراً. وهو معنى قريب من المعنى الثاني للشهادة الذي أشرنا إليه قريباً.

والقرآن، وإن كان لم يستعمل هذه الكلمة في معناها المصطلح إلاّ أنّه استعمل هذه الكلمة في هذا السياق بالذات. يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ

جَعَلْـنَاكُمْ أُمَّـةً وَسَـطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا..﴾[١].

وهـذه الآيـة تصرّح بأن الأُمّة المؤمنة بالله ـ المعتدلة ـ شهيدة على الناس، والرسول شهيد على هذه الأُمّة، فماذا يمكن أن يكون معنى الشهيد في هذه الآيـة الكـريمة فـي الشـهادتين جميعاً: شـهادة الأُمّـة المؤمـنة علـى الـناس، وشهادة رسول الله ﷺ على الأُمّة؟

وبـأي مـلاك تكون هذه الأُمّة شهيدة على الناس جميعاً، ويكون الرسول ﷺ شهيداً عليها؟

أعـتقد أنّ الإجابـة علـى التساؤل الثاني يفتح الطريق للإجابة على السؤال الأوّل. إنّ المـلاك الـذي جعـل هـذه الأُمّـة شـهيدة علـى سـائر الـناس هـو الاعـتدال والوسـطية وعـدم الجـنوح إلـى اليميـن واليسـار، وهـذا الاعـتدال والوسـطية يؤهّلهـا، لـتكون شـهيدة علـى الـناس، ونفـس المـلاك ـ بالتأكـيد وبدلالـة السـياق ـ هو السبب في شهادة الرسول ﷺ على الأُمّة وهذا التفسير واضـح من متن الآية الكريمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ..﴾.

إذن، سِرُّ الشـهادة كامـن فـي حالـة الاعـتدال والوسـطية بـالذات، وهـذه الحالة هي التي تؤهل الأُمّة لكي تكون شهيدة على الناس.

إنّ الـناس يجـنحون لليمين واليسار في الأكثر، وترى هذه الكتل البشرية تمـتد مـن أقصـى اليميـن إلـى أقصـى اليسـار، تتلاعـب بهـم أمـواج الفتـن

---

١ ـ البقرة: ١٤٣.

والشهوات والأهواء والانفعالات النفسية والمصالح والعواطف في اتجاهات شتى، ولابدّ لهذه الكتل البشرية التائهة والضائعة في هذا الخضم البشري الواسع من (معالم محسوسة) وملموسة في الطريق، تستهدي بها وتميّز بها الصحيح من السقيم، والاستقامة من الاعوجاج والهدى من الضلال كما لابدّ لها من (كتاب) ووحي وشريعة وتعاليم، ولا يغني أحدهما عن الآخر.

لابدّ لها من تعاليم ودروس وتوجيهات، ولابدّ لها كذلك من معالم ملموسة وقائمة على الطريق، وهم الشهداء.

والخاصية المطلوبة في هذه المعالم: أن تكون معتدلة ومتوسطة وعلى الطريق تماماً، ليس على اليمين ولا على اليسار، ولا تجنح إلى يمين أو يسار.

وعند ذلك يمكن أن تكون (معالم) على الطريق، يهتدي الناس بمواقعهم ومواقفهم قبل أن يهتدوا بكلامهم وتوجيهاتهم.

فمن الناس من يكون موقفه وموقعه حجة على الآخرين، فيهتدي الناس بمواقفه ومواقعه وأعماله كما يهتدون بكلامه ورأيه وتوجيهه، وهؤلاء هم (القدوات) في حياة الناس و(معالم الطريق) على الطريق.

وهؤلاء سكوتهم وكلامهم وحركتهم وسكونهم وغضبهم وثورتهم وقيامهم وقعودهم قدوة للآخرين وحجة عليهم.

وهؤلاء هم الشهداء لأنهم مقاييس للآخرين ومعالم على الطريق، ومعايير للحكم وللحق، كما يكون(الشاهد) معياراً للقاضي في معرفة الحقّ من الباطل، وتمييز الصحيح من السقيم، وفرز الرديء عن الجيّد.

هذه الأُمّة شهيدة على سائر الأمم:

وبهذا المعنى: فإن هذه الأُمّة ـ بما هداها الله تعالى إلى الوسط من الطريق، وبما منحها الله من الاعتدال في الرأي والحياة ـ شهيدة على سائر الناس وقدوة لهم، ومَعْلَم على الطريق ومقياس للناس في تصحيح أعمالهم وحركاتهم.

إنّ هذه الأُمّة ـ المتوسطة ـ تصلح لأن تكون المقياس الذي يقيس به الناس أنفسهم، ويصححون به أعمالهم وتحركاتهم.

لقد أراد الله تعالى لهذه الأُمّة أن تكون قدوة للناس جميعاً، وأن تكون شهيدة على الناس جميعاً، ومعلماً على طريق الناس، وأن تكون أفعالهم ومواقعهم مثالاً ونموذجاً للناس جميعاً. والذي يؤهل هذه الأُمّة لهذا الموقع الرائد هو؛ الاعتدال والتوسط في التفكير والعمل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ..﴾.

وكما أن الله تعالى أراد لهذه الأُمّة أن يكون لها موقع السيادة والقيادة والحاكمية على وجه الأرض وعلى الناس كذلك، أراد الله تعالى لهذه الأُمّة أن يكون لها موقع القدوة والريادة على وجه الأرض وبين الناس.

ورسول الله شاهد على هذه الأُمّة:

وبنفس الملاك فإن الرسول ﷺ يحتل موقع القدوة والريادة من هذه الأُمّة: ﴿..وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا..﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ..﴾[1]. كما يحتل موقع القيادة والإمامة والحاكمية من حياة هذه

---

١ ـ الأحزاب: ٢١.

الأُمّة: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ..﴾[1]. هذا إلى موقع التبليغ والرسالة: ﴿..وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا..﴾[2].

عودة إلى مصطلح (الشهيد):

والآن نعود إلى الشهيد في المصطلح الإسلامي ضمن هذه الصورة القرآنية؛ فالشهيد ضمن هذا التصوّر يعتبر مقياساً في حياة الأُمّة، يقيسون به أنفسهم، وأساساً لمعرفة الحقّ والباطل وتمييز الرديء عن الجيد. إن الشهيد تبلور للصدق والعطاء والوعي والبصيرة، يقيس به الناس أنفسهم، وعطاءهم ووعيهم، وصدقهم، وبصيرتهم، واستقامتهم و... والشهيد المثل الأعلى دائماً في حياة الناس وهو القمة في كلّ ذلك.

التوجيه بـ (التثقيف) و(القدوة):

لابدّ في هذه المسيرة الربّانية على وجه الأرض، وفي حياة الناس من (قدوات) للاقتداء والتأسي كما لابدّ من معلمين وموجهين للتعليم والتوجيه والتثقيف، ولا يغني أحدهما عن الآخر.

فإن التحرّك على طريق ذات الشوكة يكلّف الإنسان الكثير، ويتطلب منه العناء والعطاء، والتضحية والصدق، ولا يتيسر للإنسان أن يتجرد لهذه المسيرة الإلهية بسهولة ويسر. ولابدّ من توجيه وإعداد وتربية، وتثقيف مركّز للدعاة إلى الله تعالى وللمؤمنين عامة، ليتمكنوا من مواصلة السير والاستمرار على الطريق، ولئلاً يتيهوا في متاهات الطريق، ويخضعوا

---

١ ـ الأحزاب: ٦.

٢ ـ الحشر: ٧.

لإغراءات الشيطان ومزالق النفس... وهذا الإعداد والتوجيه يتم على شكلين هما:

١ ـ (الإلقاء) والتثقيف.

٢ ـ (القدوة).

ولا تقل قيمة التوجيه والإعداد بـ (القدوة) عن قيمة التوجيه والإعداد بـ (التثقيف).

والقرآن الكريم يشير إلى كلّ من هذين النحوين من التوجيه. يقول تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ..﴾[١].

لقد كان رسول الله ﷺ يتلو على الناس آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة. وهذا يدخل في حقل التعليم والتثقيف، وهو الشطر الأول. من شطري عملية الإعداد، والشطر الآخر هو التربية بـ (القدوة الصالحة)، على طريق ذات الشوكة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

إن دور (التثقيف) في إعداد الناس هو دور التوجيه و(الدلالة)؛ بينما دور القدوة هو دور القيادة إلى الله تعالى. المُعَلّم المربي يَدُلُّكَ إلى الله تعالى دلالة، بينما (القدوة الصالحة) يأخذك معه إلى الله.

وان الإنسان ليعطي للمُعَلّم سمعه وعقله، ولكنه عندما يجد قدوة صالحة يعطيه سمعه وعقله وقلبه جميعاً، ويمكّنه من عقله وقلبه ليقوده إلى الله تعالى.

---

١ ـ الجمعة: ٢.

القدوة والأسوة على طريق ذات الشوكة:

إن حضور القدوة الصالحة على أرض المعركة، ينفع العاملين في أمرين، يأخذون منهم صبرهم وجهادهم وعطائهم، وتَرَفُّعَهُم عن الدنيا من جانب، ومن جانب آخر يشهدون إمداد الله تعالى لهم، وتمكينهم من المجابهة وتثبيتهم على أرض المعركة ويشهدون معيّة الله تعالى لهم.

وهذه الإيحاءات الرسالية التي تعطيها حياة القدوات الصالحة لا تتأتى دائماً من الدرس والتعليم.

إنّ (القدوة الصالحة) توطّيء طريق ذات الشوكة الطويل للعاملين والسائرين.

فعلى رأس كلّ منعطف، وعند كلّ صعود وهبوط، وعند ملتقى كلّ طريق، وفي كلّ غمرة من غمرات السير والحركة، وعندما تهب العواصف العاتية في وجوه العاملين، وكلّما يتغلب اليأس والتعب والخوف على نفوس المؤمنين السائرين يلتقي العاملون السائرون على طريق ذات الشوكة بهذه القدوات الربّانية. يلتقون بأنبياء الله عليهم السلام إبراهيم ويحيى وعيسى وموسى وأيوب وهود وصالح ونوح وزكريا، فيطمئنون إلى معية الله تعالى وإمداده لهم في وحشة الطريق والتباس الأُمور؛ وظروف الإرهاب والملاحقة والمطاردة... يطمئنون إلى معية الله وإمداده من خلال حركة هؤلاء الربّانيين السائرين على الدرب الطويل باطمئنان وثقة وصدور منشرحة.

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وهو يريد أن يثبت قدمه على أرض المعركة: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ..﴾[1].

١ ـ الأنعام: ٨٩ ـ ٩٠.

ويقول تعالى لنبيه ﷺ بعد أن يذكّره بمعاناة الأنبياء وقصصهم وصبرهم ودأبهم على السير والعمل في سورة هود: ﴿وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

فيثبت الله فؤاد نبيّه ﷺ بسيرة هؤلاء الصالحين.

يا لله ما هذا الأمر العظيم الذي يثبت تعالى به فؤاد نبيّه ﷺ؟.

ذلك هو القدوة الصالحة والحضور الرسالي الحيّ للربانيين على ساحة المعركة وعمارة الطريق الطويل بنجوم الهدى، ومعالم الطريق: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ..﴾[2] ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ..﴾[3].

وقد جعل الله تعالى من أنبياء السلف قدوات صالحة لنبيه ﷺ، يثبت بهم فؤاده ﷺ وأفئدتنا، وجعل لنا من رسول الله ﷺ قدوة صالحة نستهدي به وتطمئن به قلوبنا، وأفئدتنا ونفوسنا في زحمة الصراع، ومخاوف الطريق: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...﴾[4]. إن حياة رسول الله ﷺ وعناؤه وجهاده ومثابرته وصبره واستقامته قدوة لكلّ العاملين.

وعلى الدعاة إلى الله أن يقرؤوا بإمعان سيرة رسول الله ﷺ وحياته العامّة والخاصّة، وعناءه، وحركته في مكّة، وبعد الهجرة، وسيرته في الحرب

---

١ ـ هود: ١٢٠.

٢ ـ الممتحنة: ٤.

٣ ـ الممتحنة: ٦.

٤ ـ الأحزاب: ٢١.

والسلم، وقبل إعلان الدعوة وبعدها، وقبل إعلان الحرب على المشركين وبعدها ومع المؤمنين ومع الأعداء، فإنّها للعاملين نور وهدى وقدوة صالحة ومثل أعلى يحتذي به المؤمنون.

الشهيد قدوة:

و(الشهيد) قدوة صالحة في طريق العاملين، وهذه الكلمة على وجازتها تشكل كلّ قيمة الشهيد في حركة التأريخ وتحريك الأُمّة.

والقيمة الحركية للشهيد تعود إلى هذه الحقيقة بالذات، فإنّ الشهيد عندما يتحوّل إلى (قدوة) للعمل الصالح وللعطاء والتضحية في حياة الناس، يستطيع أن ينقل هذه القيم من جيل إلى جيل.

وهذه خاصة من خصائص (القدوة) في الحياة الاجتماعية، أنّه يسهّل ويسرّع عملية نقل القيم الحضارية من جيل إلى جيل، ويعمّق هذه القيم في حياة الناس. وهذه القيم كلّما تنتقل من جيل إلى جيل تتسع دائرتها من الناحية الكمية، وتتعمق وتترسخ من الناحية الكيفية.

وهذه الحقيقة تصح بشكل دقيق في أصل التضحية والعطاء فقد يتصوّر بعض الناس أنّ الشهادة تفقد الأُمّة النخبة الصالحة من أبنائها، وما تحمل هذه النخبة من قيم ومزايا إيمانية وأخلاقية وجهادية.

والأمر على العكس تماماً فإنّ الشهادة لا تعتبر خسارة مهما كانت قيمة الشهيد، وحجم الشهداء وعددهم، بل هي ربح ونمو وبركة في حياة الأُمّة، وحتّى في الحسابات المادية.

والحديث التالي عن رسول الله ﷺ يوضح لنا هذه الرؤية الإيجابية للشهادة.

خطب النبيّ ﷺ المسلمين في المدينة في اليوم الذي أستشهد فيه زيد، وجعفر وعبد الله بن رواحة رحمهم الله في حرب مؤتة مع الروم، وأخبرهم باستشهاد زيد، وجعفر، وعبد الله، فقال ﷺ: **«أخذ اللواء زيد، فقاتل به فقتل، رحم الله زيداً، ثم أخذ اللواء جعفر، وقاتل، وقُتل رحم الله جعفراً. ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة وقاتل، فقتل، فرحم الله عبد الله».**

فبكى أصحاب رسول الله ﷺ وهم حوله فقال لهم النبيّ ﷺ: وما يبكيكم؟ قالوا: وما لنا لا نبكي وقد ذهب خيارنا، وأشرافنا، وأهل الفضل منا؟ فقال لهم ﷺ: **«لا تبكوا فإنما مثل أُمتي مثلُ حديقة قام عليها صاحبها فأصلح رواكبها، وبنى مساكنها، وحلق سعفها، فأطعمت عاماً فوجاً، ثم عاماً فوجاً، فلعلّ آخرها طعماً أن يكون أجودها قنواناً وأطولها شمراخاً، والذي بعثني بالحقّ نبياً، ليجدن عيسى بن مريم في أُمتي خلفاً من حوارييه»**[1].

الوعي والعطاء:

ويتساءل السائل: وفيم يكون الشهيد قدوة؟ وكيف؟

دم الشهيد يجسد نقطتين أساسيتين في حياة الإنسان وفي مسيرة الحركة الإسلامية، وهما: (الوعي) و(العطاء).

وهاتان النقطتان تعتبران أساسين لقيمة دم الشهيد وبهما يكون الشهيد قدوة للآخرين، فهذا الدم يجسد أولاً مستوىً رفيعاً من الوعي والبصيرة واليقين.

---

١ ـ بحار الأنوار ٢١: ٥١، ومقاتل الطالبيين: ٧ ـ ٨ طبعة النجف، المكتبة الحيدرية ١٣٨٥ هـ.

١. الوعي واليقين:

وهذه هي النقطة البارزة الأُولى في قيمة دم الشهيد، ولا قيمة للدم من دون هذا اليقين والوضوح، والدم الذي يراق من غير يقين من الانتحار وليس من الشهادة في شيء.

إنّ لدم الشهيد جذوراً تاريخية ضاربة في عمق التاريخ، وأهدافاً وغايات حضارية يرتبط بها الدم.

أما الغايات والأهداف التي يحققها دم الشهيد فهي تحكيم شريعة الله وإرادته تعالى على وجه الأرض، ومجاهدة الهوى والطاغوت، وتعميق خط الحضارة الربّانية في الأرض، وفي حياة الإنسان، وإنقاذ الإنسان من شَرَك الهوى والطاغوت.

أما الأُصول والجذور التاريخية لدم الشهيد، فإنه يجري في امتداد تيار عميق وواسع من الدماء والدموع والجهود والمعاناة والآلام والعذاب والصمود والصبر والجهاد في التاريخ.

وفي هذا الإطار التأريخي والرسالي يكتسب دم الشهيد قيمته الرسالية والحركية.

وهذه الأهداف والغايات والعمق الحضاري هي التي تمنح الشهيد هذا الوعي والبصيرة واليقين الذي تحدثنا عنه، وإلاّ فكثير من الناس يبذلون أموالهم ودماءهم، ولن تعود عليهم هذه التضحية بجدوى، ولن تخرجهم من دائرة نفوذ الهوى، ولن تدخلهم في دائرة الهدى. ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

---

١ ـ الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤.

ولا يشك أحدٌ في صدقهم في العطاء والتضحية، وأي عطاء وتضحية أكثر من التضحية بالنفس، ولكن من دون أن يكون نابعاً من نبع الوعي والوضوح واليقين، بل هو الهوى يزيّن لهم أعمالهم ويخدعهم ويريهم الحقّ باطلاً والباطل حقّاً، ويسلبهم الرؤية والبصيرة وهؤلاء هم ضحايا على مذابح الهوى، وهم يتصوّرون أنّهم أصحاب مبادئ وقضايا.

فاليقين والوعي هو الأساس الأول في تقييم دم الشهيد، ومن دون ذلك لا قيمة للدم مهما كانت التضحية؛ وقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: «نوم على يقين خير من صلاة في شك»[1]. وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إن العمل الدائم القليل على اليقين أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين»[2].

ضحايا انعدام الوعي:

ومن ضحايا انعدام الوعي واليقين في تأريخ الإسلام (الخوارج) كانوا يلتزمون بالحلال والحرام ويتقيدون بأحكام الله، ويتورعون عن الحرام، ولكن ذلك كلّه من دون وعي ولا بصيرة ولا يقين، ولقد كانوا يريقون الدماء المحرمة الزاكية من دون ورع ولا تقوى، ثم يتورعون عن أن يأخذ أحدهم ثمرة سقطت من نخلة؛ يقول ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة:

ولقيهم (أي الخوارج) عبد الله بن الخباب (من أصحاب أمير المؤمنين وابن الصحابي الجليل الخباب رحمهما الله) وهو راكب على حمار ومعه امرأته وهي حامل، فقالوا: إنّ هذا الذي في عنقك يأمرنا بقتلك (وكان

---

١ ـ نهج البلاغة ٤: ٢٢ الكلام ٩٧.

٢ ـ أصول الكافي ٢: ٥٧.

يحمل معه قرآناً) فقال لهم: ما أحياه القرآن فأحيوه، وما أماته فأميتوه، فوثب رجل منهم على رطبة سقطت من نخلة، فوضعها في فيه، فصاحوا به، فلفظها تورعاً.

وعرض لرجل منهم خنزير فضربه فقتله، فقالوا: هذا فساد في الأرض وأنكروا قتل الخنزير.

ثم قالوا لابن الخباب: حدثنا عن أبيك، فقال: إني سمعت أبي يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستكون بعدي فتنة، يموت فيها قلب الرجل، كما يموت بدنه، يمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، فكن عبد الله المقتول، ولاتكن القاتل، قالوا: فما تقول في علي عليه السلام بعد التحكيم والحكومة؟ قال: إنّ علياً أعلم بالله وأشد توقياً على دينه وأنفذ بصيرة، فقالوا: إنّك لست تتبع الهدى، إنّما تتبع الرجال على أسمائهم، ثم قربوه إلى شاطئ النهر، فأضجعوه فذبحوه.

قال أبو العباس: وساوموا رجلاً نصرانياً بنخلة له، فقال: هي لكم. فقالوا: ما كُنّا لنأخذه إلاّ بثمن. فقال: واعجباً! أتقتلون مثل عبد الله بن الخباب ولا تأخذون نخلة إلاّ بثمن[1].

وكان أمير المؤمنين يخاطب الخوارج فيقول لهم: «فأنا نذير لكم أن تُصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر، وبأهضام هذا الغائط، على غير بيّنة من ربّكم ولا سلطان مبين معكم... »[2].

ومرّ أمير المؤمنين بقتلى الخوارج يوم النهروان فقال: بؤساً لكم لقد

---

١ ـ شرح نهج البلاغة ٢: ٢٨١ـ٢٨٢.

٢ ـ نهج البلاغة، د. صبحي الصالح: ٨ خطبة ٣٦.

ضرّكم من غرّكم. فقيل لـه: من غرّهم يا أمير المؤمنين؟ فقال: الشيطان المضلّ، والأنفس الأمارة بالسوء، غرتهم بالأماني وسمحت لهم بالمعاصي، ووعدتهم الإظهار فاقتحمت بهم النار»[1].

وقتل رجل من الأصحاب فعرف بقتيل الحمار، وذلك أنه رأى مشركاً على حمار فأعجبه الحمار، وبرز لـه ليقتله ويسلب منه حماره، فقتل فعرف بقتيل الحمار، فلم يظفر بالحمار ولا بالشهادة؛ وهذا هو الأساس الأول في تقييم دم الشهيد.

٢ ـ العطاء:

والأساس الثاني في تقييم دم الشهيد: العطاء والتضحية؛ فالشهيد يعتبر قمّة في العطاء والتضحية، وليس بعد هذه القمة قمة، فإن الجود بالنفس أقصى غاية الجود.

والشهيد يبذل لله تعالى كلما يملك، ولا يدخر لنفسه شيئاً ـ فحقيق أن يرزقه الله كل ما يتمنى من رحمته.

وما أروع ما نقل عن السيد مهدي بحر العلوم؅ حيث لفت نظره كثرة ما يروى من الثواب لمن زار الحسين؈ فسأل أُستاذه عن سرّ ذلك. فقال له:

إنّ الحسين؈ عبد فقير من عباد الله، أعطى كلّ ما يملك لله من غير تردّد، وحقيق بالله وهو الغني المطلق الذي لا حدود لخزائن رحمته، أن يعطيه من خزائن رحمته من غير حساب وفوق حساب الحاسبين.

---

١ ـ نهج البلاغة: ٥٣٢ خطبة ٣٢٣.

والعطاء هو التصديق العملي للإيمان. فمن الناس من لا تُصَدِّقُ أعمالهم إيمانهم... إذا وقفوا في مواجهة أئمّة الكفر وفي مواجهة المنكرات، وليس دائماً ينشأ هذا التخالف بين الإيمان والعمل من الغموض والشكّ ـ وإن كان يؤدي إليه دائماً ـ وإنّما ينشأ أحياناً عن ضعف في النفس، وحبّ للدنيا، وإيثار للعافية، فيتخلف الموقف العملي للإنسان عن إيمانه وعقيدته، وتكون نتيجته الشح والبخل.

والقرآن الكريم دقيق في تعبيره عن العلاقة بين الإيمان النظري والصدق في الموقف العملي، حيث يقول تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1].

فليس كلّ المؤمنين صادقين في العمل، والفعل، في عهودهم مع الله تعالى، بل منهم الصادقون ومنهم غير ذلك، رغم إنهم مؤمنون، لكنهم لم يصدقوا ما عاهدوا الله عليه، وتخلفوا في العمل عن الإيمان، وهذا النموذج من الناس شائع في مجتمعنا اليوم، وفي التأريخ.

إن التضحية تعتبر أعلى درجات التفاعل النفسي والعاطفي مع الإيمان والعقيدة.

إن الإيمان قد يكون إيماناً عقلياً مجرداً ذا صبغة عقلية رياضية خالصة، إيماناً أكاديمياً لا يغيّر شيئاً من واقع حياة الإنسان ولا يصنع حباً ولا بغضاً ولا ولاءً ولا براءة، وليس له جذب ولا دفع في حياة الناس، وهذا هو إيمان الفلاسفة، الذين يعرفون الله من خلال المعادلات والقوانين الفلسفية، إيمان

---

١ ـ الأحزاب: ٢٣.

الفارابي وابن سينا وديكارت وإيمانوئيل كانت.

أمّا إيمان الشهداء فشيء آخر يختلف عن هذا الإيمان، إنّه عُمْلة ذات وجهين: وجه للعقل ووجه آخر للعاطفة والحب والشوق والولاء والحب والعطاء والإيثار والفعل والانفعال.

ترقُّ العاطفة حتّى تكون حباً، ويسمو البذل حتّى يكون تضحية. وما أجمل كلام هذا الشاعر الذي يحدثنا على لسان الحسين عليه السلام في مناجاة والهة مع الله تعالى يوم عاشوراء على مسرح الحبّ والشهادة:

تركت الخلق طُراً في هواكا وأيتمت العيال لكي أراكا

فلو قطّعتني في الحب اربـاً لما مال الفؤاد إلى سواكا

إيمان الشهيد خليط من هذين الأمرين معاً: إيمان وحبّ، إيمان يصدّق الحبّ، وحبّ يصدّق الإيمان، مزيج من العقل والعاطفة يمزج بين منطق الفلاسفة والحكماء وعاطفة المحبين الوالهين.

دم الشهيد تعبير رائع عن هذا المزيج المقدس من العقل والحبّ، من منطق الحكماء، وولَه المحبين، ومن استحكام العقل وقوته وجاذبية الحبّ وفورانه.

وهذا التفاعل النفسي هو الذي يؤهل النفس للعطاء والتضحية. إن العقل وحده، والإيمان وحده لا يكفي ليبلغ الإنسان هذا المستوى الرفيع من تجاوز الذات، والإيثار، والتضحية.

ولكي يبلغ الإنسان هذه القمة من الكمال لابدّ له من مدرسة أُخرى ومنطق آخر وإعداد آخر؛ وهي مدرسة الحبّ ومنطق المحبين. والعطاء الذي يكّون الشطر الآخر من شخصية الشهيد: نابع من هذا النبع.

وهـذان الأساسـان (اليقيـن والعطـاء) همـا الأسـاس والمفـتاح لفهـم قـيمة الشـهيد ودوره فـي تحـريك المجـتمع، ولا بُـدّ مـن أن نبسـط القول في هذه النقطة بعض البسط.

التخلف في الوعي والعطاء:

قلـنا: إنّ الشـهيد قـدوة للمجـتمع وللأجـيال فـي مسـألتين أساسـيتين همـا: الوعي والعطاء.

والتخلف عن الأوّل يعرّض الأُمّة للانحراف عن طريق الله، والتخلف عن الثاني يصيب الأُمّة بالعجز عن التحرك، والضعف والتعب واليأس.

وأكـثر مشـاكلنا السياسية والفكرية والحضارية والحركية تنبع من هذين: التخلف في الوعي، والتخلّف في العطاء.

والشهيد قدوة رفيعة للوعي والعطاء معاً.

وقـد لا يتبيَّـن فـي النظرة الأُولى أثر كلّ شهيد في مسيرة الحركة، ولكن الذيـن يـرزقهم الله القـدرة علـى رؤيـة المسـيرة الربانـية الكـبرى علـى وجه الأرض يـرون دائمـاً ـ إلـى جنب كلّ مسيرة حاشدة بالمؤمنين إلى الله ـ نهراً مـن الـدم ومسيرة حافلة بالشهداء يموّن هذه المسيرة ويمدها بالعزم والقدرة على المواصلة وتحدي الصعاب.

إنّ دمـاء الشـهداء تهـب الأحـياء عـزماً على الاستمرار، ومواصلة الحركة والسير، وقـوّة علـى تجاوز العقبات والصعاب، وتهبهم القدرة على نكران الذات، وتجـاوز الـنفس، والترفع عن صغائر الأُمور، وانتزاع حبّ الدنيا من النفوس،

وإيثار الآخرة على الدنيا، واسترخاص الحياة الدنيا في سبيل مرضاة الله.

إنّ دماء الشهداء تعلم الأحياء الكثير، ومن أغرب ما في هذه المدرسة العجيبة في حياة الإنسان: أن تلاميذها أحياء وأساتذتها أموات، ولكن لا كما يتصور الناس الأموات، وإنّما كما يقول ربّنا سبحانه: ﴿..أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[١].

إنّ كلّ شهيد ـ في النظرة الكونية الشاملة لحركة الدم ـ يربّي أجيالاً من العاملين المخلصين لله، وكلّ قطرة من دم الشهيد تتحول إلى أنهار من دم يفجّر براكين من المقاومة والثورة والتمرد على الظالمين في نفوس المؤمنين.

إنّ الشهادة تعلمنا كيف ينتصر المظلوم من الظالم، وكيف يستعيد المظلوم حقّه ومكانه في التأريخ، وكيف ينتصر المستضعفون من المستكبرين ويستعيدون مواقعهم في الحياة، وكيف ينتصر الدم على السيف، والحقّ على الباطل، وكيف يرزق الله القلّة المستضعفة التي تخاف أن يتخطفها الناس على الكثرة القويّة من المستكبرين وأضرابهم وجنودهم؛ والشهادة تعلمنا كيف نكسر الأغلال والقيود من أيدينا، ونتمرد على إرادة الذين يريدون أن يسلبونا الأمن والإرادة والقدرة؛ والشهادة تعلمنا كيف نعيش أحراراً، وكيف نتحرر من القيود والأغلال، وكيف نسترجع كرامتنا وحريتنا ومواقعنا ومراكزنا على وجه الأرض، وكيف نتحول من عبودية الطغاة والمستكبرين إلى عبودية الله ربّ العالمين.

الشهادة: عقيدة، وإيمان، وحبّ، وعطاء، وتضحية، وإيثار في سبيل الله،

---

١ ـ آل عمران: ١٦٩.

وإخلاص، وإقدام، وشجاعة، وحياة جديدة، وحاشا أن تكون الشهادة عقيمة أو تكون موتاً كما يفهم الناس الموت.

الطاقة الحركية لدم الشهيد:

للدم قابلية كبيرة في تحريك الضمائر الخاملة، ولا تهتز الضمائر الميّتة والخاملة لأمرٍ كما تهتز للتضحية والدم.

إن التضحية توقظ العقول، وتنبّه الضمائر، وتحرّك النفوس، وتهز الإنسان من الأعماق، وتبعث فيه الحياة، وتفتح مغاليق القلوب؛ وتشرح الصدور، وتفجّر كلّ الطاقات الخيرة الكامنة في نفس الإنسان، وتقتلع الإنسان من مستنقع الحياة الراكد، وتدفعه إلى قمم الحياة العليا، وتمزّق حجب التعلّق بالدنيا من على عينيه، وسمعه، وفؤاده، ليفتح أمامه آفاق الحياة الواسعة والتي تمتد إلى مرضاة الله؛ ذلك أن الإنسان بفطرته ينزع إلى الله تعالى ومرضاته. وليست حقيقة الإنسان هي هذه الكتلة من الأعصاب والعظام واللحم والجلد والغرائز والشهوات فقط.

إلاّ أن التعلّق بالحياة الدنيا، وأعراضها القريبة، ومتاعها يحجبه عن تلك الأهداف والغايات العليا فتحبسه الحياة الدنيا وتعلقاتها وتثقله، كما تثقل الجاذبية الأشياء، فتعيق تحركه وصعوده؛ والتعبير القرآني بهذا الصدد دقيق: ﴿..مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾[1].

---

١ ـ التوبة: ٣٨.

وكأنّ التعلّق بالحياة الدنيا يثقل الإنسان، ويجرّه إلى الأسفل (الأرض)، ويعيق تحليقه إلى الله تعالى، ويرضيه من تلك القمم الرفيعة والآفاق الواسعة في الآخرة بهذا العرض الزائل القريب من الدنيا: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ..﴾.

ولكي يحلّق الإنسان ويرتفع لا يحتاج كثيراً إلى زخم أو دفع، وإنّما يحتاج إلى من يمزّق عنه هذه الحجب التي تحجبه عن الآخرة، ويحرّره، ويكسر عن يديه ورجليه هذه الأغلال التي تعيق تحركه، فيفتح عليه آفاق الآخرة، ويطلق يديه ورجليه للتحرك.

ودم الشهيد له هذا الدور الكبير في حياة الناس، إن دم الشهيد يزيل الخوف عن القلوب الضعيفة، ويقضي على رهبة الموت، ويعطي للموت معنى الانتقال إلى لقاء الله تعالى، ويهبه نكهة لقائه. إن دم الشهيد يرفع من قيمة الموت إلى قمة لقاء الله تعالى، ويضع من قيمة الحياة الدنيا حتّى لا تعد تستهوي أحداً من المؤمنين، إلاّ بقدر ما يكون متجراً للآخرة وطريقاً إليها.

وأكثر ما يعيق حركة الإنسان إلى الله تعالى الخوف من الموت والتعلّق بالدنيا، فإذا حلّ محله الإقبال على لقاء الله: (الشهادة)، والزهد في الدنيا (بالمعنى الإيجابي من الزهد) تغيّر وجه الحضارة والتاريخ.

إن التضحيات الكبيرة تمزّق حجب التعلّق بالدنيا عن عيني الإنسان، وتفتح عينيه فجأة على الآفاق الواسعة المترامية من وراء هذه الحجب...

إن هناك من وراء هذه الحياة اليومية الرتيبة، بما تحتويه من تجارة وعمل ومعيشة ومعاشرة ومشاكل صغيرة، وخلافات وحساسيات، وصراعات... -

أنَّ هناك من وراء هذا المستنقع ـ آفاقاً واسعة وقمماً عالية لتحرك الإنسان وصعوده، تكشفها تضحية الشهداء ودماؤهم، وكأنّ الإنسان كان في غفلة منها في حياته اليومية، فينبهه إليها الشهداء بتضحياتهم.

فدم الشهيد إذن يبعث الحياة والتحرك من جديد في المجتمع، ويمنح النور، والرؤية، والبصيرة للقلوب التي تبلّدت في الحياة الدنيا.

وعندما يمتلك الإنسان الرؤية الكافية ينكشف له الهدف والغاية، فيسعى إليه ويتحرك نحوه. فدم الشهيد إذن يمنح الإنسان الرؤية والهدف والتحرك وفي مساحة واسعة من المجتمع، ويخلق من الأجواء الخاملة، والبليدة أجواءً حركية وثورية.

ولذلك فليس في دم الشهيد خسارة إطلاقاً، حتّى بالمعنى المادي من الخسارة، بل الدم ربيح دائماً حتّى بالمعنى التجاري للربح؛ ذلك إن الشهيد، وإن كان يرحل عنا، ونخسر به عنصراً فاعلاً مخلصاً؛ إلاّ أن تضحية وإيثار شهيد واحد يخلق روح الإيثار والتضحية عند العشرات من الناس، ويكون قدوة لهم في الإيثار والتضحية، ويبعث القوّة والفاعلية والإخلاص في نفوسهم؛ فالشهادة موت للفرد وولادة للأُمّة، ومثل هذا الموت مربح ولن يُعدُّ خسارة حتّى في الحسابات التجارية من الربح والخسارة.

دم الشهيد يوسع رقعة التضحية داخل الأمّة:

إن تنامي موجة الاستعداد للتضحية والإيثار في الثورة الإسلامية المعاصرة ـ وعلى مساحة واسعة جداً ـ دليل واضح على خصوبة الشهادة وعطائها؛ فلقد بدأ الوعي الإسلامي يتنامى في هذه المنطقة، يرافقه

الاستعداد للتضحية والشوق إلى الشهادة في سبيل الله، إلاّ أن هذا الاستعداد والشوق كان ضمن رقعة اجتماعية محدودة، هي المساحة الواعية من هذه الأُمّة، وواضح لدينا إن المساحة الواعية من الأُمّة، والتي انطلقت منها الحركة في مواجهة الطاغوت ـ كانت مساحة محدودة جداً ـ ولكن كلما كان يزداد عدد الشهداء في الساحة الإسلامية كانت تتسع رقعة الاستعداد للتضحية والشهادة، وتجاوز الاستعداد للتضحية المساحة الواعية التي انطلقت منها الحركة والثورة إلى الشارع، وارتفع ابن الشارع والريف في حركة نامية سريعة إلى مستوى الاستعداد للتضحية والشهادة.

ومعنى ذلك أنّ دماء الشهداء استطاعت أن توسع رقعة الوعي والتحرك والإيثار والتضحية والشهادة خلال هذه المدّة القصيرة بدرجة عالية جدّاً، تفوق تصوراتنا الحسابية، وهذا النمو المتصاعد لحركة الإيثار والتضحية داخل الأُمّة من أهم مصاديق الضمان الإلهي لإنجاح رسالة دم الشهيد وقضيته.

دم الشهيد يحسم الخلاف ويقطع التردّد:

ودم الشهيد يقطع طريق العودة على المهزومين سياسياً وفكرياً، إنّه أداة الحسم في القضية الإسلامية فكرياً وسياسياً وعسكرياً، وقبل أن يصبغ الشهداء ساحة المواجهة بدمائهم، تتوفر الفرص بشكل واسع دائماً للصلح والتفاهم مع الكفر، والنزول عن المبادئ والحلول النصفية لترضية أئمة الكفر.

أمّا عندما يراق دم الشهداء في الساحة فإن الأمر يختلف تماماً، وتنقطع الجسور بين هاتين الجبهتين، وتبقى المبادئ هي سيدة الموقف.

والمجتمع الإسلامي لا يخلوا ـ على كل حال ـ من حالات ولحظات ضعف تدفع المجتمع غالباً باتجاه الترضية والتفاهم، وتجنب المواجهة إيثاراً للعافية والاستقرار، وتحت غطاء من التبريرات الشرعية والسياسية، ولو لا دم الشهيد لكان هذا الاتجاه هو الإتجاه السائد والغالب، إلاّ أنّ دم الشهيد يستلم الموقف السياسي والعسكري دائماً بالحسم الثوري، ويشكّل في المجتمع الإسلامي بؤرة القوّة والثورة في مقابل بؤرة الضعف التي أشرنا لها.

ولا نذهب بعيداً في أعماق التاريخ، فالثورة الإسلامية المعاصرة في إيران بمعطياتها الثورية والسياسية في متناول أيدينا، ولم تغب عنا أحداثها بعد، لقد كانت قيادة السيد الخميني قدس سره حاسمة منذ المراحل الأُولى للثورة، وكانت هذه القيادة تتجه من الأول باتجاه إسقاط النظام ـ مرة واحدة ـ وإقامة الحكم الإسلامي وبصورة قاطعة، ولكن المساحة الواسعة من الأُمّة لم تكن بهذا المستوى من التفكير الثوري، وكانت هناك قطاعات كبيرة من الأُمّة تميل إلى التفاهم مع النظام، للمحافظة على النظام والإسلام معاً بقدر الإمكان، وتجميع النظام القائم والإسلام (في الحد الأدنى) وكانوا يعتقدون بضرورة إيقاف الثورة عندما يتحقق الحد الأدنى من المصلحة للإسلام.

وبدأ (الشاه) في أُخريات أيّامه يميل إلى هذا الرأي، ويعتقد بضرورة تقديم تنازلات شكلية ومؤقتة للثورة، للإبقاء على عرشه ريثما تتم له فرصة الانقضاض من جديد على الإسلام، ولو كان يحدث شيء من هذا القبيل لحلّت بالإسلام كارثة، يصعب علينا تقدير سلبياتها وأضرارها الآن.

وقد كان لدماء الشهداء رضوان الله عليهم دور حاسم ومصيري في هذه المرحلة من حياة الثورة، قطعت الطريق على الحلول النصفيّة الضعيفة،

وقطعت جسور التفاهم مع النظام، وصادرت كلّ الحلول المطروحة للترضية والتفاهم.

وكلّما كان يكثر عدد الشهداء في الساحة كانت ترتفع درجة مقاومة الثورة وقدرتها على المضي والاستمرار، وكانت الفجوة بين الجبهتين تتسع أكثر من ذي قبل، وتقل فرص اللقاء والتفاهم الذي كان الجناح الوطني لا يخفي رغبته إليه، حتّى بلغ الأمر حداً لم يكن من الممكن اللقاء والتفاهم مع الشاه، على كل المستويات الاجتماعية المواكبة للثورة، وانقطعت الجسور بصورة نهائية، ولم يعد لأحد أمَلٌ معقول من الناحية السياسية، في إمكانية الإبقاء على الشاه، حتّى السفير الأمريكي في طهران، فقد كان يراسل حكومته ليؤكد لهم أن فكرة المحافظة على الشاه في الظروف الموجودة في إيران لم يعد إلاّ وهماً سياسياً وسراباً خادعاً... ومن الأفضل لأمريكا أن تعيد النظر في حساباتها السياسية تجاه قضية إيران، لتفكر تفكيراً واقعياً ينسجم مع الواقع الإسلامي القائم في إيران.

وبالتأكيد كان لدم الشهداء الدور الكبير البارز والفاعل في الحسم السياسي في هذه المرحلة الحساسة والمصيرية من التأريخ، إلى جانب الموقف التأريخي الحاسم الجريء الذي كان يمتلكه الإمام في مواجهة الأحداث.

وليس هذا فقط، بل كان لدم الشهداء رضوان الله عليهم في ساحة المواجهة دور في قطع طريق العودة على أمريكا وحلفائها إلى إيران من خلال المؤامرات العسكرية والالتفافات السياسية، لقد كان من الممكن أن تفكر أمريكا ـ بعد أن فقدت الأمل في المحافظة على الشاه ـ في مؤامرة

عسكرية من خلال العناصر الموالية لها من العسكر، لكن التضحيات الكبيرة التي قدمتها الأُمّة في مواجهة النظام، بقيادة الإمام قطعت الطريق عليهم أيضاً، فلم يكن من الممكن أن تسكت الأُمّة ـ بعد تلك التضحيات والدماء المباركة ـ عن بديل أمريكي آخر، مقنّع بقناع جديد من الديمقراطية والوطنية والدين، من خلال حركة العسكر أو حركة السياسيين القدامى.

لقد منحت دماء الشهداء في (ساحة الشهداء) في طهران وفي سائر سوح المواجهة هذه الأُمّة الوعي والذكاء السياسيين والحذر من لعبة تبديل الأقنعة والوجوه وقوة الحسم في الموقف.

وهذه جميعاً وغيرها هي الأدوات التي يضمن الله تعالى بها قضية دم الشهيد والتي تساهم ـ بإذن الله ـ في إنجاح رسالة الشهيد. فدم الشهيد إذن يقود المسيرة الحضارية باتجاه المواقف القوية والحاسمة، ويفتح مغاليق القلوب المعتمة والمنغلقة، ويفجر الطاقات الكامنة في أعماق النفوس، ويهب النفوس البليدة والضعيفة ذكاءً ووعياً وقوةً... ولا شكّ أنّ هذه النقاط المضيئة في دم الشهيد جميعاً مواضع يهبط عليها نصر الله تعالى وتأييده.

الإمداد الغيبي والضمان الإلهي لدم الشهيد:

وبعد فليس معنى ما ذكرنا من نقاط حسيّة لهبوط النصر والتأييد من الله تعالى أن الضمانة الإلهية لقضية الشهداء تنحصر في هذه النقاط، فإن دائرة الإمداد الإلهي الغيبي لدم الشهيد أوسع من هذه الدائرة الحسية التي رسمناه هنا، ومصادر النصر ومنابعه في خزائن رحمة الله تعالى لا تنحصر فيما ذكرنا من نقاط ووجوه، فإن خزائن رحمة الله تعالى ونصره وتأييده لمسيرة الشهداء واسعة وكثيرة لا يحددها ما ذكرنا من أسباب وأساليب.

فقد نصر الله تعالى أنبياءه بطرق غيبية لا تنالها يد الإنسان وقدرته، فنصر الله تعالى نوحاً عليه السلام ففجر الأرض ينابيع، وأنزل من السماء أمطاراً غزيرة وأغرق قومه الذين كذبوه:

﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[١] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٢].

ولقد أرسل الله تعالى على قوم عادٍ ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر، فأبادتهم وأهلكتهم.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[٣].

وأمر الله تعالى الملائكة أن ينزلوا إلى ساحة بدر لنصرة المسلمين وتثبيتهم:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرَّعْبَ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[٤].

وكذلك يثبت الله عباده الصالحين في المواجهة مع الكافرين، وعلى أرض المعركة، ويضمن الله تعالى في هذه المواجهة الحضارية العنيفة أن العاقبة للمتقين:

---

١ ـ القمر: ١١ ـ ١٢.

٢ ـ القمر: ١٥.

٣ ـ القمر: ١٩ ـ ٢١.

٤ ـ الأنفال: ١٢.

﴿..إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

وعلى نحو من ذلك نفهم نحن الضمان الإلهي لدم الشهيد وهذه الضمانة الإلهية جزء من هذه الحقيقة والسنّة الإلهية الشاملة في تأييد ودعم ونصر المؤمنين المتقين، و(الثأر) لدماء الشهداء.

١ ـ الأعراف: ١٢٨.

رحلة الشهادة في القرآن الكريم

في سورتي التوبة وآل عمران

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ..﴾[1].

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2].

يشير القرآن الكريم إلى هذه النقلة الإيمانية في حياة المؤمنين من محور الأنا إلى محور الله في أروع صورة وتمثيل، وإليك وقفة مع كل من آية التوبة وآية آل عمران الكريمتين:

رحلة الشهادة في آية (التوبة)

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ

---

١ ـ التوبة: ١١١.

٢ ـ آل عمران: ١٦٩.

السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

والآية الكريمة تعبّر عن تجرّد الإنسان من ذاته وعلاقاته بالله تعالى باستخدام تعبير البيع والشراء وهو تعبير ينطبق على الموضوع الذي نحن بصدده بشكل دقيق.

وكلّ بيع يتطلب أموراً خمسة: المشتري، والبائع، والثمن، والمثمن، ووثيقة البيع. والمشتري: هنا هو الله عزّ اسمه؛ والبائع: الإنسان؛ والثمن: الجنة؛والمثمن: هي النفس وعلاقاتها ومتعلقاتها، ولذّاتها وغرائزها، وحبها، وبغضها، وميولها؛ ووثيقة البيع: التوراة، والإنجيل، والقرآن.

البيع والشراء:

ويستوقفنا هنا هذا التعبير الرائع: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم..﴾. إنّ المؤمنين يبيعون أنفسهم وأموالهم لله، والله يشتري منهم أنفسهم وأموالهم، وليس للبائع ـ بعد أن يتخلى عن نفسه وعن الأنفس العزيزة عليه وعن ماله لله، ويقبض الثمن ـ أن يتراجع أو يتردد في تسليم البضاعة، أو يتحفظ في التسليم، أو يستقطع منها شيئاً، أو تحنّ نفسه إلى شيء منها، فقد باع، وقبض الثمن، ولا خيار ولا رجوع ولا عودة ولا استقطاع.

وعملية البيع هنا شاملة، ومستوعبة، لا تترك للإنسان شيئاً: ﴿..أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم..﴾ والأنفس هي أنفس المؤمنين، والأنفس العزيزة عليهم، من

---

١ ـ التوبة: ١١١ ـ ١١٢.

أبناء وأزواج وأُخوة وأعزاء؛ والأموال هي كلّ ما يملكونه من متاع وعقار ونقد. فلا تبقى لهم بقية في هذه الدنيا يتعلّقون بها، أو تحنّ إليها نفوسهم، ما داموا قد قبلوا البيع، وأتموا الصفقة، وقبضوا الثمن، فهي عائدة جميعاً لله، يتصرف بها كيفما يشاء، وكما يحبّ وكما يريد، وليس للمؤمن أن يتلكأ في التسليم، والعطاء، أو يتردد، فإنّ عملية التخلّي عن الأنفس والأموال تتم طواعية باختيار الإنسان ورغبته. وقيمة هذه العملية في أنّها تتم باختيار الإنسان ورغبته ومن المعيب أن يُتمّ الإنسان صفقة بيع، ويقبض الثمن ثم لا تسمح له نفسه بالتخلّي عن البضاعة أو يتردّد في تسليمها أو تساوره نفسه بالفسخ والتراجع.

النقلة الكاملة:

وعملية البيع ـ وهذا هو موضع استشهادنا بهذه الآية الكريمة ـ تعبّر عن كلّ المسيرة والرحلة، وتطوي كلّ المسافة الفاصلة بين المحورين: محور (الأنا) و(المحور الإلهي)، فيتخلى المؤمن عن نفسه ومشتهياتها، وعلاقاتها، ولذاتها ومتعها، وعن كلّ علاقاته في هذه الدنيا لله تعالى، بصورة كاملة وينتزع نفسه من هذا المحور انتزاعاً كاملاً، لينقلها إلى المحور الآخر وليضعها تحت سلطان الله تعالى وأمره ونهيه.

وهذه النقلة أو البيعة هي كلّ المسيرة الإنسانية إلى الله والمؤمنون في هذه البيعة يطوون كلّ تلك الرحلة الطويلة والشاقة.

أمثلة عن النقلة الكبرى في حياة المسلمين الأولى:

ولقد كان المسلمون في صدر الإسلام يتلقون هذه الحقائق والآيات من كتاب الله ويفهمونها بوضوح وبساطة، ومن غير تعقيد أو التواء، وتتحول هذه الآيات والمفاهيم القرآنية الجديدة في نفوسهم إلى وعي عميق، وإيمان وسلوك.

وإليكم بعض الصور المشرقة من هذا التأريخ:

١ ـ في بيعة العقبة الثانية وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين، اجتمع رجال الأنصار إلى رسول الله ﷺ عند العقبة لمبايعته ﷺ والاتفاق معه على قرار بخصوص الهجرة والنصرة، فقال عبد الله بن رواحة ﵁ للنبيّ ﷺ: اشترط لربّك ولنفسك ما شئت.

فقال النبيّ ﷺ: اشترط لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً واشترط لنفسي: أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم.

قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟

قال: الجنّة.

قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل[1].

فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم..﴾[2].

٢ ـ وعن جابر بن عبد الله الأنصاري ﵁ قال: نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو في المسجد: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم..﴾ فكبّر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار، ثانياً

١ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٨: ٢٦٧.

٢ ـ بناءً على أن تكون الآية مكية والأرجح أنها مدنية.

طرفي ردائه على عاتقه؛ فقال:

يا رسول الله أنزلت هذه الآية؟ قال: نعم. فقال الأنصاري: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل[١].

٣ ـ وصورة ثالثة من هذا التفاعل المباشر والفهم الواضح الصافي لمفاهيم الإسلام وتصوّراته الجديدة على حياة الناس وهي ما جاء عن عبادة بن الصامت: أنّ أسعد بن زرارة أخذ بيد رسول الله ﷺ ليلة العقبة، فقال: أيّها الناس هل تدرون علامَ تبايعون محمّداً ﷺ؟

إنّكم تبايعونه على أن تحاربوا العربَ والعجم والجنَّ والإنس كافة.

فقالوا: نحن حرب لمن حارب، وسلم لمن سالم.

فقال أسعد بن زرارة: اشترط عليّ.

فقال ﷺ: تبايعوني على أن تشهدوا أن لا اله إلاّ الله وأنّي رسول الله، وتقيموا الصلاة، وتؤتوا الزكاة، والسمع والطاعة، ولا تنازعوا الأمر أهله، وتمنعوني مما تمنعون أنفسكم وأهليكم.

قالوا: نعم.

قال قائل من الأنصار: نعم، هذا لك يا رسول الله. فما لنا؟

قال: الجنّة والنصر[٢].

٤ ـ وصورة أُخرى: وهي ما أخرجه ابن سعد عن الشعبي قال: انطلق النبيّ ﷺ بالعباس بن عبد المطّلب، وكان ذا رأي، إلى السبعين من الأنصار عند العقبة، فقال العباس: ليتكلّم متكلّمكم، ولا يطيل الخطبة، فإن عليكم

١ ـ الدر المنثور ٣: ٢٨٠.

٢ ـ المصدر السابق.

للمشركين عيناً، وإن يعلموا بكم يفضحوكم.

فقال قائلهم وهو أبو أُمامة أسعد: يا محمّد سَلْ لربّك ما شئت، ثم سل لنفسك ولأصحابك ما شئت، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله، وعليكم، إذا فعلنا ذلك؟

فقال ﷺ: أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤونا، وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم.

قال: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

قال: (الجنّة). فكان الشعبي إذا حدّث هذا الحديث قال: ما سمع الشيب والشبان بخطبة أقصر ولا أبلغ منها[1].

ولهذه الصور أمثلة كثيرة في تأريخ الإسلام، عن التفاعل المباشر مع مفاهيم وتصوّرات الإسلام، والانصهار والذوبان الكامل في هذه المفاهيم، والتصوّرات، والفهم الواضح لها.

لقد كان المسلمون الأوائل يفهمون هذه الآية الكريمة بهذه البساطة والوضوح، ويتفاعلون معها بمثل هذه القوّة والعزم، ولعلّنا لا نبعد عن الحقيقة إذا قلنا إنّ أبناءنا من هذا الجيل بدؤوا يستعيدون تلك البساطة والوضوح في فهم آيات الله؛ وأحداث الثورة الإسلامية المعاصرة في إيران والعراق ولبنان. وجبهات القتال الدامية مع النظام العراقي السفّاح شاهدة على هذه الحقيقة[2].

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ كتب هذا البحث أيّام الحرب العراقية الإيرانية.

تكريم الإنسان بالبيع والشراء:

ومن عجب في هذا الشراء أنّ الشاري سبحانه وتعالى له ملك السماوات والأرض، وله الإنسان وما بيده من أموال، وله أن يتصرف في كلّ ذلك من غير بيع ولا شراء ومن غير سؤال ولا استئذان، والعبد وما في يده لمولاه.

ولكنّه عزّ وجلّ شاء أن يُكرم هذا الإنسان، ويرفعه إلى موضع التعاقد والمبايعة معه، وذلك تكريم من لدن الله تعالى لعباده بما يناسب لطفه وكرمه بهم؛ وقد كان الحسن إذا قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم..﴾ قال: «أنفس هو خلقها وأموال هو رزقها»[١].

فهو سبحانه خلق الإنسان وخلق له ما شاء من الطيّبات وتلك كرامة، ثم ملّكه ذلك، وتلك كرامة أُخرى، ثم اشترى منه ما وهبه وما ملّكه، وتلك كرامة ثالثة أن يرفعه إلى موضع التعاقد والمبايعة معه، ثم جعل ثمن ما يأخذه منه من المتاع الفاني الجنّة والخلود في رحمته ورضوانه وتلك كرامة رابعة.

والعطاء جميل على كلّ حال ولكن أجمل العطاء وأفضله ما يقترن بالتكريم وقد قرن الله تعالى عطاءه لعباده بالتكريم وتلك غاية في الكرم والتكريم، والحمد لله ربنا الذي أكرمنا بكل هذه الكرامات وأكرمنا بالإسلام والتقوى.

البيعة:

والبيع والشراء من الله يستدرجنا للحديث عن مصطلح إسلامي عريق يتصل بهذا المفهوم من قريب وذلك هو (البيعة).

---

١ ـ المصنف لابن أبي شيبة الكوفي ٨: ٣٠٣ ح ٥٠ ط. دار الفكر ـ بيروت ١٩٨٩.

والبيعة مشتقة من مادة البيع، ولا نعلم ما إذا كان له في الجاهلية أصل قريب أم لا؟ إلاّ أنّ الإسلام اتّخذ هذه الكلمة مصطلحاً للالتزام والتعهد الكامل بالطاعة من قبل الأُمّة للإمام فيكون معنى الكلمة الالتزام الكامل بالطاعة.

وذكروا في المناسبة التي اقتضت تسمية هذا الالتزام بالبيعة أنّ العرب كانوا إذا تبايعوا تصافقوا وضرب أحد المتبايعين بكفه على كف الآخر، وكان ذلك علامة رضاهما بالبيع والتزامهما به.

وقد أمضت السُنّة هذه الطريقة في التعبير عن التعهد والالتزام بالطاعة تجاه الإمام؛ فكان المسلمون إذا بايعوا رسول الله استلموا كفّه إيذاناً بالالتزام بالطاعة، ويسمى هذا الالتزام بهذه المناسبة: بيعة ومبايعة؛ ومن غير المستبعد أن تكون المناسبة في هذا المصطلح أنّ هذا الالتزام من مقولة البيع، ففي البيع يتخلى البائع عن المتاع الذي يملكه بشكل كامل في مقابل ما يتلقاه من الثمن، وإذا وجب البيع فلا يحق له أن يتراجع عمّا أمضاه.

وكذلك الأمر في الالتزام بالطاعة (البيعة) فإن المرء إذا دخل البيعة والتزم بالطاعة فليس له أن يتراجع أو يتخلى عن عهده والتزامه؛ فقد أمضى البيع وقبض الثمن (الجنة) وأعطى الله ماله ونفسه، والأنفس العزيزة عليه، فلا يحق له أن يتراجع أو يتردد أو يفسخ الالتزام؛ ورحم الله ذلك الرجل الأنصاري الذي قال لرسول الله ﷺ: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل.

البيعة التجرّد الكامل عن الأنفس والأموال:

إنّ حقيقة البيعة التخلّي الكامل عن الأنفس والأموال والالتزام الكامل بالتسليم والطاعة في مقابل الثمن الكبير وهو الجنّة؛ فإن حقيقة الطاعة

هي(الولاء) والتسليم لله، ولا يتمّ الولاء لله والتسليم لأمر الله ورسوله والانقياد والطاعة لهما إلاّ عندما يتخلّى الإنسان المسلم عن كلّ شيء يتعلق به من الأنفس والأموال، ويتجرد من ملكية كلّ شيء وضعه الله تحت تصرفه وملكه، ولا يرى لنفسه حقّاً في شيء منه ويرى أنّ الله ورسوله أولى بهما منه، وهي عنده وديعة إلى حين يسترجعها الله تعالى منه وهذا هو جوهر البيعة؛ وعجيب أمر هذه الوديعة الإلهية، وعجيب كرم الله تعالى وفضله ورحمته بعباده.

فما بأيدينا من الأنفس والأموال لله تعالى وليس لنا منه شيء، أودعها عندنا وهو أولى بها، وهو خالقها ومالكها، ثم يشتريها من عباده بعد ذلك، ويعدهم بالجنّة ثمناً لها، ثم يودعها لدينا إلى حين الدعوة والطلب.

ثم إذا شاء بعد ذلك أنْ يسترجع وديعته قال عزّ من قائل: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ..﴾[1] سبحانك ما أكرمك، وأكرم عطاياك! وما أجملك وأجل أسماءك وصفاتك الحسنى! وما أبخلنا وألأمنا فنحن عبادك الذين نضن بأنفسنا وأموالنا عنك! فتول اللهم لؤمنا بكرمك وشحنا برحمتك.

البيعة ميثاق (الدعوة) والدولة:

والبيعة ميثاق، وهذا الميثاق يحمّل الإنسان المسلم مسؤوليتين كبيرتين:

الأولى: مسؤولية الدعوة إلى الله تعالى والقيام بأعبائها وتحمّل الخسائر المترتبة عليها وتوطين النفس لذلك.

---

١ ـ البقرة: ٢٤٥.

الثانية: مسؤولية الدولة الإسلامية وبناؤها والدفاع عنها.

وهاتان المهمّتان شاقتان عسيرتان ولا ينتهي دور الإنسان ومسؤوليته تجاه الإيمان بالله وبرسوله ما لم يتعهد أمر الدعوة والدولة معاً؛ وهذه المهمة المزدوجة هي أساس معاناة وابتلاء ومتاعب الأنبياء عليهم السلام، فلن تستقر الدعوة، ولن تتمكن من العقول والقلوب والحياة من دون التصدي والمواجهة ولن تشق طريقها إلاّ على أنقاض الدعوات الجاهلية وعلى أجساد الطغاة والجبابرة الذين يحولون بين الناس والاستجابة لدعوة الله.

وما يقال في الدعوة يقال في الدولة بشكل أقوى وأوضح، فإن (الدولة) هي سيادة الدعوة وسلطانها على الأرض وكلمتها النافذة، ولا تستطيع الدولة أن تفرض سلطان الدعوة على الحياة الاجتماعية، دون أن تواجه صنوفاً من العقبات والتحديات، وهذه المواجهة في طريق تمكين الدعوة والدولة وتذليل العقبات تتطلب البذل والتضحية والصبر، وتوطين النفس لكلّ ذلك من قبل الأُمّة حاملة رسالة الدعوة والدولة؛ فلابدّ من مبايعة قائد المسيرة على البذل والعطاء والتضحية والفداء، وأن يجاهدوا خفافاً وثقالاً، وإلاّ يعيقهم عن الجهاد في سبيل الله الأزواج والبنون والأموال والتعلقات والمواقع، وأن يتجردوا لله تبارك وتعالى من كلّ ارتباط وتعلّق عدا الارتباط بالله والتعلّق بالدعوة وهمومها وآلامها.

البيعة طاعة وتضحية:

ولابدّ في البيعة من أمرين:

١ ـ الطاعة والانقياد.

٢ ـ التضحية والعطاء.

قال ابن عمر: «كنّا نبايع رسول الله ﷺ على السمع والطاعة»[١].

وعن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبّ وأكره، إلاّ أن يؤمر بمعصية فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[٢].

وعن يزيد بن أبي عبيد مولى سلمة بن الأكوع قال قلت لسلمة: على أي شيء بايعتم رسول الله ﷺ يوم الحديبية؟

قال: على الموت[٣].

فلا تستقيم الدعوة ومسيرتها، ولا تحقق أهدافها من دون هذين الأمرين.

والطاعة والتضحية أمران متلازمان وهما يساويان التخلّي الكامل عن النفس ورغباتها ومشتهياتها لله تبارك وتعالى؛ والجنّة هي الثمن الذي يتقاضاه الإنسان المؤمن إزاء ذلك.

آية البيعة:

والبيعة بهذا المحتوى الرفيع لن تكون إلاّ مع الله تعالى، وأمّا الذين يبايعون النبيّ ﷺ فإنّما يبايعون الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٤].

---

١ ـ صحيح البخاري: كتاب الأحكام: باب البيعة، وصحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب البيعة على السمع والطاعة ٦: ٢٩. دار الفكر.

٢ ـ مسند أحمد بن حنبل ٢: ١٧ و ١٤٢.

٣ ـ صحيح مسلم: كتاب الإمارة: باب استحباب مبايعة الإمام ٦: ٢٧. دار الفكر.

٤ ـ الفتح: ١٠.

فلا تكون البيعة بالمحتوى الذي شرحناه مع طرف آخر غير الله، ولا يصح أن يتجرّد الإنسان ممّا آتاه الله تعالى لغير الله.

وكلمة «إنّما» في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ..﴾ ذات دلالة عميقة؛ فهي تأتي لحصر البيعة والولاء بالبيعة لله تعالى ونفي أية بيعة أُخرى غير البيعة لله.

﴿..يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ..﴾ إن اليد التي يصافحونها في البيعة وإن كانت يد النبيّ ﷺ ولكنها تمثل يد الله، وعلوها من علو يد الله، وهذه الجملة تقرر عدة حقائق إيمانية وسياسية في وقت واحد، فلابدّ في هذه البيعة من يد أعلى فوق أيديهم، ومن دون هذا العلو لا تتم الولاية والبيعة والطاعة. ولابدّ أن يكون هذا العلو علواً حقيقياً، فاستعلاء بعض الناس على بعض ليس من ذلك، وإنّما هو من الاستكبار الذي يمقته الله تعالى.

و «يد الله» هي العليا في هذه البيعة ﴿..يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ..﴾ وهي وحدها الحَرِيّة بالبيعة والطاعة والولاء؛ أمّا يد النبيّ ﷺ فليست هي المقصود بالذات في هذه البيعة، وإنّما المقصود يد الله، وتكتسب العلو والولاية من الله، لأنها اليد التي تمثّل يد الله.

وهذه الحقائق بمجموعها ترسم لنا الأبعاد الكاملة لتوحيد الولاء، وهو بعد (توحيد الإيمان بالله) يعتبر الأساس والركيزة لبناء المجتمع الإسلامي، وتنظيم شبكة العلاقات داخل المجتمع؛ فالذي يتأمّل في نسيج (العلاقات) داخل المجتمع الإسلامي، سواء ما يتعلّق منها بالعلاقة بالله ورسوله وأوليائه والقيادة الإسلامية وهي (العلاقة العمودية) أو العلاقات التي تربط أعضاء المجتمع الإسلامي بعضهم ببعض وهي (العلاقات الأُفقية)... يجد أنّ هذه

العلاقات تكوّن جميعاً شبكة واحدة ونظاماً واحداً يسمى بـ «الولاء»، وليست مجموعة من الشبكات والأنظمة، وأنّ هذه الشبكة الواحدة تنبع من مصدر واحد وهو الارتباط بالله تعالى، والولاء له (بمعنى الطاعة والنصرة والحبّ). ومن هذا المصدر تتشعب وتنبع العلاقات العمودية والأُفقية الأُخرى. وهذا هو الذي نقصده بتوحيد الولاء.

ولابدّ من هذه البيعة في كلّ جولة للدعوة، وفي كلّ مرّة تتصدى فيها الدعوة لإقامة الدولة وتتعرّض فيها الدولة لتحديات الجاهلية، وذلك لتعميق العلاقة بالقيادة وتعميق الإحساس بالمسؤولية الكبيرة في قيام الدعوة والدولة، وتوطين النفوس للطاعة والتضحية والتجرّد لله.

أربع بيعات في حياة رسول الله ﷺ:

وقد دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى البيعة أربع مرّات في حياته المباركة:

١ ـ بيعة العقبة الأُولى.

٢ ـ البيعة الكبرى بالعقبة أو بيعة العقبة الثانية.

٣ ـ بيعة الرضوان أو بيعة الشجرة[1].

٤ ـ بيعة الغدير.

والبيعة الأُولى كانت تخص أمر التعهد بالدعوة والتزامها وتبنّيها، والبيعة الثانية والثالثة والرابعة، كانت تتعلق بأمر الدولة وبنائها وحمايتها.

١ ـ تراجع تفاصيل هذه البيعات في كتاب «معالم المدرستين» للعلاّمة المحقق السيد مرتضى العسكري ١: ٨٨ـ٨٩.

البيعة الأولى:

قال عبادة بن الصامت: «... بايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء، وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه، من بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف. فإن وفيتم فلكم الجنّة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأخذتم بحدّه في الدنيا فهو كفّارة له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامة فأمركم إلى الله عزّ وجلّ، إن شاء عذّب، وإن شاء غفر»[١].

البيعة الثانية:

قال كعب بن مالك: «خرجنا من المدينة للحج وتواعدنا مع رسول الله ﷺ بـ(العقبة) أواسط أيّام التشريق، وخرجنا بعد مضي ثلث الليل متسللين مستخفين، حتّى اجتمعنا في الشِعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان، فجاء رسول الله ومعه عمه العباس فتكلّم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله ورغّب في الإسلام ثم قال: أُبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون نساءكم وأطفالكم، فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم والذي بعثك بالحقّ لنمنعك مما نمنع به أزُرنا (نساءنا). فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب.

فقال أبو الهيثم بن التيهان: يا رسول الله إنّ بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنّا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثمّ أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسّم رسول الله ﷺ ثمّ قال: بل الدم الدم والهدم

---

١ ـ سيرة ابن هشام ٢: ٧٥. ط. مصطفى البابي الحلبي.

الهدم، أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم»[١].

قال ابن قتيبة: «كانت العرب تقول عند الحلف والجوار دمي دمك وهدمي هدمك، أي: ما هدمت من الدماء هدمته أنا».

البيعة الثالثة:

وهي بيعة الرضوان أو «بيعة الشجرة» في سنة سبع من الهجرة استنفر رسول الله ﷺ أصحابه للعمرة، فخرج معه ألف وثلاثمائة أو ألف وستمائة، ومعه سبعون بدنة، وقال: لست أحمل السلاح إنّما خرجت معتمراً، وأحرم من ذي الحليفة، وساروا حتّى دنوا من الحديبية على تسعة أميال من مكة، فبلغ الخبر أهل مكّة، فراعهم واستنفروا من أطاعهم من القبائل حولهم، وقدموا مائة فارس عليهم خالد بن الوليد أو عكرمة بن أبي جهل، فاستعدّ لهم رسول الله ﷺ وقال: إنّ الله أمرني بالبيعة، فأقبل الناس يبايعونه على ألاّ يفرّوا، وقيل بايعهم على الموت[٢].

البيعة الرابعة:

وهي بيعة الغدير المعروفة، وفيها أخذ رسول الله ﷺ البيعة من المسلمين ـ وقد روي أنّهم يومذاك في غدير خم مائة وعشرون ألف شخص ـ لعليّ بن أبي طالب عليه السلام من بعده بالإمامة وقيادة الدولة من بعده والحادث معروف يرويه عدد كبير من أرباب الحديث والسير والتأريخ.

---

١ ـ سيرة ابن هشام ٢: ٨٤ـ٨٥.

٢ ـ امتاع الأسماع للمقريزي ٢٧٤ ـ ٢٩١. ويراجع ابن هشام ٣: ٣٣٠، ط. مصطفى البابي الحلبي. وقد نقلنا نصوص البيعة كلّها من كتاب معالم المدرستين عن المصادر التي أشرنا إليها في الهامش.

(يقاتلون في سبيل الله):

نعود مرّة أُخرى للحديث عن آية الشهادة في القرآن: ﴿..يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ..﴾ وهذه ثلاث قضايا مقترنة ببعضها لا يمكن تفكيكها وتجزئتها ولا يمكننا أن نفهمها فهماً صحيحاً إلاّ بهذه الصورة المتّصلة، وضمن هذا الإطار الواحد الذي يرسمه القرآن ﴿..يُقَاتِلُونَ..فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ..﴾ وتلك هي القضية الأُولى.

وفي سبيل الله وليس في سبيل الطاغوت، وعلى طريق الدعوة إلى الله. ومن أجل تقرير أُلوهية الله على وجه الأرض وبلوغ رضوانه ومرضاته، وتلك القضية الثانية في هذه الكلية.

وهذا الوعد بالجنّة، وهذه الدعوة إلى القتال وهذه المبايعة لا تخص الذين قاموا مع النبيّ الأُمي ﷺ لتطهير الأرض من الطاغوت وتقرير أُلوهية الله على وجه الأرض وإنّما هي سنة قديمة لله تعالى في عباده منذ التوراة والإنجيل، ومنذ حياة الأنبياء السابقين عليهم السلام إلى اليوم.

وشأن هذه الأُمّة اليوم شأنها في زمن موسى وعيسى عليهما السلام ومن قبلهما من الأنبياء والمرسلين، لن تنال رحمة الله ورضوانه إلاّ بتحكيم أُلوهية الله، وحاكميته على وجه الأرض، ولن تحقق حاكمية الله على وجه الأرض إلاّ من خلال هذه المعاناة والقتال والدماء: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء..﴾[1]، مسيرة واحدة مخضبة بالدم، منذ عهد موسى وعيسى عليهما السلام، ومن قبلهما من الأنبياء إلى أن يتولى المهدي من آل محمّد عليه السلام تطهير الأرض من رجس الطغاة

---

١ ـ البقرة: ٢١٤.

وعبثهم وفسادهم وإلى أن تقوم القيامة، وينشر الناس للحساب وتلك القضية الثالثة في هذه الكلمة التي يعرضها هذا النصّ العجيب من كتاب الله تعالى.

حتمية القتال في مسيرة الدعوة:

ومن هذه النقاط الثلاثة نستطيع أن ندرك التصوّر الإسلامي الكامل لمسألة القتال، إنّه ضرورة حتمية من ضرورات الدعوة إلى الله تعالى، ولا يمكن تفكيك مسيرة الدعوة إلى الله عنه، وهذه الضرورة والحتمية ليست قضية جديدة في مسيرة الدعوة، وإنّما هي ضرورة تأريخية وحتمية من الحتميات التأريخية للدعوة إلى الله.

فإنّ الدعوة إلى الله لا يمكن أنْ تشق طريقها على وجه الأرض إلى قلوب الناس وعقولهم، ولا يمكن أنْ تتحرك الدعوة إلى الله لتحرير عقول الناس وقلوبهم من «الإصر» و «الأغلال»، دون أنْ تواجه سخط الجاهلية وتحدّيها، وغضبها، ذلك أنّ الدعوة لا تتحرك في فراغ سياسي واقتصادي واجتماعي، وإنّما تتحرك في المساحة التي تحتلها الجاهلية من قبل، أو تريد احتلالها، وتتحرك على حساب نفوذ الجاهلية وسلطانها وطموحاتها في هذه المساحات، ولا يمكن أنْ تواجه الجاهلية تقدّم الدعوة ومسيرتها بالسكوت والاستسلام وتفسح الطريق لها.

إنّ الذين يتصوّرون أنّ الدعوة تتحرك في منطقة فراغ سياسية واجتماعية واقتصادية بعيدون عن الواقع وعلى درجة عالية من السذاجة والبساطة في فهم الأُمور، والأمر الواقع. إن الإنسان الذي تحرره الدعوة من الإصر والأغلال يخسره الطاغوت ولن يعود أداة طيّعة له، وموضعاً لاستثماره. وعليه فلا يمكن أنْ تتقدم الدعوة على وجه الأرض من دون أنْ تواجه

تحدياً قوياً من الجاهلية، ومواجهة حادّة من الطاغوت ومعارضة بكل الوسائل الممكنة من قبل أقطاب الجاهلية وأئمّة الكفر.

وللجاهلية محاور وولاءات كثيرة، لكنها جميعاً تجتمع عند هذه النقطة في مواجهة محور الولاء لله، وتتناسى كلّ ما لديها من خلافات قديمة وحديثة، لمواجهة العدو المشترك الذي يصادر وجودها جميعاً.

إنّ الجاهلية فيما بينها ولاءات متعددة ومتقاطعة ولكنّها في مواجهة الإسلام كتلة واحدة وبراءة واحدة، وهذه الحقيقة تجعل من الجاهلية مواجهة واحدة صارمة وعنيفة لمسيرة الدعوة.

المواجهة المصيرية بين الإسلام والجاهلية:

هذا هو التصوّر الواقعي لمسيرة الدعوة والمواجهة الجاهلية لها، ولا تنتهي هذه المواجهة والتحدي الجاهلي إلاّ عند التصفية الكاملة لحركة الدعوة والمصادرة الكاملة لإرادة الإنسان، والسيطرة الكاملة على كلّ مساحات الدعوة، والإنهاء الكامل لكلّ مواقع الدعوة إلى الله، وكلّ مواقع الاستجابة لدعوة الله تعالى وإلى هذه الحقيقة في بنية الجاهلية يشير القرآن الكريم: ﴿..وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا..﴾[1]، لا تتوقف الجاهلية إلاّ عند تصفية هذه المراكز جميعاً: البيع، والصلوات، والمساجد، وكلّ موقع ومركز يذكر فيه اسم الله ويدعى فيه إلى الله تعالى.

ولا سبيل إلى إيقاف الجاهلية وصدّها عن العدوان وعن الفتنة في طريق

---

١ ـ الحج: ٤٠.

الدعوة إلاّ بالقتال والجهاد واستئصال الكفر والجاهلية ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّه..﴾[1].

فالقتال إذن ضرورة من ضرورات الدعوة، ولا يمكن أن تنطلق مسيرة الدعوة على وجه الأرض من دون قتال ودم، ولا يمكن أن تؤدي الدعوة رسالتها على وجه الأرض، دون أن تُعدّ الإعداد الكامل لهذه الحرب المصيرية والحضارية، ودون أن توطّن نفسها لهذه المواجهة العنيفة التي لا ترحم صغيراً ولا كبيراً؛ والتفكير في المصالحة والهدنة والتفاهم مع الجاهلية تفكير ساذج، وغير واقعي وغير مبدئي في نفس الوقت. فليس لنا مع الجاهلية، والطاغوت غير خيار واحد، وقرار واحد، وهو الاستمرار في القتال (ضمن مراحل العمل والحركة) حتّى يتم القضاء الكامل على الجاهلية وبها يتم القضاء الكامل على الفتنة على وجه الأرض: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّه..﴾، ولكن في تسلسل زمني، وضمن مراحل من العمل والحركة والجهاد.

ولابد هنا من توضيح على قدر كبير من الأهمية، وهو أننا لا نقصد بالجاهلية عامّة الناس ممن لا يؤمن بهذا الدين، وإنّما نقصد بالجاهلية التي يجب مقاومتها وإنهائها لتنتهي الفتنة على وجه الأرض أئمة الكفر، وأنظمة الاستكبار العالمي. وأمّا عامّة الناس فهم ضحايا الجاهلية وليسوا قادتها.

العلاقة العضوية بين أطراف الجاهلية:

إنّ الجاهلية المعاصرة كالجاهلية في أي وقت آخر ذات ولاءات ومحاور مختلفة، لكنها قبالة الإسلام تجمعها علاقة عضوية واحدة، وهذه

---

١ ـ البقرة: ١٩٣.

الحقيقة التأريخية هي التي تفسر لنا كيف اجتمعت أميركا وروسيا وإنكلترا وفرنسا وألمانيا وغيرها من الدول الكبرى على دعم النظام العراقي في ضرب الثورة الإسلامية والكيد للدولة الإسلامية.

إنّ هذه المسائل السياسية تكشف عن طبيعة الجاهلية وارتباطها العضوي، ووحدة الموقف السياسي عندها في البراءة، وإن كانت هي في داخلها ذات محاور وولاءات متعددة ومتخالفة.

شراسة الجاهلية في صراعها مع الإسلام:

إنّ الفتك والبطش والشراسة من خصائص الجاهلية في صراعها مع الإسلام، وتحاول الكيانات الجاهلية في صراعها السياسي والعسكري مع الإسلام أن تتقنّع بقناع الإنسانية والأخلاق، فإذا طال الصراع واستنفذت الجاهلية وسائلها الممكنة، ووجدت نفسها في خطر حقيقي ألقت هذا القناع جانباً، وظهرت بكل بشاعتها للساحة وللرأي العام.

ويطول هذا الصراع ولا يمكن الوصول فيه إلى تفاهم أو مصالحة، ولا أمد للحرب غير سقوط الجاهلية ونهايتها وإخلاء الساحة الإنسانية لحركة الدعوة إلى الله؛ فالصراع هنا ليس صراعاً على أرض وماء أو حقل من حقول النفط وإنّما الصراع هنا (صراع حضاري) بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالة وعمق.

وبكلمة موجزة جداً: إنّ الصراع هنا صراع الولاءات وليس صراع المصالح، حتّى يمكن فيه التفاهم، والصلح واللقاء.

الإيمان بالله يساوي التخلّي عن الأنفس والأموال:

ولابد أن نقف وقفة أُخرى عند كلمة: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم..﴾ فإنّ الآية الكريمة تقرّر قضية هذا البيع والشراء بصيغة الماضي، وليس بصيغة المضارع ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ..﴾ من كلّ المؤمنين دون تخصيص.

إنّها لآية عجيبة حقّاً تهز الإنسان من الأعماق وتشعر الإنسان بعمق معنى الإيمان وبثقل الإيمان الكبير، فكلّ إيمان بيعة مع الله، وكلّ من آمن فقد باع نفسه لله وتخلّى عن نفسه وماله له تعالى من دون تردّد، إنّ القضية أعمق من الاستعداد للتخلي، انّه هو التخلّي بالفعل عن النفس، والمال لله، وهذا هو معنى (البيع) و(الشراء) وليس الاستعداد للتنازل عن الأنفس والأموال، وإنّما التخلّي الفعلي عن كلّ شيء يملكه لله تعالى من دون تردد، ولا تراجع، ولا نظرة إلى الوراء، فقد تمّ البيع وتمت الصفقة وحسم الأمر، فلا إقالة ولا رجعة.

وهكذا كان يفهم المسلمون الأوائل هذه الآية الكريمة عندما كبّروا لمّا تلا رسول الله ﷺ هذه الآية عليهم، وقال قائلهم: «بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل».

وثيقة البيع:

وأمّا الوفاء بالثمن ووثيقة البيع فإنّ الشاري هو الله تعالى وهو المتعهد بالثمن، ومن أوفى بعهده من الله؟

وإنّ المؤمن ليتصور هذا الثمن الكبير الباقي، لهذه البضاعة النافذة، ثم

يعلم أنّ الله تعالى هو الذي يتولى الوفاء بهذا العهد فتمتلئ نفسه غبطة وراحة ويقيناً، ويطمئن قلبه بعهد الله تعالى وميثاقه.

ومن عجيب أمر هذا البيع والشراء وثيقة هذا البيع، فإنّ وثائق البيوع تختلف باختلاف أهمية درجة البيع وقيمته، وإذا كان المشتري في هذا البيع هو الله تعالى والبضاعة هي الأنفس والأموال والثمن الجنّة، فلابُدّ أن تكون وثيقة هذا البيع على قدر قيمته، وأعزّ الوثائق كُتب الله تعالى وألواح الوحي المرسلة إلى أنبيائه؛ ووثيقة هذا البيع من هذا النوع: التوراة والإنجيل والقرآن، وناهيك بها من وثائق تبعث الطمأنينة والثقة في أضعف النفوس.

ولأمر ما يأتي في هذه الآية الكريمة تأكيد الوثيقة في هذا البيع ويأتي ذكر المواثيق التي سجّل الله تعالى فيها عهده لعباده بالجنّة ويأتي قوله تعالى: ﴿..وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ..﴾.

فإنّ القلوب كلما كانت تطمئن أكثر لوعد الله تُقدِم على هذه المبايعة مع الله بثقة ويقين أكبر. والضعف في الاطمئنان لا ينافي الإيمان؛ فقد يكون الإنسان مؤمناً ولكن لم يبلغ في تعامله مع الله تعالى درجة عالية من اليقين والاطمئنان، ومثل هذا الإيمان يشوبه الكثير من الضعف والتخلّف عند المبايعة والاستجابة لدعوة الله تعالى.

وأمّا عندما ترتفع درجة ثقة الإنسان بوعد الله تعالى إلى مستوى (الطمأنينة) و(اليقين) فإنّ الأمر يختلف بالنسبة إليه اختلافاً كبيراً وتكاد تكون (الجنّة) ثمناً مقبوضاً والبيع نقداً، وليس الثمن موعوداً.

إنّ الذين رزقهم الله الطمأنينة واليقين يرون وعد الله حاضراً ويرون الجنّة ماثلة أمام أعينهم، فلا يشكّون، ولا يتردّدون، ولا يحجمون، ولا يساورهم

شكّ ولا ريب، ويقدمون على المبايعة مع الله، من دون خوف، أو تراجع، أو نظر إلى الوراء، ويقدّمون أنفسهم وأموالهم لله ببساطة وارتياح ومن غير معاناة.

روى مسلم أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض.

قال عمر بن حمام الأنصاري: يا رسول الله، جنّة عرضها السماوات والأرض؟

قال: نعم.

قال: بخٍ بخٍ.

فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك بخٍ بخٍ.

قال: لا والله يا رسول الله إلاّ رجاء أن أكون من أهلها.

قال: فإنّك من أهلها.

فأخرج تمرات من قربه، فجعل يأكل منهن.

ثم قال: لئن أنا حييت حتّى آكل تمراتي هذه إنّها لحياة طويلة.

قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتّى قُتل»[١].

وروى مسلم عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال: سمعت أبي، وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أبواب الجنّة تحت ظلال السيوف». فقام رجل رثّ الهيئة فقال: يا أبا موسى أنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا؟ قال: نعم، قال: فرجع إلى أصحابه، فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو، فضرب به

---

١ ـ الجامع الصحيح لمسلم ٦: ٤٤، كتاب الإمارة: باب ثبوت الجنّة للشهيد. دار الفكر ـ بيروت.

حتّى قُتل[١].

بمثل هذه البساطة والثقة والطمأنينة كانوا يتعاملون مع الله تعالى.

وقد هازل برير عبد الرحمن الأنصاري (ليلة عاشوراء)، فقال له عبد الرحمن الأنصاري: ما هذه ساعة باطل! فقال برير: لقد علم قومي ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، ولكني مستبشر بما نحن لاقون؛ والله ما بيننا وبين الحور العين إلاّ أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، ولوددت أنّهم مالوا علينا الساعة[٢].

وخرج حبيب بن مظاهر يضحك، فقال له يزيد بن الحصين: ما هذه ساعة ضحك يا حبيب!

قال حبيب: وأي موضع أحق بالسرور من هذا؟ ما هو إلاّ أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم فنعانق الحور[٣].

روي عن جابر أنّ رجلاً قال (في ساحة المعركة): «أين أنا يا رسول الله إن قتلت؟ قال: في الجنّة. فألقى تمرات كن في يده، ثم قاتل حتّى قُتل»[٤].

والثمن هو الجنّة:

ثمّ إنّ الجنّة هي الثمن في هذه المبايعة ﴿..بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ ويستتبع الوعد بالجنّة البُشرى السارة التي يزفها القرآن إلى المجاهدين: ﴿..فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾: الجنّة والبشرى والفوز العظيم.

---

١ ـ الجامع الصحيح لمسلم ٦: ٤٥، كتاب الإمارة: باب ثبوت الجنّة للشهيد.

٢ ـ تأريخ الطبري ٦: ٢٤١.

٣ ـ مقتل المقرّم: ٢٣٨.

٤ ـ صحيح مسلم ٦: ٤٣.

وتنتهي الآية الكريمة مرّة أُخرى بالبشارة ﴿..وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إنّ جو الآية يطفح بالبشرى والسرور والفوز، وهكذا يشعر الإنسان عندما يقرأ هذه الآية المباركة انه ينتقل فيها من الجنّة إلى البشرى، ومن البشرى إلى الفوز العظيم، ومن الفوز العظيم إلى البشرى ثانية.

الفوز العظيم:

وأودّ أن أقف قليلاً عند هذه الكلمة ﴿..الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، فهو مصطلح محدد في كتاب الله والذي يتتبع مواضع استعمال هذه الكلمة في القرآن يجد أنّها تستعمل في موارد متقاربة مفهوماً ومترابطة أو متحدة مصداقاً، فالجنّة من الفوز العظيم ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١].

والمبايعة مع الله من الفوز العظيم: ﴿فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٢].

وطاعة الله وطاعة رسوله (ولاية الله) من الفوز العظيم: ﴿..وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[٣].

ورضوان الله وتبادل الرضا بين العبد وربّه من الفوز العظيم: ﴿..رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[٤].

---

١ ـ التوبة: ٨٨ ـ ٨٩.

٢ ـ التوبة: ١١١.

٣ ـ الأحزاب: ٧١.

٤ ـ المائدة: ١١٩.

ويطلق على الجنّة ورضوان الله معاً: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

ويطلق على المغفرة والرحمة الإلهية، والوقاية من السيّئات ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2].

وإجمال هذه المعاني: الرحمة والمغفرة الإلهية ورضوان الله وطاعة الله ورسوله (ولاية الله والجنّة).

وهذه النقاط كما هي واضحة تعتبر بمجموعها المحور الثاني الذي تحدثنا عنه في هذه التأملات في مسيرة الإنسان إلى الله والذي يقابل محور (الأنا) و(الذات).

وعليه فإنّ الثمن في هذه الآية الكريمة من جنس المبيع وهو (الفوز العظيم) وليس من نوع آخر كما في سائر البيوع، حيث يختلف المبيع عن الثمن وهذه من لطائف ورقائق القرآن في هذه الآية الكريمة.

فالفوز العظيم في الحقيقة هو التجرّد من محور الأنا والارتباط بمحور ولاية الله، والخروج من دائرة نفوذ سلطان الأنا والدخول في دائرة ولاية الله وطاعته ورحمته ومغفرته.

وهذا هو الفوز العظيم ـ في رحلة الإنسان الكبرى إلى الله ـ في الدنيا وفي الآخرة، وهو يشمل الإنسان في الآخرة كما يناله في الدنيا على نحو سواء.

والمتأمل في هذه الآية المباركة: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ

---

١ ـ التوبة: ٧٢.

٢ ـ المؤمن: ٩.

الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١] يجد أنّ الفوز العظيم هو تحرر الإنسان وانطلاقه من أسر (الأنا) والشهوات وارتباطه بالله تعالى، وهو لا يخصّ الآخرة وإنّما يشمل الإنسان في الدنيا والآخرة.

فإنّ الجنّة هي الفوز العظيم، وهي مآل الفائزين برحمة الله، والمنزل الذي أعده الله تعالى لهم في الآخرة، فالفوز العظيم إذن هو مبايعة الله تعالى وتسليم الأنفس والأموال له وهو في نفس الوقت الثمن في هذا البيع[٢].

صفة الذين باعوا انفسهم لله:

ثم تصف الآية الكريمة هؤلاء الذين باعوا أنفسهم لله بأنّهم: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

تائبون عائدون إلى الله، أقلعوا عن الذنوب وفرّوا إلى الله تعالى.

عابدون حامدون شوقاً إلى الله تعالى، وأُنساً بذكره وعبادته، لأنّهم وجدوا الله أهلاً للعبادة فعبدوه وأهلاً للحمد والثناء فحمدوه.

وسائحون: وقد اختلف المفسرون في تفسير هذه الكلمة فقالوا: إنّها بمعنى الصيام، وقيل: إنّها بمعنى الجهاد، وقيل: إنّها بمعنى التأمل والسياحة الفكرية في آيات الله، وهو المعنى الذي أُرجحه هنا.

---

١ ـ يونس: ٦٣ ـ ٦٤.

٢ ـ لست أريد أن أقول إنّ الجنّة هي مبايعة الله تعالى وتسليم الأنفس والأموال لله، وانّما أُريد ان أقول: إنّ المبايعة لله هي الفوز العظيم فيتحد البيع والثمن؛ والجنّة هي الدار التي أعدها الله تعالى في الآخرة للفائزين الصالحين من عباده.

٣ ـ التوبة: ١١٢.

الـراكعون الساجدون لله، والركوع والسجود أقصى درجات الخضوع والتذلل بين يدي الله يجسّدان حالة الخشوع والخضوع والإخبات والإنابة عند المؤمنين: ﴿..الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ..﴾ ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّه..﴾.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الرقابة على تنفيذ أحكام الله ومراقبتها. وحفظ حدود الله هو تنفيذها، والعمل بها.

فهؤلاء المجاهدون إذن منفّذون لأحكام الله، عاملون بحدود الله، وفي نفس الوقت يراقبون تنفيذها، ينفذون أحكام الله بأنفسهم، ويراقبون تنفيذها في حياة الآخرين، فهم يشعرون بالمسؤولية تجاه حدود الله وأحكامه في حياتهم وفي حياة الآخرين.

رحلة الشهادة في آية (آل عمران)

وفي سورة آل عمران نلتقي هذه اللوحة القرآنية الرائعة عن الشهيد والتي تستوقف الإنسان طويلاً، وتخرجه من دائرة تصوّراته البشرية المحدودة عن الموت والحياة إلى أُفق واسع جديد لم تعهده تصوّراتنا المحدودة عن الموت والحياة وتعطي للحياة معنىً جديداً لا تعرفه التصوّرات الجاهلية للإنسان. وها نحن نتلو معاً هذه الآيات المباركات من سورة آل عمران: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ

عَظِيمٌ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

الحياة الطيّبة:

الحقيقة الأُولى في هذه اللوحة القرآنية:

إن الذين قُتلوا في سبيل الله أحياء وليسوا بأموات، والنهي عن تصوّر أنّ الشهداء أموات: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا..﴾، إنّ المسألة ليست من المجاز في التعبير، وإنّما هي حقيقة داخلة في حيّز النفي والإثبات: النهي عن حسبان الشهداء أمواتاً، وإثبات أنّهم أحياء، وهذا تصور جديد على الذهنية المادية تماماً.

ليست الحياة هي فقط هذه الفرصة وهذه الرقعة الضيّقة التي يعيشها الإنسان في هذه الدنيا.

وليست الحركة الحيوانية التي يمارسها الإنسان في هذه الدنيا من أكل وشرب، وتسابق على متاع الحياة الدنيا وزخرفها، ونشاط وحركة في حقل الغرائز الحيوانية هي المؤشر والمقياس الوحيد للحياة. فهذه رقعة صغيرة للحياة، محدودة الأمد، قصيرة المدى، حافلة باللهو واللعب. إنّ ما بأيدي الناس هنا ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء﴾، وليس من الحياة في شيء، أما النبع الصافي والزلال للحياة فشيء آخر، يختلف تماماً عمّا يعرفه الناس، والله تعالى ورسوله يدعوانا إلى الحياة الطيّبة الحقيقية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ

---

١ ـ آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٥.

اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ..﴾[١].

وهـذا الـذي يدعونـا إلـيه الله تعـالى ورسوله من الحياة شيء آخر غير ما يتـنافس علـيه الـناس؛ مـن اللهـو واللعـب، والـتفاخر، والزينة، وما يشوبه من الـبعد عـن الله والبغضـاء، والمعاصـي والذنـوب، والاستغراق في متاع الحياة الدنـيا، والـتعلّق بهـا، وحـياة الـذل والهـوان والعـبودية لغـير الله، والاستسـلام للأهواء والشهوات.

إنّ الحـياة فـي التصوّر الإسلامي انطلاق من القيود والأغلال، وتحرر من أسـر الهـوى والشـهوات، وخروج من ذل الانقياد والاستسلام للطغاة إلى عزّ العـبودية لله تعـالى؛ والحـياة فـي هذا التصوّر الجديد على البشرية تحرر من كـلّ تعلـق بالدنـيا، لا بمعنى تـرك الدنـيا ولذّاتها، فإنّ الإنسان المؤمن يأخذ نصـيبه مما خلق الله من الطيّبات كالآخرين أو أفضل من الآخرين، إلاّ أنّه لا يقـع فـي قبضـة الـتعلق بالدنـيا ولا تـتحكم فـيه ولا يكون مصداقاً لقوله ﷺ: «حب الدنيا رأس كلّ خطيئة»[٢].

إنّ مـا بـأيدي الناس من الحياة ليس من الحياة في شيء، وإنّما هي أقرب إلى حياة البهائم منها إلى حياة الإنسان. أمّا الحياة الحقيقية فهي التي اختارها الله للصـالحين مـن عـباده فـي الدنـيا والآخـرة وهـي (الحـيوان) فـي الآخرة. ﴿..وَإِنَّ الـدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[٣] والحيوان مبالغة في

---

١ ـ الانفال: ٢٤.

٢ ـ بحار الأنوار ٥١: ٢٥٨.

٣ ـ العنكبوت: ٦٤.

الحياة، إنّها الحياة الحافلة بلقاء الله والإيمان، والحب، والشهود، والصدق، والطيّبات، وفي أُفق واسع عريض، وعلى مدى الخلود والأبدية، حياة الروح والجسم والعقل معاً. والشهيد في حركته الصاعدة إلى الله ينتقل من هذه الرقعة الضيقة من الحياة الفانية والمؤقتة إلى ذلك الأُفق الرحيب من الحياة، ومن هذه المشوبة بالأكدار والابتلاءات إلى النبع الصافي الزلال من الحياة، وليس إلى الموت والركود والغياب كما يتصوره الناس.

أعلى درجات القرب من الله:

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وهذه الفقرة تدخل لتكمل صورة هذه الحياة الحقيقية التي ينتقل إليها الشهيد في مسيرته إلى الله تعالى. إن غاية حركة الشهيد إلى الله، وهذه الغاية هي كلّ قيمة الحياة، وتكتسب الحياة قيمتها الحقيقية عندما تقترن بالقرب من الله وتوصل الإنسان إليه وتجعله بجواره، أمّا عندما تنقطع الحياة من التحرك إلى الله، ومن قربه، ومن التوجه إليه، فهي سراب وضياع له في متاهات الدنيا، واستغراق في متاعها وحطامها.

إنّ غاية الإنسان في مسيرته وحركته الكادحة الكبرى في الدنيا هي القرب من الله ولقاء الله، وهي الغاية التي يسعى إليها الشهيد ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾[١].

وما يحقق الإنسان في الدنيا من هذه الغاية هو قيمته ودرجته، والقرب من الله هو المقياس الذي يقيس به الإسلام أقدار الناس ومراتبهم؛ والناس في القرب والبعد من الله درجات ومراتب... حتّى يكون الإنسان (عند الله)،

---

١ ـ الانشقاق: ٦.

فلا تكون ثمة درجة أقرب إلى الله منه إلى الله. ولا تجد في اللغة تعبيراً أقوى وأبلغ في (القرب) من كلمة (عند) وكأنّ الفواصل تنعدم في هذه الدرجة من القرب، وحاشا ربّنا من ملابسة خلقه وعباده وتبارك وتعالى من أن يرتفع عباده إلى مستوى كبريائه وعزّه وجلاله، ولكنّه تعبير بليغ عن أقرب درجات القرب إلى الله؛ وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «فوق كلّ برّ برٌّ حتى يقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قُتل في سبيل الله عزّ وجلّ، فليس فوقه برّ»[1]. وروي عنه ﷺ: «فوق كلّ ذي برّ برٌّ حتى يُقتل الرجل في سبيل الله فليس فوقه برّ»[2].

إنّ كلمة (عند ربّهم) لتستوقف الإنسان طويلاً! أيبلغ الأمر بالعبد الوضيع أن يكون (عند ربّه) هكذا من دون فواصل ومراحل، وبمثل هذه الدرجة من القرب (عند ربّه)، وتعالى الله عن ملابسة مخلوقاته علواً كبيراً. وقد ورد مثل هذا التعبير في القرب من الله في سورة القمر بالنسبة إلى المتقين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[3]. وفي المناجاة الشعبانية: «... إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور، فتصل إلى معدن العظمة...»[4].

وحالة «كمال الانقطاع إلى الله تعالى» هي التي توصل الإنسان إلى معدن

---

١ ـ بحار الأنوار ١٠٠: ١٠.

٢ ـ بحار الأنوار ٧٤: ٦١.

٣ ـ القمر: ٥٤ ـ ٥٥.

٤ ـ مفاتيح الجنان: ١٥٨. مناجاة الأئمة عليهم السلام في شعبان.

العظمة، وتخرق له حجب الظلمة والنور إلى الله تعالى؛ وفي المناجاة:

«إلهـي فاسلُك بنا سبل الوصول إليك، وسيّرنا في أقرب الطرق للوفود عليك»[١].

وليس من أحد تنطبق عليه هذه الفقرات أكثر من الشهيد، فهو يسلك إلى الله تعالى أقرب الطرق، وليس من طريق أقرب إلى الله من الشهادة ثم يفد على الله تعالى.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: **«إنّ لله عباداً في الأرض كأنّما رأوا أهل الجنّة في جنتهم، وأهل النار في نارهم، يجأرون إلى الله سبحانه بأدعيتهم، قد حلا في أفواههم، وحلا في قلوبهم طعم مناجاته، ولذيذ الخلوة به، قد أقسم الله على نفسه بجلاله وعزّته ليورثنّهم المقام الأعلى في مقعد صدق عنده»**[٢].

هؤلاء هم الذين يورّثهم الله المقام الأعلى، ويرزقهم الله جواره في الجنّة، ويسكنهم في مقعد صدق عنده، وهم الذين يفدون على الله.

(يرزقون):

وهذه الكلمة تشخص نوع الحياة، إنّها حياة حقيقية كاملة، وليست معنوية خالصة، بل هي الحياة بكل أبعادها المادية والمعنوية، وهذه الجملة لا تُبقي لأحد مجالاً للشكّ في تشخيص هذه الحياة بعد حياة الدنيا. ومن العجب أن بعض المفسرين يتردّدون في تفسير هذه الآية بالحياة الحقيقية، والآية الكريمة ترسم الحياة بصورة واضحة؛ فالشهداء أحياء عند ربّهم

---

١ ـ بحار الأنوار ٩٤: ١٤٧.

٢ ـ تفسير البصائر ٤٢: ٣٩١.

يـرزقون فـي حـياتهم الجديـدة، ويفـرحون بمـا آتـاهم الله مـن فضـله، ويستبشـرون بالذين من خلفهم، وهل بعد كلّ هذه النقاط غموض في معنى الحياة التي تلي هذه الحياة والتي تسبق الحياة الآخرة، إنّ هذه الثانية ليست هي الحياة الآخـرة، فالحياة الآخرة ليست موضع إنكار أحد من المؤمنين، والآيـة حيث تنهى عن حسبان الشهداء من الأموات تكاد تكون صريحة في أنّ المقصـود مـن هـذه الحياة: حياة أُخرى غير حياة الآخرة؛ فإنّ أحداً من المؤمنين لا يشكّ في حياة الآخـرة للشهيد ولغير الشهيد، فلابدّ أن يكون المقصود حياة أُخرى بين حياة الدنيا وحياة الآخرة، وهي التي يجهلها الكثير من المؤمنين، ينتقل إليها الشهيد من الحياة الدنيا مباشرة، ويعيش فيها بجوار ربّه تبارك وتعالى، والناس ينظرون إلى الشهيد جثة هامدة فيتصوّرون أنّه ميّت، وليس هو بميّت، وإنّما ينعم في جوار ربّه بما أعدّ الله للصالحين من عباده من فضل ورحمة في الجنّة، حتّى ينتقل في الآخرة إلى حيث يختار الله تعالى له من مراتب رحمته وفضله في جنّه عرضها السماوات والأرض.

وفـي أحاديـث رسـول الله ﷺ وأهـل بيته شواهد كثيرة على هذه الحياة البرزخية التي يحياها الشهداء والصالحون من عباد الله في الجنّة، وينعمون فيها برحمة الله قبل الحشر والحياة الآخرة، ففي الحديث عن جابر بن عبد الله الأنصاري عن رسول الله فيما جرى للمسلمين في حرب مؤتة بعد استشهاد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة الأنصاري رحمهم الله الذين عيّنهم النبيّ ﷺ قادة للجيش على التوالي، إن استشهد منهم أحد، تولى الآخر محله، يقول جابر رضي الله عنه:

«فلمّا كان اليوم الذي وقع فيه حربهم صلّى النبيّ ﷺ بنا الفجر ثم صعد

المنبر فقال: قد التقى إخوانكم مع المشركين للمحاربة، فأقبل يحدّثنا بكرّات بعضهم على بعض، إلى أن قال: قُتل زيد بن حارثة وسقطت الراية، ثم قال: قد أخذها جعفر بن أبي طالب وتقدّم للحرب، ثم قال: قد قُطعت يده، وقد أخذ الراية بيده الأُخرى، ثم قال: قُطعت يده الأُخرى، وقد أخذ الراية في صدره، ثم قال: قُتل جعفر بن أبي طالب وسقطت الراية، ثم أخذها عبد الله بن رواحة، وقد قتل من المشركين كذا، وقُتل من المسلمين كذا، فلان وفلان إلى أن ذكر جميع من قتل من المسلمين بأسمائهم، ثم قال: قُتل عبد الله بن رواحة، وأخذ الراية خالد بن الوليد فانصرف المسلمون، ثم نزل عن المنبر وصار إلى دار جعفر، فدعا عبد الله بن جعفر فأقعده في حجره وجعل يمسح على رأسه، فقالت والدته أسماء بنت عميس: يا رسول الله إنّك لتمسح على رأسه كأنّه يتيم قال: قد استشهد جعفر في هذا اليوم، ودمعت عينا رسول الله ﷺ وقال: قطعت يداه قبل أن يستشهد وقد أبدله الله بجناحين من زمرد أخضر، فهو الآن يطير بهما في الجنّة مع الملائكة كيف يشاء»[1].

(فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ):

إن فرح الشهيد بما يؤتيه الله تعالى من فضله ورحمته الواسعة لا حدّ له، أنه يستقبل الرحمة الإلهية الواسعة، ويرى ما أعدّ الله تعالى من فضل ورحمة قبل أن تفارق الروح جسده وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه. روى زيد بن علي عن أبيه علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام، عن آبائه، قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد سبع خصال من الله:

١ ـ بحار الأنوار ٢١: ٥٤ نقلاً عن الخرائج ١٨٨.

أول قطرة من دمه: مغفور له كلّ ذنب.

والثانية: يقع رأسه في حجر زوجتيه من الحور العين وتمسحان الغبار عن وجهه، وتقولان: مرحباً بك، ويقول: هو مثل ذلك لهما.

والثالثة: يكسى من كسوة الجنّة.

والرابعة: تبتدره خزنة الجنّة بكل ريح طيّبة أيّهم يأخذه معه.

والخامسة: أن يرى منزله.

والسادسة: يقال لروحه اسرحي في الجنّة حيث شئت.

والسابعة: أن ينظر في وجه الله، وإنّها لراحة لكل نبيّ وشهيد»[١].

(وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ):

إنّ الشهداء لم يموتوا ولم يَنَل الموت منهم وعياً ودركاً؛ أنّهم يرون إخوانهم المؤمنين الذين لم يلحقوا بهم بعد، ويتابعون حركتهم ومسيرتهم، ويدعون الله تعالى لهم، ويستبشرون بوفود إخوانهم الذين لم يلحقوا بعد بهم، وإن لكلّ لقاء جديد فرحة جديدة وبشرى جديدة، وفي كلّ يوم لهم بشرى جديدة بلقاء أخ جديد في الله، يفد على الله من بين لظى المعركة، ويقبل عليهم فيستقبلونه بالابتهاج والسرور.

إنّهم حاضرون (وشهداء) المعركة، لم يغيبوا عنها بالموت ولم يكن الموت بالنسبة إليهم غياباً، إنهم عند ربّهم يشهدون المعركة ويتابعون أحداثها، ويدعون للمقاتلين ويستبشرون بالقادمين منهم إليهم، وحاشا أن يكون أُولئك أمواتاً بل هم من شهداء المعركة وحضّارها، إنّما الأموات هم أُولئك الغائبون عن مسيرة التأريخ وحياة الناس، وصراع الحقّ والباطل،

---

١ ـ تهذيب الأحكام ٦: ١٢٢.

وجهاد المؤمنين، وهم أولئك الذين يؤثرون الحياة الدنيا وعافيتها، ويخلدون إلى الراحة ويعتزلون تيّار العمل والحركة والجهاد، ويعيشون على هامش الحياة والتأريخ، يتفرجون على الصراع من بعيد، أُولئك هم الأموات، بالرغم من أنّهم يستنشقون الهواء ويتحركون، أُولئك أحياء الأموات، الذين لا يعرفون للحياة معنى غير هذه الحياة التي يعيشها البهائم، ولا يعرفون في الحياة لذّة ومتاعاً إلاّ ما يعرفه الحيوان من اللذة والمتاع، ولا تتجاوز اهتماماتهم وطموحاتهم شهوات الحيوانات واهتماماتها، أُولئك هم الغائبون الأموات.

أما الشهداء فلا يغيبون عن هذه الساحة لحظة واحدة، ويشهدون عن كثب من عند ربهم كلّ تطورات المسيرة، وحركتها، وتقدّمها، وانتصاراتها، وانتكاساتها، وآلامها، وآمالها، وتطلعاتها، وطموحاتها، ومعاناتها، ولكن بنَفَسَ يختلف عن أنفاسنا ورؤية تختلف عن رؤانا وتصوّر يختلف عن تصوّراتنا المحدودة.

لا خوف ولا حزن:

وذلك قوله تعالى: ﴿..وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. فهم ينظرون إلى إخوانهم الذين لم يلحقوا بهم بعد وإلى المسيرة الحافلة بالدماء والجهاد والانتصارات والانتكاسات والآلام والمرارات. بهذه الرؤية الربّانية: ﴿وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

أما نحن، هنا في هذه الدنيا، فرؤيتنا تختلف، إننا ننظر إلى المسيرة من خلال تصوّراتنا البشرية التي يشوبها الضعف وقصر المدى والتشويش، وينتابنا القلق والارتباك كلما توقعنا مصيبة تنزل بنا في حركتنا، وكلما توقعنا

عاصفة تعصف بنا، ولا تذر لنا رطباً ولا يابساً، وينتابنا الحزن والألم كلما نزلت بنا داهية، أو عمّتنا مصيبة فتضيق بنا الأرض بسعتها، وتعتصرنا الآلام: آلام الفراق ومرارة الانتكاسات وشدة الابتلاء في الأنفس والأموال والأرزاق والأمن، فالمسيرة بالنسبة إلينا ـ ومن خلال تصوّراتنا ـ حافلة بالخوف والحزن؛ الخوف على ما نتوقعه من الابتلاء، والحزن على ما نزل بنا من ابتلاء وشدة، وقليل من عباد الله الذين تصفُو لهم الرؤية في وسط هذه المسيرة الحافلة بالدماء والآلام، فلا يعيشون خوفاً ولا حزناً.

أمّا الشهداء فرؤيتهم وتصوّرهم لهذه المسيرة يختلف عن رؤيتنا وتصوّراتنا البشرية المشوبة بضعف الإنسان، أنها رؤية اكتسبوها من عند الله صافية، بعيدة المدى، ملؤها الثقة والاطمئنان بالله تعالى، رزقهم الله تعالى إيّاها من عنده، فهم يرون المسيرة الربانية على وجه الأرض بهذه الثقة والطمأنينة وبهذه الرؤية الصافية من غير خوف ولا قلق ولا حزن، ومن ثم يستبشرون بإخوانهم الذين لم يلحقوا بهم بعد، والذين يخوضون غمار المعركة ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون، ألاّ يخافوا من شيء يستقبلهم ولا يحزنوا على شيء فاتهم، فلن يتجاوزهم نصر الله الذي وعد الله به الصالحين من عباده، ولن يتخطاهم النصر والتأييد والدعم والإمداد من الله، في وسط هذا الصراع الحافل بالدماء والآلام والمرارات والمعاناة.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1].

١ ـ القصص: ٥ ـ ٦.

فعلامَ الخوف والقلق والارتباك من المستقبل؟ فلن يصيبهم أذى أو تعب في سبيل الله، ولن تقسو عليهم الابتلاءات، إلاّ كتب الله تعالى لهم بكل ذلك عملاً صالحاً وأجراً.

﴿..ذَلكَ بأَنَّهُمْ لاَ يُصيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ في سَبيلِ اللّه وَلاَ يَطَـؤُونَ مَوْطئًا يَغيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ منْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إلاَّ كُتبَ لَهُم به عَمَلٌ صَالحٌ..﴾[1].

فعلامَ الحزن مما يصيبهم من ابتلاءات ومحن وآلام ومما يعانون في سبيل الله؟

إذن: (لا خوف ولا حزن) في هذه المسيرة، وليس على العاملين في هذه المسيرة الكادحة ذات الشوكة حزن أو خوف مما أصابهم أو يصيبهم من ابتلاء. تلك هي الرؤية الربانية الصافية الواثقة، بعيدة المدى للمسيرة، وإن علينا ـ نحن العاملين في سبيل الله على خطى الشهداء ـ أن نتسلح بهذه الرؤية ونبدل رؤيتنا القلقة والمرتبكة الخائفة بالرؤية الربانية الواثقة والمطمئنة بعيدة المدى لنتمكن من حمل عب ء المسؤولية الشاقة ومواصلة السير على طريق الأنبياء والمرسلين.

١ ـ التوبة: ١٢٠.

رحلة الشهادة في السنّة الشريفة

باقة عطرة من الحديث الشريف في قيمة الشهيد

وإليكم هذه الباقة العطرة من الروايات في فضل الشهادة وقيمتها:

* عن الصادق عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «فوق كلّ برّ برّ حتّى يُقتل الرجل في سبيل الله، فليس فوقه برّ، وان فوق كلّ عقوق عقوقاً حتّى يقتل الرجل أحد والديه، فإذا فعل ذلك فليس فوقه عقوق»[1].

* عن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار: الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنين وسبعين زوجة من الحور، ويشفع في سبعين من أقاربه». قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب[2].

* سأل أبو ذر النبيّ صلى الله عليه وآله: أي الأعمال أحبّ إلى الله عزّ وجلّ؟

فقال صلى الله عليه وآله: «إيمان بالله وجهاد في سبيله.

---

١ ـ بحار الأنوار ٧٤: ٦١. الكافي ٢: ٣٤٨. وباختلاف يسير، وسائل الشيعة ١١: ١٠. والتهذيب ٢: ٤١. والخصال ١: ٨ ومستدرك الوسائل ٢: ٢٤٢. والفروع ١: ٣٤٢. بحار الأنوار ٧٤: ٦١. الكافي ٢: ٣٤٨..

٢ ـ سنن الترمذي ٤: ١٨٧ ـ ١٨٨، الحديث ١٦٦٣، وقريب من هذا المضمون في سنن ابن ماجه ٢: ٩٣٥ ـ ٩٣٦ ح ٢٧٩٩.

قال: فقلت: أي الجهاد أفضل؟

قال: من عقر جواده، واهريق دمه في سبيل الله»[١].

* العياشي في تفسيره عن جابر عن أبي جعفر قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: إني راغب نشيط في الجهاد. قال: فجاهد في سبيل الله فإنك إن تقتل كنت حياً عند الله، وترزق، وإن متّ فقد وقع أجرُك على الله وإن رجعت خرجت من الذنوب إلى الله. هذا تفسير ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾[٢].

* عن مسعدة بن صدقة عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة يشفعون إلى الله عزّ وجلّ فيشفعهم: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»[٣].

* وكان الإمام الحسين عليه السلام يقول في مسيرته إلى كربلاء: «إني لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برما»[٤].

* وعن أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال: ما من عبد يموت له عند الله خير، يسره أن يرجع إلى الدنيا، وأن له الدنيا وما فيها إلاّ الشهيد لما يرى من فضل الشهادة فإنّه يسرّه أن يرجع إلى الدنيا فيقتل مرّة أُخرى[٥].

---

١ ـ بحار الأنوار ١٠٠: ١١. عن الخصال ٢: ٣. وبمضمونه بطريق آخر سنن ابن ماجه ٢: ٩٣٤ ح ٢٧٩٤. ومستدرك وسائل الشيعة ٢: ٢٤٤.

٢ ـ مستدرك وسائل الشيعة ٢: ٢٤٤.

٣ ـ مستدرك وسائل الشيعة ٢: ٢٤٥.

٤ ـ تحف العقول: ١٧٦.

٥ ـ صحيح البخاري ٢: ١١٢، كتاب الجهاد. الترغيب والترهيب ٢: ٣١١. سنن الترمذي ٤: ١٧٦. مستدرك الوسائل ٢: ٢٤٣.

* وعن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول: «والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه ما تخلفت عن سريّة تغزو في سبيل الله. والذي نفسي بيده لوددت أن أُقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل ثم أحيا ثم أُقتل»[١].

* وعن جابر بن عبد الله: قال له رجل: أين أنا يا رسول الله إن قتلت؟ قال: في الجنّة. فألقى تمرات كُنّ في يده ثمّ قاتل حتّى قُتل[٢].

* عن ابن إسحاق عن البرّاء قال: جاء رجل من النبيت، قبيل من الأنصار. فقال أشهد أن لا اله إلاّ الله وأنك عبده ورسوله، ثم تقدّم فقاتل حتّى قتل. فقال النبيّ ﷺ: عَمِل هذا يسيراً وأُجِرَ كثيراً[٣].

* وعن انس بن مالك في حوادث معركة بدر قال: «قال رسول الله ﷺ: « قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض. قال: يقول عمير بن الحُمام الأنصاري: يا رسول الله جنّة عرضها السماوات والأرض؟ قال: نعم. قال: بخٍ بخٍ فقال رسول الله: ما يحملك على قول بخٍ بخٍ، قال: لا والله يا رسول الله إلاّ رجاء أن أكون من أهلها. قال: فإنّك من أهلها. فأخرج تمرات من قرنه يأكل منهن. ثمّ قال: لئن أنا حييت حتّى آكل تمراتي هذه أنها لحياة طويلة قال فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتّى قتل»[٤].

---

١ ـ صحيح البخاري ٢: ١١٢. والترغيب والترهيب ٢: ٣١١.

٢ ـ صحيح مسلم بن الحجاج ٦: ٤٣ طبعة دار الفكر.

٣ ـ صحيح مسلم بن الحجاج ٦: ٤٤ طبعة دار الفكر.

٤ ـ المصدر السابق.

* وقال محمّد بن المنكدر: إنه سمع جابراً يقول: جيء بأبي إلى النبيّ ﷺ وقد مُثل به ووضع بين يديه فذهبت أكشف عن وجهه فنهاني قومي. فسمع صوت صائحة فقيل ابنة عمر أو أُخت عمر. فقال: لِمَ تبكي؟ أو لا تبكي مازالت الملائكة تظلله بأجنحتها[١].

* عن مسروق قال سألنا عبد الله[٢] عن هذه الآية ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك. فقال أرواحكم في جوف طير خضر لها قناطيل معلقة بالعرش تسرح في الجنّة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل[٣].

* وكان أمير المؤمنين يقول:

«أيّها الناس إن الموت لا يفوته المقيم، ولا يعجزه الهارب، ليس عن الموت محيد ولا محيص. من لم يقتل مات، إنّ أفضل الموت القتل.

والذي نفس عليّ بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موتة واحدة على الفراش»[٤].

* عن علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام:

قال: «ما من قطرة أحبّ إلى الله عزّ وجلّ من قطرتين، قطرة دم في سبيل الله، وقطرة دمعة في سواد الليل، لا يريد بها عبد إلاّ الله عزّ وجلّ»[٥].

---

١ ـ صحيح البخاري ٢: ١١٥ والترغيب والترهيب ٢: ٣١٣.

٢ ـ الظاهر انّه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

٣ ـ صحيح مسلم بن الحجاج ٦: ٣٨ ـ ٣٩ طبعة دار الفكر. ورواه ابن ماجة في السنن ٢: ٩٣٦ ح ٢٨٠١ وقريب منه عن كعب بن مالك في الترغيب والترهيب ٢: ٣١٦.

٤ ـ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد ١: ٣٠٦.

٥ ـ بحار الأنوار ١٠٠: ١٠ نقلاً عن الخصال ١: ٣١.

* وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: قال: «ما من قطرة أحبّ إلى الله من قطرة دم في سبيل الله، أو قطرة من دموع عين في سواد الليل من خشية الله. وما من قدم أحب إلى الله من خطوة إلى ذي رحم أو خطوة يتمّ بها زحفاً في سبيل الله. وما من جرعة أحبّ إلى الله من جرعة غيظ أو جرعة يردّ بها العبد مصيبة»[١].

* عن موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أبخل الناس من بخل بالسلام، وأجود الناس من جاد بنفسه وماله في سبيل الله»[٢].

* عن الرضا عليه السلام عن آبائه عن علي بن الحسين عليه السلام قال: بينما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يخطب الناس، ويحضهم على الجهاد إذ قام إليه شابٌ فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن فضل الغزاة في سبيل الله فقال علي عليه السلام: كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وآله على ناقته العصباء، ونحن قافلون من غزوة ذات السلاسل، فسألته عمّا سألتني فقال: إن الغزاة إذا همّوا بالغزو كتب الله لهم براءة من النار، فإذا تجهزوا لغزو باهى الله تعالى بهم الملائكة، فإذا ودعهم أهلوهم بكت عليهم الحيطان والبيوت ويخرجون من ذنوبهم كما تخرج الحيّة من سلخها، ويوكل الله عزّ وجلّ بهم بكل رجل منهم أربعين ألف ملك يحفظونه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله. ولا يعمل حسنة إلاّ ضعفت له، ويكتب له كلّ يوم عبادة ألف رجل يعبدون ألف سنة، كلّ سنة ثلاثمائة

---

١ ـ بحار الأنوار ١٠٠: ١٤.

٢ ـ بحار الأنوار ١٠٠: ١٥. نقلاً عن نوادر الراوندي: ٥.

وستون يوماً، واليوم مثل عمر الدنيا، وإذا صاروا بحضرة عدوهم انقطع علم أهل الدنيا عن ثواب الله إيّاهم، وإذا برزوا لعدوهم وأشرعت الأسنة وفوقت السهام وتقدّم الرجل إلى الرجل حفتهم الملائكة بأجنحتهم، ويدعون الله لهم بالنصر، والتثبت فينادي مناد: الجنّة تحت ظلال السيوف، فتكون الطعنة والضربة على الشهيد أهون من شرب الماء البارد في اليوم الصائف، وإذا زل الشهيد عن فرسه بطعنة أو ضربة لم يصل إلى الأرض حتّى يبعث الله عزّ وجلّ زوجته من الحور العين، فتبشره بما أعد الله له من الكرامة، وإذا وصل إلى الأرض تقول له: مرحباً بالروح الطيبة التي أخرجت من البدن الطيب، أبشر فإن لك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويقول الله عزّ وجلّ: أنا خليفته في أهله، ومن أرضاهم فقد أرضاني، ومن أسخطهم فقد أسخطني، ويجعل الله روحه في حواصل طير خضر تسرح في الجنّة حيث تشاء تأكل من ثمارها. وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة بالعرش[1].

* ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: لما أنزل الله سبحانه قوله: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾[2] علمت أن الفتنة لا تنزل بنا، ورسول الله صلى الله عليه وآله بين أظهرنا. فقلت يا رسول الله أو ليس قد قلت لي يوم أُحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحيزت عنّي الشهادة، فشق ذلك عليّ فقلت لي: أبشر فإن الشهادة من ورائك.

---

١ ـ بحار الأنوار ١٠٠: ١٢ ـ ١٣. نقلاً عن صحيفة الإمام الرضا ٢٦ ـ ٢٨. ومستدرك الوسائل ٢: ٢٤٢ ـ ٢٤٣.

٢ ـ العنكبوت: ١ـ٢.

فقـال لي: إن ذلك لكذلك، فكيف صبرك إذن؟ فقلت: يا رسول الله ليس هذا من مواطن الصبر، ولكن من مواطن البشرى والشكر.

يقـول ابن أبي الحديد[١] في شرح هذه الفقرة من نهج البلاغة: وهذا الخبر مـروي عـن رسـول الله ﷺ قـد رواه كثير مـن المحدثيـن عـن علـيّ عليه السلام أنّ رسـول الله ﷺ قـال لـه: «إنّ الله قد كتب عليك جهاد المفتونين كما كتب علـيَّ جهـاد المشـركين» قال: فقلت يا رسول الله ما هذه الفتنة التي كتب عليّ فيها الجهاد؟ قال: قوم يشهدون أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله وهم مخـالفون للسـنّة، فقلـت يـا رسول الله فعلامَ أُقاتلهم وهم يشهدون كما أشـهد؟ قـال: على الأحداث في الدين ومخالفة الأمر. قلت يا رسول الله: إنك كنت وعدتني الشهادة فاسأل الله أن يعجلها لي بين يديك. قال: فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين، أما إني وعدتك الشهادة وستستشهد تضـرب علـى هذه فتخضب هذه، فكيف صبرك إذن؟ قلت يا رسول الله: ليس ذا بموطن صبر. هذا موطن شكر. قال: أجل أصبت[٢].

* ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «فوالله لولا طمعي عند لقاء عدوّي الشهادة وتوطيني نفسي عند ذلك لأحببت ألاّ أبقى مع هؤلاء يوماً واحداً»[٣].

ولمـا ضـرب ابـن ملجـم لعنه الله أمـير المؤمنيـن عليه السلام على رأسه قال عليه السلام: «فزت ورب الكعبة»[٤].

---

١ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ١٥٧. ونهج البلاغة لصبحي الصالح: ٢٢.

٢ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٩: ٢٠٦.

٣ ـ شرح نهج البلاغة ٦: ٩٣.

٤ ـ بحار الأنوار ٤٢: ٢٣٩.

* وقال أمير المؤمنين عليه السلام بعدما ضربه ابن ملجم: «والله ما فجأني من الموت وارد كرهته ولا طالع أنكرته وما كنت إلاّ كقارب ورد وطالب وجد»[١].

* عن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال: سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّ أبواب الجنة تحت ظلال السيوف». فقام رجل رث الهيئة فقال: يا أبا موسى أأنت سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول هذا؟ قال نعم. قال فرجع إلى أصحابه فقال أقرأ عليهم السلام، ثم كسر جفن سيفه، فألقاه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتّى قتل[٢].

* عن أنس بن مالك قال جاء ناس إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقالوا أن ابعث معنا رجالاً يعلمونا القرآن والسنّة، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم القراء، فيهم خالي حرام يقرؤون القرآن ويتدارسون بالليل يتعلمون و كانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء. فبعثهم النبيّ صلى الله عليه وآله إليهم، فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان. فقالوا اللهم بلّغ عنّا نبيّنا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنّا. وأتى رجل حراماً، خال أنس، من خلفه فطعنه برمح حتّى أنفذه فقال حرام: فزت وربّ الكعبة. فقال رسول الله لأصحابه: إن إخوانكم قد قتلوا وإنهم قالوا: اللهم بلّغ عنّا نبيّنا إنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا[٣].

---

١ ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٧: ٦.

٢ ـ صحيح مسلم ٦: ٤٥، طبعة دار الفكر، ورواه الترمذي في السنن ٤: ١٨٦ ح١٦٥٩.

٣ ـ صحيح مسلم ٦: ٤٥ ط دار الفكر، ورواه البخاري وعنهما المنذري في الترغيب والترهيب ٢: ٣١٦.

* وعن ثابت قال: قال أنس: عمي الذي سميّت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدراً فشق عليه، قال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غُيّبت عنه، وإن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليراني الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها. قال فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد فاستقبل سعد بن معاذ. فقال له أنس يا أبا عمرو أين؟ فقال واهاً لريح الجنّة، أجده دون أُحُد... قال فقاتلهم حتّى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية قال: فقالت أُخته: عمتي الرُبيّع بنت النضر: فما عرفت أخي إلاّ ببنانه، ونزلت هذه الآية: ﴿..رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[1].

* وعن أنس قال رسول الله ﷺ: يؤتى بالرجل من أهل الجنّة فيقول الله له يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي ربّ خير منزل فيقول سل وتمنّه. فيقول: وما أسألك وأتمنى؟ أسألك أن تردني إلى الدنيا فأُقتل في سبيلك عشر مرات لما يرى من فضل الشهادة[2].

* وعن رسول الله ﷺ قال: «يغفر للشهيد كلّ ذنب إلاّ الدَين»[3].

* وعن رسول الله ﷺ قال: «إن أوّل قطرة تنزل من دم الشهيد يكفر بها ذنوبه والثانية يكسى من حُلل الإيمان والثالثة يزوّج من حور العين»[4].

* وعن أبي هريرة قال: ذكر الشهيد عند النبيّ ﷺ فقال: لا يجف الأرض من دم الشهيد حتّى تبتدره زوجتاه كأنهما ظئران اظلّتا فصيليهما

---

١ ـ صحيح مسلم ٦: ٤٦ طبعة دار الفكر والترغيب والترهيب ٢: ٣١٢ـ٣١٣.

٢ ـ كنز العمال ٤: ٤٠٦ ح١١١٣٥ ط. دار الفكر، والترغيب والترهيب ٢: ٣١١.

٣ ـ الترغيب والترهيب ٢: ٣١١.

٤ ـ كنز العمال ٤: ٤٠٧ ح١١١٤١.

فـي بـراح من الأرض، وفي يد كلّ واحدة منهما حلّة خير من الدنيا وما فيها[١].

قـال المـنذري في الترغيب في التعليق على الحديث، الظئر هي المرضع، ومعـناه أن زوجتيه مـن الحـور العيـن تبـتدرانه وتحـنوان عليه وتظللانه كما تحنو الناقة المرضع على فصيلها.

* وعـن ابـن عـباس، قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «الشهداء على بارق يهز بباب الجنة، في قبّة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً»[٢].

* وعـن أنـس بـن مالك أن النبيّ ﷺ قال: إذا وقف العباد للحساب جاء قـوم واضـعي سيوفهم على رقابهم تقطر دماً، فازدحموا على باب الجنّة، فقيل من هؤلاء؟ قيل هؤلاء الشهداء كانوا أحياءً مرزوقين[٣].

* وعـن نعـيم بن عمّار أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيّ الشهداء أفضل؟ قـال: الذيـن إن يلقـوا فـي الصـف الأول لا يلفتون وجوههم حتّى يقتلوا أُولئك ينطلقون في الغرف العُلا من الجنّة[٤].

* وعـن أنـس قـال: قـال رسـول الله ﷺ: ألا أُخـبركم عـن الأجود؟ الله الأجـود الأجود، وأنا أجود ولد آدم، وأجودهم من بعدي رجل علم علماً فنشـر علمه، يبعث يوم القيامة أُمة واحدة، ورجل جاد بنفسه لله عزّ وجلّ حتّى يقتل. رواه أبو يعلى والبيهقي[٥].

---

١ ـ الترغيب والترهيب ٢: ٢٢٢.

٢ ـ الترغيب والترهيب ٢: ٢٢٣. وكنز العمال ٤: ٣٩٧ ح١١٠٩٩.

٣ ـ الترغيب والترهيب ٢: ٣١٨، ورواه الطبراني وقال المنذري في الترغيب أسناه حسن.

٤ ـ الترغيب والترهيب ٢: ٣١٨ ـ ٣١٩. وقريب منه في كنزل العمال ٤: ٣٩٨ ح١١١٠٤.

٥ ـ الترغيب والترهيب ٢: ٣٢٠.

* عن رجل من أصحاب النبيّ ﷺ أنّ رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلاّ الشهيد؟ قال: «كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة». رواه النسائي[١].

* عن أنس بن مالك أنّ رجلاً أسود أتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله إني أسود منتن الريح قبيح الوجه لا مال لي. فإن أنا قاتلت هؤلاء حتّى أُقتل فأين أنا؟ قال: في الجنّة. فقاتل حتّى قتل، فأتاه النبيّ ﷺ فقال: «قد بيّض الله وجهك وطيّب ريحك وأكثر مالك»[٢].

* جاء النبيّ ﷺ إلى جسد شهيد نجدي فقعد عند رأسه مستبشراً يضحك ثم أعرض عنه، فقلنا يا رسول الله رأيناك مستبشراً تضحك ثم أعرضت عنه. فقال: أما ما رأيتم من استبشاري فلما رأيت من كرامة روحه على الله عزّ وجلّ، وأمّا إعراضي عنه فإن زوجته من الحور العين الآن عند رأسه. رواه البيهقي بإسناد حسن[٣].

* عن عامر بن سعد عن أبيه: أنّ رجلاً جاء إلى الصلاة والنبيّ ﷺ يصلي. فقال حين انتهى إلى الصف: اللهمَّ آتني أفضل ما تُؤتي عبادك الصالحين. فلما قضى النبيّ ﷺ الصلاة قال: من المتكلّم آنفاً؟ فقال الرجل: أنا يا رسول الله. قال:« إذاً يعفر جوادك وتستشهد». رواه أبو يعلى والبزاز وابن حيان في صحيحه وقال صحيح على شرط مسلم[٤].

---

١ ـ الترغيب والترهيب ٢: ٣٢٣ ـ ٣٢٤.

٢ ـ الترغيب والترهيب ٢: ٣٢٤.

٣ ـ الترغيب والترهيب ٢: ٣٢٤ ـ ٣٢٥.

٤ ـ الترغيب والترهيب ٢: ٣٢٧ـ ٣٢٨.

* عن رسول الله ﷺ قال: «الشهداء عند الله على منابر من ياقوت في ظل عرش الله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه، على كثيب من مسك فيقول لهم الربّ: ألَمْ أوف لكم وأُصدقكم؟ فيقولون: بلى وربّنا»[١].

* عن رسول الله ﷺ قال: أول ما يهراق من دم الشهيد يغفر له ذنبه كلّه إلاّ الدَين[٢].

يعطى الشهيد ثلاثاً: أول دفعة من دمه يغفر له ذنوبه وأول من يمسح التراب عن وجهه زوجته من الحور العين وإذا وجب جنبه في الأرض وقع في الجنّة[٣]. (الدارقطني في الافراد والديلمي والرافعي عن أنس).

---

١ ـ كنز العمال ٤: ٣٩٧ ح ١١١٠٠.

٢ ـ كنز العمال ٤: ٣٩٩ الحديث ١١١٠٩.

٣ ـ كنز العمال ٤: ٤١٠ الحديث ١١١٥٣.

خطاب الاستنصار الحُسيني

الاستنصار الحُسيني

الاستعراض، والدلالات

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

آل عمران: ٥٢

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾

الصف: ١٤

يقول الشيخ جعفر التُستري رحمه الله في الخصائص الحسينية ـ إنّ الحسين عليه السلام (استنصر) الناس سبع مرّات و(استغاث) سبعاً.

ثمّ يقول رحمه الله: «إنّ التلبيات السبعة الواردة في زيارة الحُسين عليه السلام (لبّيك داعي الله) إجابة وإشارة إلى هذه الاستنصارات والاستغاثات»[1].

---

١ ـ الخصائص الحسينية: ١٧٧ ـ ١٧٨.

وفيما يلي نستعرض طائفة من استنصارات الحسين عليه السلام واستغاثته بالمسلمين منذ خروجه من المدينة إلى اليوم العاشر من المحرّم سنة (٦١ هـ) في كربلاء.

ثمّ نقوم بدراسة دلالات الاستنصار الحسيني.

أ. الاستعراض

نماذج من الاستنصار الحُسيني

١. في المدينة

خرج الحسين عليه السلام من المدينة متوجّهاً نحو مكّة ليلة الأحد ليومين بقيا من رجب، ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه الحسن عليه السلام وأهل بيته، وكتب قبل أن يخرج من المدينة، وصيّته التي يستنصر فيها المسلمين، وأودعها عند أخيه محمّد بن الحنفية.

قال فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أوصى به الحسين بن علي عليهما السلام إلى أخيه محمّد بن الحنفية: أنّ الحسين يشهد أن لا اله إلاّ الله، وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله، جاء بالحقّ من عنده، وأنّ الجنّة حقّ، والنار حقّ والساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور... وإنّي لم أخرج أشراً، ولا بطراً، ولا مُفسداً، ولا ظالماً، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي صلى الله عليه وآله أُريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدّي وأبي عليّ بن أبي طالب.

فمن قبلني بقبول الحقّ، فالله أولى بالحقّ، ومَن ردّ علَيَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم، وهو خير الحاكمين.

ثمّ طوى الكتاب وختمه، ودفعه إلى أخيه محمّد[١].

واستنصر الحسين عبد الله بن عمر بن الخطاب

وقال لعبد الله بن عمر لمّا طلب منه البقاء في المدينة: «**يا عبد الله إنّ من هوان الدنيا على الله أنّ رأس يحيى بن زكريا يُهدى إلى بغي من بغايا بني إسرائيل وإنّ رأسي يُهدى إلى بغي من بني أُميّة**»[٢].

ولمّا عرف ابن عمر من الحسين العزم على مغادرة المدينة قال له: يا أبا عبد الله اكشف لي عن الموضع الذي لم يزل رسول الله ﷺ يقبّله منك، فكشف له عن سُرّته فقبّلها ثلاثاً وبكى[٣].

فقال له: **اتّق الله يا أبا عبد الرحمن، ولا تَدَعَنَّ نصرتي**[٤].

٢. في مكّة

وكتب الحسين نسخة واحدة (تعميماً) إلى رؤساء الأخماس بالبصرة، وهم مالك بن مسمع البكري، والأحنف بن القيس، والجارود بن المنذر، ومسعود بن عمرو، وقيس بن الهيثم، وعمرو بن عبيد بن معمّر، وأرسله مع مولى له يُقال له سليمان[٥] وفيه: «**أمّا بعد فإنّ الله اصطفى محمّداً صلى الله عليه وآله على خلقه وأكرمه بنبوّته واختاره لرسالته ثمّ قبضه إليه وقد نصح لعباده وبلّغ ما أُرسل به صلى الله عليه وآله، وكُنّا أهله وأولياؤه**

---

١ ـ مقتل العوالم: ٥٤.

٢ ـ مقتل الحسين: للسيد عبد الرزاق المقرّم: ١٣٩.

٣ ـ أمالي الصدوق: ٩٣ المجلس ٣٠.

٤ ـ اللهوف: ١٧.

٥ ـ هذا في تاريخ الطبري ٦: ٢٠٠، وفي اللهوف: ٢١ «يُكنّى أبا رزين»، وفي مُثير الأحزان: ١٢ «أرسله مع ذراع السدوسي».

وأوصياؤه وورثته، وأحق الناس بمقامه في الناس، فاستأثر علينا قومنا بذلك، فرضينا وكرهنا الفرقة وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنّا أحق بذلك الحقّ المستحق علينا ممّن تولاّه. وقد بعثت رسولي إليكم بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه، فإنّ السُنّة قد أُميتت والبدعة قد أُحييت، فإن تسمعوا قولي أهدكم إلى سبيل الرشاد».

فسلّم الجارود بن المنذر العبدي رسول الحسين إلى ابن زياد فصلبه عشيّة الليلة التي خرج في صبيحتها إلى الكوفة ليسبق الحسين إليها[١]، وكانت ابنة الجارود بحرية زوجة ابن زياد فزعم أن يكون الرسول دسيساً من ابن زياد. وأمّا الأحنف فإنّه كتب إلى الحسين عليه السلام: أمّا بعد فاصبر إنّ وعد الله حقّ ولا يستخفنك الذين لا يُوقنون[٢].

وأمّا يزيد بن مسعود فإنّه جمع بني تميم وبني حنظلة وبني سعد فلمّا حضروا قال: يا بني تميم كيف ترون موضعي فيكم وحسبي منكم؟ قالوا: بخ بخ! أنت والله فقرة الظهر ورأس الفخر حللت في الشرف وسطاً وتقدّمت فيه فرطاً قال: فإنّي قد جمعتكم لأمر أريد أن أُشاوركم فيه وأستعين بكم عليه فقالوا: إنّا والله نمنحك النصيحة، ونجهد لك الرأي، فقل حتّى نسمع.

فقال: إنّ معاوية مات. فأهون به والله هالكاً ومُفقوداً، ألا وإنّه قد انكسر باب الجور والإثم وتضعضعت أركان الظلم. وكان قد أحدث بيعة عقد بها أمراً ظنّ أنّه قد أحكمه، وهيهات الذي أراد. اجتهد والله ففشل، وشاور فخُذل، وقد قام يزيد شارب الخمور ورأس الفجور يدّعي الخلافة على

---

١ ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٠٠.

٢ ـ مُثير الأحزان: ١٣.

المسلمين، ويتآمر عليهم بغير رضاً منهم، مع قصر حلم، وقلّة علم، لا يعرف من الحقّ موطأ قدميه، فأقسم بالله قسماً مبروراً لَجهادَهُ على الدين أفضل من جهاد المشركين، وهذا الحسين بن علي وابن رسول الله صلى الله عليه وآله، ذو الشرف الأصيل، والرأي الأثيل، له فضل لا يوصف، وعلم لا ينزف، وهو أولى بهذا الأمر لسابقته وسنّه وقدمه وقرابته، يعطف على الصغير، ويحسن إلى الكبير، فأكرم به راعي رعية، وإمام قوم وجبت لله به الحجة، وبلغت به الموعظة، فلا تعشو عن نور الحقّ، ولا تسكعوا[1] في وهد الباطل، فقد كان صخر بن قيس انخذل بكم يوم الجمل، فاغسلوها بخروجكم إلى ابن رسول الله ﷺ ونصرته، والله لا يقصّر أحدكم عن نصرته إلاّ أورثه الله تعالى الذلّ في ولده، والقلّة في عشيرته، وها أنا ذا قد لبست للحرب لامتها، وأدرعت لها بدرعها. من لم يُقتل يمُت، ومن يهرب لم يفت، فأحسنوا رحمكم الله ردّ الجواب.

فقالت بنو حنظلة: يا أبا خالد نحن نبل كنانتك، وفرسان عشيرتك، إن رميت بنا أصبت، وإن غزوت بنا فتحت، لا تخوض والله غمرة إلاّ خضناها، ولا تلقى والله شدّة إلاّ لقيناها، ننصرك بأسيافنا ونقيك بأبداننا إذا شئت.

وتكلّمت بنو عامر بن تميم فقالوا: يا أبا خالد نحن بنو أبيك وحلفاؤك، لا نرضى إن غضبت، ولا نبقى إن ظعنت، والأمر إليك فادعنا إذا شئت.

وقالت بنو سعد بن زيد: أبا خالد إنّ أبغض الأشياء إلينا خلافك والخروج عن رأيك، وقد كان صخر بن قيس أمرنا بترك القتال يوم الجمل، فحمدنا ما أمرنا، وبقي عزّنا فينا، فأمهلنا نراجع المشورة ونأتيك برأينا.

---

١ ـ التسكع: التمادي في الباطل.

فقال لهم لئن فعلتموها لا رفع الله السيف عنكم أبداً، ولا زال سيفكم فيكم.

ثمّ كتب إلى الحسين عليه السلام: أمّا بعد فقد وصل إليَّ كتابك، وفهمت ما ندبتني إليه، ودعوتني له من الأخذ بحظي من طاعتك، والفوز بنصيبي من نصرتك، وإنّ الله لم يخل الأرض قط من عامل عليها بخير، ودليل على سبيل نجاة، وأنتم حجة الله على خلقه، ووديعته في أرضه، تفرّعتم من زيتونة أحمدية هو أصلها وأنتم فرعها، فأقدم سعدت بأسعد طائر فقد ذللت لك أعناق بني تميم، وتركتهم أشد تتابعاً في طاعتك من الإبل الظمأ لورود الماء يوم خمسها، وقد ذللت لك رقاب بني سعد، وغسلت درن قلوبها بماء سحاب مزن حين استهلّ برقها فلمع.

فلمّا قرأ الحسين عليه السلام كتابه قال: «آمنك الله من الخوف وأعزّك وأرواك يوم العطش الأكبر».

ولمّا تجهّز ابن مسعود إلى المسير بلغه قتل الحسين عليه السلام فاشتدّ جزعه وكثر أسفه لفوات الأُمنية من السعادة بالشهادة[1].

وكانت «مارية» ابنة سعد أو مُنقذ من الشيعة المخلصين، ودارها مألفاً لهم يتحدّثون فيه فضل أهل البيت عليهم السلام، فقال يزيد بن نبيط وهو من عبد القيس لأولاده وهم عشرة: أيّكم يخرج معي، فانتدب منهم اثنين عبد الله وعبيد الله، وقال له أصحابه في بيت تلك المرأة: نخاف عليك أصحاب ابن زياد، قال: والله لو قد استوت أخفافها بالجدد لهان عليَّ طلب مَن طلبني[2] وصحبه مولاه عامر وسيف بن مالك والأدهم بن أُميّة[3] فوافوا الحسين بمكّة

---

١ ـ مُثير الأحزان: ١٣. واللهوف: ٢١. حياة الإمام الحسين عليه السلام للقرشي ٢: ٣٢٤.

٢ ـ تاريخ الطبري ٦: ١٩٨.

٣ ـ ذخيرة الدارين: ص ٢٢٤.

وضمّوا رحلهم إلى رحله حتّى وردوا كربلاء وقُتلوا معه.

وخطب الحسين عليه السلام في المسلمين عشيّة خروجه من مكّة، وقال:

«خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف وخُير لي مصرع أنا لاقيه.

كأنّي بأوصالي تقطّعها عُسْلان الفلوات بين النواويس وكربلاء، فيملأنّ منّي أكراشاً جَوَفاً، وأجربةً سغباً، لا محيص من يوم خطّ بالقلم.

رضا الله رضانا أهل البيت. نصبر على بلائه، ويوفّينا أُجور الصابرين.

لن تشذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمته، بل هي مجموعة له في حظيرة القدس، تقرّبهم عينه، وينجز بهم وعده. ألا ومَن كان فينا باذلاً مهجته، وموطّناً على لقاء الله نفسه، فلْيَرحل معنا، فإنّي راحل مُصبحاً إن شاء الله»[1].

وفي هذه الخطبة، ينعى الإمام نفسه، ويستنصر المسلمين، ويطلب منهم مُهجهم، ويطلب ممّن يريد أن يخرج معه أن يوطّن نفسه للقاء الله، ويعلن للمسلمين أنّه يخرج غداً إلى العراق، ومن أراد أن يلتحق به فليعدّ نفسه للخروج منذ الليلة.

وهي دعوة غريبة من نوعها في تاريخ الثائرين والخارجين. فلا يُمنّيهم الحسين عليه السلام بمُلك ولا سلطان، وإنّما يدعوهم إلى القتل.

وهذه الدعوة بهذه الخصوصية ممّا تتميز بها ثورة الحسين عليه السلام في التاريخ عن غيرها من الثورات والحركات.

إنّ الحسين عليه السلام يطلب من الناس مهجهم، ويطلب منهم أن ينتزعوا

---

١ ـ اللهوف: ٣٣ وابن نما: ٢٠. والمقرم: ١٧٣.

أنفسهم من الدنيا ويوطّنوا أنفسهم للقاء الله.

والحسين عليه السلام يقصد ما يقول.

ولو خرج يومئذٍ مع الحسين عليه السلام ناس يريدون الدنيا، وليس وجه الله، ويطلبون المال والسلطان في خروجهم مع الحسين عليه السلام لأخلّوا بهذه الحركة، وأفقدوها قيمتها وتأثيرها العميق الخالد في التاريخ.

وبهذه الطريقة يعلن الحسين عليه السلام من بدء خروجه عن رفضه لأُولئك الذين يريدون أن يلتحقوا به للمال والسلطان والدنيا.

هذه الخطبة عجيبة في لهجتها، عجيبة في مضامينها ودعوتها، وتتضمن الاستنصار، والاستماتة، والترغيب والتزهيد، والدعوة، والرفض.

٣. في الحاجر:

ولمّا بلغ الحاجر[١] من بطن الرمة، كتب إلى أهل الكوفة جواب كتاب مسلم بن عقيل، وبعثه مع قيس بن مسهر الصيداوي[٢] وفيه: «**أمّا بعد فقد ورد عليَّ كتاب مسلم بن عقيل يخبرني باجتماعكم على نصرنا والطلب بحقّنا، فسألت الله أن يحسن لنا الصنع، ويثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكّة يوم الثلاثاء لثمان مضين من ذي الحجّة، فإذا قدم**

---

١ ـ في معجم البلدان ٢: ٢١٤ الحاجر: ما يمسك الماء من شفة الوادي. وفيه ١: ٤٤ بطن الرمة: واد معروف بعالية نجد، وفي مراصد الاطلاع ٢: ٦٣٤ منزل لأهل البصرة إذا أرادوا المدينة، وفيه تجتمع أهل الكوفة والبصرة.

٢ ـ في روضة الواعظين لعلي بن محمّد الفتّال النيسابوري: ١٥٢: يُقال بعثه مع عبد الله بن يقطر ويجوز انّه أرسل إليهم كتابين أحدهما مع عبد الله بن يقطر والآخر مع قيس بن مسهر وفي الاصابة ٣: ٤٩٢ بعد أن ذكر نسب قيس قال: وكان مع الحسين لمّا قتل بالطف وهو اشتباه، فإنّ ابن زياد قتله بالكوفة.

عليكم رسولي فانكمشوا في أمركم، فإنّي قادم في أيامي هذه».

ولمّا وصل قيس إلى القادسية أخذه الحصين بن نمير التميمي ـ وكان صاحب شرطة ابن زياد ـ أمره أن ينظم الخيل ما بين القادسية إلى خفان[١] ومنها إلى القطقطانة فأراد أن يفتّشه فأخرج قيس الكتاب وخرّقه.

ولمّا مثل بين يدي ابن زياد قال: لماذا خرّقت الكتاب؟ قال: لئلاً تطّلع عليه، فأصرّ ابن زياد على الإخبار بما فيه فأبى قيس، فقال: إن لم تخبرني فاصعد المنبر وسبّ ا لحسين وأباه وأخاه، وإلاّ قطّعتك إرباً إرباً.

فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على النبيّ وآله، وأكثر من الترحّم على أمير المؤمنين والحسن والحسين، ولعن عبيد الله بن زياد وأباه وبني أُميّة.

ثمّ قال: أيّها الناس أنا رسول الحسين إليكم، وقد خلّفته في موضع كذا فأجيبوه. فأمر ابن زياد أن يرمى من أعلى القصر فتكسّرت عظامه ومات[٢].

ويقال أمر ابن زياد أن يرمى مكتوفاً فرُميَ من أعلى القصر[٣] وكان به رمق، فقام إليه عبدالملك بن عمير اللخمي فذبحه فعيب عليه قال: أردت أن أريحه[٤].

---

١ ـ في معجم البلدان ٢: ٣٧٩ خفان: بفتح أوله وتشديد ثانيه، موضع قرب الكوفة يسلكه الحاج احيانا. وفيه ٤: ٣٧٤ القطقطانة: بضم القاف ثمّ السكون، موضع قرب الكوفة من جهة البرية بالطف تبعد عن الرهيمة نيّفاً وعشرين ميلاً.

٢ ـ تاريخ الطبري ٦: ٣٢٤، والبداية ٨: ١٦٨، والارشاد للمفيد، وروضة الواعظين: ١٥٢، وأعلام الورى: ١٣٦.

٣ ـ الارشاد للمفيد ٢: ٧٢.

٤ ـ روضة الواعظين: ١٧٧، والارشاد ٢: ٧١، وفي ميزان الاعتدال ٢: ١٥١.

٤. في زرود:

ونـزل الحسـين في زرود، ونزل بالقرب منه زهير بن القين البجلي، وكان غير مُشايع له ويكره النزول معه، ولكن الماء جمعهم في المكان.

روى السدّي عن رجل من بني فزارة كان يُرافق زهيراً رضي الله عنه في السفر الذي التحق فيه بالحسين:

قال كُنّا مع زهير بن القين البجلي رضي الله عنه حين أقبلنا مكّة نساير الحسين عليه السلام، فلم يكن شيء أبغض إلينا من أن نسايره في منزله، فإذا سار الحسين عليه السلام تخلّف زهير بن القين، وإذا نزل الحسين تقدّم زهير، حتّى نزلنا يومئذ في منزل لم نجد بداً من أن نُنازله فيه، فنزل الحسين عليه السلام في جانب ونزلنا في جانب، فبينا نحن جلوس نتغذى من طعام لنا، إذ أقبل رسول الحسين عليه السلام حتّى سلّم ثمّ دخل، فقال: يا زهير بن القين إنّ أبا عبد الله الحسين بن علي عليه السلام بعثني إليك لتأتيه قال: فطرح كلّ إنسان ما في يده حتّى كأنّنا على رؤوسنا الطير.

قال أبو مخنف: فحدّثتني دلهم بنت عمرو امرأة زهير بن القين قالت: فقلت له: أيبعث إليك ابن رسول الله ثم لا تأتيه، سبحان الله، لو أتيته فسمعت من كلامه ثمّ انصرفت. قالت: فأتاه زهير بن القين، فما لبث أن جاء مستبشراً قد أسفر وجهه. قالت: فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه فقدم (فقوّض ظ) وحمل إلى الحسين عليه السلام ثمّ قال لامرأته: أنتِ طالق الحقي بأهلكِ فإنّي لا أُحبّ أن يصيبك بسببي إلاّ خير[1].

وفي رواية الملهوف قال: قد عزمت على صحبة الحسين عليه السلام لأفديه

---

١ ـ تاريخ الطبري ٧: ٢٩٠.

بنفسي وأقيه بروحي. ثمّ أعطاها مالها وسلّمها إلى بعض بني عمّها ليوصلها إلى أهلها، فقامت إليه وبكت وودّعته وقالت: كان الله عوناً ومُعيناً، خار الله لك، أسألك أن تذكرني في القيامة عند جدّ الحسين عليه السلام[١].

قال الطبري: ثمّ قال لأصحابه: مَن أحبّ منكم أن يتبعني وإلاّ فإنّه آخر العهد، إنّي سأُحدّثكم حديثاً. غزونا بلنجر[٢] ففتح الله علينا وأصبنا غنائم، فقال لنا سلمان الباهلي ـ وفي روايات أُخر سلمان الفارسي رضي الله عنه ـ أفرحتم بما فتح الله عليكم وأصبتم من المغانم؟ فقلنا: نعم. فقال: إذا أدركتم سيد شباب آل محمّد صلى الله عليه وآله فكونوا أشد فرحاً بقتالكم معهم بما أصبتم من الغنائم. فأمّا أنا فإنّي أستودعكم الله. قال: ثمّ والله ما زال في أوّل القوم حتّى قتل (رضوان الله عليه)[٣].

---

١ ـ الملهوف: ٦٤.

٢ ـ بلنجر: من بلاد الترك، غزاهم المسلمون وأصحاب النبي صلى الله عليه وآله، وكان في سنة ٢٢هـ. وفي القمقام: بلنجر بفتح الموحّدة واللام وسكون النون وجيم مفتوحة وراء، مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب، قالوا: فتحها عبد الرحمن بن ربيعة وقال البلاذري سلمان (أي فتحها سلمان) بن ربيعة الباهلي وتجاوزها ولقيَه خاقان في جيشه خلف بلنجر فاستشهد هو وأصحابه وكانوا أربعة آلاف وكان في أوّل الأمر قد خافهم الترك، وقالوا إنّ هؤلاء ملائكة لا يعمل فيهم السلاح فاتفق أنّ تركياً اختفى في غيضه (يعني بيشه) ورشق مسلماً بسهم فقتله، فنادى في قومه، إنّ هؤلاء يموتون كما تموتون فلِمَ تخافونهم فأجروا عليهم وأوقعوهم حتى استشهد عبد الرحمن بن ربيعة، وأخذ الراية أخوه ولم يزل يقاتل حتى أمكنه دفن أخيه بنواحي بلنجر ورجع ببقية المسلمين على طريق جيلان وقتل سلمان بن ربيعة وأصحابه، وكانوا ينظرون في كلّ ليلة نوراً على مصارعهم فأخذوا سلمان بن ربيعة وجعلوه في تابوت فهم يستسقون به إذا قحطوا «منه». واحتمل أن الكلمة (بالبحر) وليس (بلنجر) وقد اخطأ النّساخ في كتابة الكلمة. وقد بدأ المسلمون في ذلك التاريخ بغزوات البحر.

٣ ـ نفس المهموم للشيخ عباس القمّي: ١٨٠ ـ ١٨٢.

٥. في قصر بني مقاتل:

وفي قصر بني مقاتل رأى فسطاطاً مضروباً ورمحاً مركوزاً وفرساً واقفاً فسأل عنه فقيل هو لعبيد الله بن الحر الجعفي، وبعث إليه الحجاج بن مسروق الجعفي فسأله ابن الحر عمّا وراءه؟

قال: هدية إليك وكرامة، إن قبلتها. هذا حسين يدعوك إلى نصرته، فإن قاتلت بين يديه أُجرت وإن قتلت استشهدت فقال ابن الحرّ: والله ما خرجت من الكوفة إلاّ لكثرة ما رأيته خارجاً لمحاربته وخذلان شيعته فعلمت أنه مقتول ولا أقدر على نصره ولست أُحبّ أن يراني وأراه[١].

فأعاد الحجاج كلامه على الحسين فقام صلوات الله عليه ومشى إليه في جماعة من أهل بيته وصحبه فدخل عليه الفسطاط فوسّع له عن صدر المجلس. يقول ابن الحرّ: ما رأيت أحداً قط أحسن من الحسين ولا أملأ للعين منه، ولا رققت على أحد قط رقّتي عليه حين رأيته يمشي والصبيان حوله، ونظرت إلى لحيته فرأيتها كأنّها جناح غراب، فقلت له أسواد أم خضاب؟ قال: يا ابن الحرّ عجّل عليّ الشيب، فعرفت إنّه خضاب[٢].

ولمّا استقر المجلس بأبي عبد الله حمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: «يا بن الحرّ إنّ أهل مصركم كتبوا إليّ أنّهم مجتمعون على نصرتي، وسألوني القدوم عليهم، وليس الأمر على ما زعموا[٣]، وإنّ عليك ذنوباً كثيرة، فهل لك من توبة تمحي به ذنوبك؟

---

١ ـ الأخبار الطوال: ٢٤٩.

٢ ـ خزانة الأدب للبغدادي ١: ٢٩٨ ط. بولاق. وأنساب الأشراف ٥: ٢٩١.

٣ ـ نفس المهموم: ١٠٤.

قال: وما هي يا ابن رسول الله؟

فقال: «تنصر ابن بنت نبيّك وتقاتل معه»[1].

فقال ابن الحرّ: والله إنّي لأعلم أنّ من شايعك كان السعيد في الآخرة ولكن ما عسى أن أُغني عنك ولم أخلف لك بالكوفة ناصراً؟ فأنشدك الله أن تحملني على هذه الخطة فإنّ نفسي لا تسمح بالموت، ولكن فرسي هذه «الملحقة» والله ما طلبت عليها شيئاً قط إلاّ لحقته، ولا طلبني أحد وأنا عليها إلاّ سبقته، فخذها فهي لك.

قال الحسين: «أمّا إذا رغبت بنفسك عنّا فلا حاجة لنا في فرسك[2] ولا فيك، ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾[3]. وإنّي أنصحك كما نصحتني، إن استطعت أن لا تسمع صراخنا ولا تشهد وقعتنا فافعل، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ولا ينصرنا إلاّ أكبّه الله في نار جهنم»[4].

وندم ابن الحرّ على ما فاته من نصرة الحسين عليه السلام فأنشأ:

أيا لَكَ حسرةً ما دمت حيّاً ... تَرَدَّد بين صدري والتراقي

غداة يقولُ لي بالقصر قولاً ... أتتركنا وتعزم بالفراق

حسينٌ حين يطلب بذل نصري ... على أهل العداوة والشقاق

فلو فَلَقَ التلهّفُ قلبَ حرٍ ... لهمَّ اليومَ قلبي بانفلاق

ولو واسيتُه يوماً بنفسي ... لنلْتُ كرامةَ يوم التلاق

---

١ ـ أسرار الشهادة: ٢٣٣.

٢ ـ الأخبار الطوال: ٢٤٩.

٣ ـ أمالي الصدوق: ٩٤ المجلس ٣٠.

٤ ـ خزانة الأدب ١: ٢٩٨.

مـع ابـن محمّـد تُفديـه نفسـي فـودع ثـمّ أسـرع بـانطلاق
لقـد فـاز الأُلـى نصـروا حسـيناً وخـاب الآخـرون ذووا الـنفاق[١]

وفي هذا الموضع اجتمع به عمرو بن قيس المشرقي وابن عمّه فقال لهما الحسين: «جئتما لنصرتي، قالا له إنّا كثيروا العيال، وفي أيدينا بضائع للناس، ولم ندرِ ماذا يكون، ونكره أن نضيّع الأمانة.

فقال لهما عليه السلام: انطلقا فلا تسمعا لي واعية ولا تَرَيا لي سواداً، فإنّه من سمع واعيتنا أو رأى سوادنا فلم يجبنا، كان حقّاً على الله عزّ وجلّ أن يكبّه على منخريه في النار»[٢].

٦. في منزل شراف:

وفي (شراف) طلع عليهم الحرّ الرياحي بألف فارس، بعثه ابن زياد ليحبس الحسين عليه السلام عن الرجوع إلى المدينة أينما يجده، أو يقدم به إلى الكوفة.

فسقاهمُ الحسين عليه السلام ماءً وكانوا عطاشى، ثمّ خطب فيهم الحسين عليه السلام وقال:

«إنّها معذرة إلى الله عزّ وجلّ وإليكم، وإنّي لم آتكم حتّى أتتني كتبكم، وقدمت بها علَيَّ رُسُلكم أن أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام، ولعلّ الله أن يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم فأعطوني ما أطمئن به من عهودكم ومواثيقكم، وإن كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم»[٣].

---

١ ـ مقتل الخوارزمي ١: ٢٢٨ وذكره الدينوري في الأخبار الطوال: ٢٥٨.

٢ ـ مقتل الحسين عليه السلام للسيد المقرّم: ٢٠٢ ـ ٢٠٥.

٣ ـ مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ١٩٥.

٧. في منزل البيضة:

وفي منزل البيضة خطب الحسين عليه السلام في أصحاب الحرّ فقال:

أيّها الناس إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَن رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرام الله، ناكثاً عهده، مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله.

ألا وأنّ هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء وأحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيّر وقد أتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم إنّكم لا تسلّموني ولا تخذلوني، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن عليّ وأمّي فاطمة بنت رسول الله. نفسي مع أنفسكم وأهلي مع أهليكم، ولكم فيَّ أُسوة، وإن لم تفعلوا، ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلَعمري ما هي لكم بنكر. لقد فعلتموها، بأبي وأخي وابن عمّي مسلم. فالمغرور من اغترّ بكم. فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

٨. في كربلاء:

وفي كربلاء أقبل حبيب بن مظاهر الأسدي إلى الحسين بن علي عليهما السلام فقال: هاهنا حي من بني أسد بالقرب منا أتأذن لي أن أسير إليهم أدعوهم

---

١ ـ الطبري ٦: ٢٢٩. ومقتل الحسين: للمقرّم: ١٩٨.

إلى نصرتك؟ فعسى الله أن يدفع بهم عنك بعض ما تكره، فقال له الحسين عليه السلام: قد أذنت لك يا حبيب. قال: فخرج حبيب بن مظاهر في جوف الليل متنكّراً حتّى صار إلى أُولئك القوم، فحيّاهم وحيّوه وعرفوا انه من بني أسد؛ فقالوا: ما حاجتك يا ابن عمّ!؟ فقال: حاجتي إليكم قد أتيتكم بخير ما أتى به وافد إلى قوم، أتيتكم أدعوكم إلى نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّه في عصابة من المؤمنين، الرجل منهم خير من ألف رجل، لن يخذلوه ولن يسلموه وفيهم عين نظرت، وهذا عمر[1] بن سعد قد أحاط به في اثنين وعشرين ألف، وأنتم قومي وعشيرتي، وقد جئتكم بهذه النصيحة فأطيعوني اليوم في نصرته تنالون غداً شرفاً في الآخرة، فإنّي أُقسم بالله أنّه لا يُقتل منكم رجل مع ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله صابراً محتسباً إلاّ كان رفيق محمّد صلى الله عليه وآله في أعلى علّيين. قال: فوثب رجل من بني أسد يُقال له بشر بن عبيد الله فقال: والله أنا أوّل من أجاب إلى هذه الدعوة؛ ثمّ أنشأ يقول:

قد علِم القوم إذا تواكلوا وأحجم الفُرسان أو تناصلوا

إنّي شجاع بطل مقاتل كأنّني ليث عرين باسل

قال: ثمّ تبادر رجال الحيّ مع حبيب بن مظاهر الأسدي.

قال: وخرج رجل من الحيّ في ذلك الوقت حتّى صار إلى عمر[2] بن سعد في جوف الليل فخبره بذلك، فأرسل عمر رجلاً من أصحابه يُقال له الأرزق بن حرب الصيداوي، فضمّ إليه أربعة آلاف فارس، ووجّه به في الليل إلى

---

١ ـ في النسخ: عمرو.

٢ ـ في النسخ: عمرو.

حي بني أسد مع الرجل الذي جاء بالخبر.

قال: فبينما القوم في جوف الليل قد أقبلوا يريدون معسكر الحسين إذ استقبلهم جُند عمر بن سعد على شاطئ الفرات، قال: فتناوش القوم بعضهم [بعضاً] واقتتلوا قتالاً شديداً؛ صاح به حبيب بن مظاهر: ويلك يا أزرق ما لك ولنا دعنا؟ قال: واقتتلوا قتالاً شديداً.

فلما رأى القوم ذلك انهزموا راجعين إلى منازلهم، فرجع حبيب بن مظاهر إلى الحسين عليه السلام فأعلمه بذلك الخبر فقال: لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم[١].

وفي كربلاء دعا الحسين عليه السلام بدواة وبيضاء، وكتب إلى أشراف الكوفة ممّن كان يظن أنّه على رأيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي إلى سليمان بن صرد الخزاعي[٢].

أما بعد فقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال في حياته من رأى سلطاناً جائراً إلى آخر ما ذكره في خطبة الأصحاب».

يوم عاشوراء:

وللحسين عليه السلام يوم عاشوراء استنصاران واستغاثة:

وفيما يلي تفصيل كل من الاستنصارين والاستغاثة الحسينية في يوم عاشوراء.

---

١ ـ كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي ٥: ١٥٩ ـ ١٦٢، ط ١.

٢ ـ نفَس المهموم: ٢٠٧، البحار ٤٤: ٣٨٢.

٩. الاستنصار الأول يوم عاشوراء:

دعا الحسين عليه السلام براحلته يوم عاشوراء فركبها ونادى بصوت عال يسمعه جلّهم:

«أيّها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتّى أعظكم بما هو حقّ لكم عليّ، وحتّى اعتذر إليكم من مقدمي عليكم، فإن قبلتم عذري وصدّقتم قولي وأعطيتموني النصف من أنفسكم، كنتم بذلك أسعد، ولم يكن لكم عليّ سبيل، وإن لم تقبلوا منّي العذر ولم تعطوا النصف من أنفسكم. ﴿فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ﴾ ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾».

فلمّا سمعن النساء هذا منه صحن وبكين وارتفعت أصواتهم، فأرسل إليهنّ أخاه العباس وابنه علي الأكبر وقال لهما: «سكّتاهن فلَعمري لَيكثر بكاؤهن».

ولمّا سكتن حمد الله وأثنى عليه وصلّى على محمّد وعلى الملائكة والأنبياء، وقال في ذلك ما لا يُحصى ذكره ولم يسمع متكلّم قبله ولا بعده أبلغ منه في منطقه[1].

ثمّ قال: «الحمد لله الذي خلق الدنيا فجعلها دار فناء وزوال، متصرّفة بأهلها حالاً بعد حال، فالمغرور من غرّته والشقي من فتنته، فلا تغرّنكم هذه الدنيا فإنّها تقطع رجاء من ركن إليها، وتخيّب طمع من طمع فيها، وأراكم قد اجتمعتم على أمرٍ قد أسخطتم الله فيه عليكم، وأعرض بوجهه الكريم عنكم، وأحلّ بكم نقمته، وجنّبكم رحمته، فنعم الرب ربنا وبئس

---

١ ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٤٢.

العبيد أنتم، أقررتم بالطاعة وآمنتم بالرسول محمّد صلى الله عليه وآله، ثمّ إنّكم زحفتم إلى ذريّته وعترته تريدون قتلهم، وقد استحوذ عليكم الشيطان فأنساكم ذكر لله العظيم، فتبّاً لكم و لما تريدون إنّا لله وإنّا إليه راجعون هؤلاء قوم كفروا بعد إيمانهم فبُعداً للقوم الظالمين»[١].

«أيّها الناس، انسبوني من أنا ثمّ ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيّكم وابن وصيّه وابن عمّه وأوّل المؤمنين بالله والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربّه؟ أوَ ليس حمزة سيد الشهداء عم أبي، أوَ ليس جعفر الطيّار عمي، أوَ لم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيّدا شباب أهل الجنّة؟ فإن صدّقتموني بما أقول، وهو الحق فوالله ما تعمدت الكذب منذ علمت أنّ الله يمقت عليه أهله، ويضرّ به من اختلقه وإن كذّبتموني فإنّ فيكم مَن إن سألتموه عن ذلك أخبركم، سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبرونكم إنّهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي، أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي».

فقال الشمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما تقول.

فقال له حبيب بن مظاهر: والله إنّي أراك تعبد الله على سبعين حرفاً، وأنا أشهد أنّك صادق، ما تدري ما يقول، قد طبع الله على قلبك.

ثمّ قال الحسين عليه السلام: «فإن كنتم في شكّ من هذا القول أفتشكّون أنّي ابن بنت نبيكم؟ فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم

---

١ ـ بحار الانوار ٤٥: ٥. العوالم (الإمام الحسين عليه السلام): ٢٤٩.

ولا في غيركم، ويحكم! أتطلبوني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته، أو بقصاص جراحة؟ فأخذوا لا يكلمونه.

فنادى: يا شبث بن ربعي، ويا حجار بن أبجر، ويا قيس بن الأشعث، ويا زيد بن الحارث، ألم تكتبوا إليَّ أن أقدم قد أينع الثمار واخضرّ الجناب وإنما تقدم على جُند لك مجندة.

فقالوا: لم نفعل.

قال: سبحان الله، بلى والله لقد فعلتم. ثمّ قال: «أيّها الناس، إذا كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض، فقال له قيس بن الأشعث: أو لا تنزل على حكم بني عمك؟ فإنّهم لن يروك إلاّ ما تحبّ، ولن يصل إليك منهم مكروه.

فقال الحسين عليه السلام: أنت أخو أخيك أتريد أن يطلبك بنو هاشم أكثر من دم مسلم بن عقيل؟ لا والله لا أُعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا أفرّ فرار العبيد[1]، عباد الله ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ أعوذ بربّي وربّكم من كلّ متكبر لا يؤمن بيوم الحساب[2].

---

١ ـ بالفاء الموحدة فيما رواه ابن نما في مثير الأحزان: ٢٦، وهو أصح ممّا يمضي على الألسن، ويوجد في بعض المقاتل بالقاف من الإقرار لأنّه على هذا تكون الجملة الثانية غير مفيدة إلاّ ما أفادته التي قبلها، بخلاف على قراءة «الفرار» فإنّ الجملة الثانية تفيد أنّه لا يفر من الشدة والقتل كما يصنعه العبيد، وهو معنى غير ما تؤدي إليه الجملة التي قبلها، على أنّه يوجد في كلام أمير المؤمنين ما يشهد له، ففي تاريخ ابن الأثير ٣: ١٤٨، وشرح نهج البلاغة ١: ١٠٤ المطبعة الأميرية: أنّ أمير المؤمنين قال في مصقلة بن هبيرة لمّا فرّ الى معاوية: ماله فعل فعل السيّد وفرّ فرار العبد وخان خيانة الفاجر؟

٢ ـ مقتل الحسين للسيّد عبد الرزاق المقرّم: ٢٥٤ ـ ٢٥٧.

١٠. الاستنصار الثاني في يوم عاشوراء:

ثـمّ إنّ الحسين عليه السلام ركب فرسه وأخذ مصحفاً ونشره على رأسه، ووقف بـأزاء القوم وقال: «يا قوم، إنّ بيني وبينكم كتاب الله وسنّة جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله»[١].

ثـمّ استشـهدهم عـن نفسـه المقدسة وما عليه من سيف النبيّ صلى الله عليه وآله ودرعه وعمامته فأجابوه بالتصديق فسألهم عمّا أقدمهم على قتله قالوا: طاعة للأمير عبيد الله بن زياد، فقال عليه السلام:

«تباً لكم أيّها الجماعة وترحاً! أحين استصرختمونا والهين فأصرخناكم موجفيـن، سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم وحششتم علينا ناراً اقتدحناها علـى عدوّنـا وعدوّكـم؟ فأصبحتم ألباً لأعدائكم على أوليائكم بغير عدل أفشـوه فـيكم، ولا أمـل أصـبح لكم فيهم فهلا، لكم الويلات، تركتمونا، والسـيف مشـيم، والجـأش طاعن، والرأي لما يستحصف، ولكن أسرعتم كطـيرة[٢] الدبـا، وتداعيـتم عليها، كتهافت الفراش، ثم نفضتموها، فسحقاً لكـم يـا عبـيد الأمـة وشـذّاذ الأحزاب، ونبذة الكتاب، ومحرّفي الكلم، وعصـبة الإثـم، ونفـثة الشيطان ومطفئي السُنن! ويحكم! أهؤلاء تعضدون وعـنّا تـتخاذلون؟ أجـل والله غـدر فـيكم قديـم وشجت عليه أُصولكم، وتأزرت فروعكم فكنتم أخبث ثمر، شجىً للناظر وأكلة للغاصب».

«ألا وإنّ الدعـي ابـن الدعـي قـد ركـز بين اثنتين بين السلة والذلة، وهـيهات مـنا الذلـة يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت

---

١ ـ تذكرة الخواص: ١٤٣.

٢ ـ بالكسر فالفتح «تاج العروس».

وطهـرت وأُنـوف حمية ونفوس أبيّة من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام، ألا وإنّي زاحف بهذه الأُسرة على قلة العدد وخذلان الناصر»[١].

١١. الاستغاثة الأخيرة للحسين عليه السلام يوم عاشوراء:

ولما نظر الحسين عليه السلام كثرة من قتل من أصحابه، قبض على شيبته المقدسة وقال: «اشتد غضب الله على اليهود إذ جعلوا له ولداً، واشتد غضبه على النصارى إذ جعلوه ثالث ثلاثة، واشتد غضبه على المجوس إذ عبدوا الشمس والقمر دونه، واشتد غضبه على قوم اتفقت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيّهم، أما والله لا أُجيبهم إلى شيء يريدون حتّى ألقى الله وأنا مخضب بدمي» ثم صاح:« أما من مغيث يغيثنا أما من ذابّ يذبّ عن حرم رسول الله»[٢] فبكت النساء وعلا صراخهن.

وسمع الأنصاريّان سعد بن الحارث وأخوه أبو الحتوف استنصار الحسين عليه السلام واستغاثته وبكاء عياله وكانا مع ابن سعد فمالا بسيفهما على أعداء الحسين وقاتلا حتّى قُتلا[٣].

قال السيّد رحمه الله: ولما رأى الإمام الحسين عليه السلام مصارع فتيانه وأحبّته عزم على لقاء القوم بمهجته ونادى: هل من ذاب يذبّ عن حرم رسول الله، هل من موحّد يخاف الله فينا، هل مغيث يرجو الله بإغاثتنا، هل من مُعين يرجو ما عند الله في إعانتنا. فارتفعت أصوات النساء بالعويل، فتقدم إلى باب الخيمة وقال لزينب: ناوليني ولدي الصغير حتّى أُودعه، فأخذه وأومأ إليه

---

١ ـ نقلناها من اللهوف: ٥٤، ورواها ابن العساكر في تاريخ الشام ٤: ٣٣٣، والخوارزمي في المقتل ٢: ٦.

٢ ـ اللهوف: ٥٧.

٣ ـ الحدايق الوردية (مخطوط).

ليقبّله، فرماه حرملة ابن كاهل الأسدي بسهم فوقع في نحره فذبحه[1].

فقال عليه السلام لزينب: خُذيه، ثم تلقّى الدم بكفيه فلمّا امتلأت رمى بالدم نحو السماء ثم قال: هوّن عليَّ ما نزل بي إنّه بعين الله[2].

وحكى السبط في التذكرة عن هشام بن محمّد الكعبي قال: لما رآهم الحسين عليه السلام مصرّين على قتله، أخذ المصحف ونشره وجعله على رأسه ونادى: «بيني وبينكم كتاب الله وجدّي محمّد رسول الله، يا قوم بِمَ تستحلّون دمي؟» فَسَاق الكلام[3] إلى أن قال: فالتفت الحسين عليه السلام فإذا بطفل له يبكي عطشاً، فأخذه على يده وقال: يا قوم إن لم ترحموني فارحموا هذا الطفل، فرماه رجل منهم بسهم فذبحه، فجعل الحسين عليه السلام يبكي ويقول: «اللهم احكم بيننا وبين قوم دعونا لينصرونا فقتلونا». فنودي من الهواء: دعه يا حسين فإنّ له مرضعاً في الجنّة.

ثمّ قال: ورماه حصين بن تميم بسهم فوقع في شفتيه، فجعل الدم يسيل من شفتيه وهو يبكي ويقول: «اللهم أشكو إليك ما يفعل بي وبإخوتي وولدي وأهلي ـ الخ»[4].

---

١ ـ الملهوف: ١٠٢.

٢ ـ الملهوف: ١٠٣.

٣ ـ هذا كلامه عليه السلام الذي ساقه: ألست ابن بنت نبيكم، ألم يبلغكم قول جدي فيَّ وفي أخي «هذان سيّدا شباب أهل الجنة» إن لم تصدّقوني فاسألوا جابراً وزيد بن أرقم وأبا سعيد الخدري، أليس جعفر الطيّار عمي؟ فناداه شمر: الساعة ترد الهاوية. فقال الحسين عليه السلام: الله أكبر أخبرني جدي رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: رأيت كأن كلباً ولغ في دماء أهل بيتي وما أخالك إلاّ إيّاه. فقال شمر: أنا أعبد الله على حرف إن كنت أدري ما تقول. فالتفت الحسين فإذا بطفل له ـ الخ. تذكرة الخواص: ١٤٣.

٤ ـ تذكرة الخواص: ١٤٣.

١٢. استنصار زهيرﷺ يوم عاشوراء:

وخرج إليهم زهير بن القين على فرس ذنوب، وهو شاك في السلاح فقال: «يا أهل الكوفة نذار لكم من عذاب الله نذار، إنّ حقّاً على المسلم نصيحة أخيه المسلم، ونحن حتّى الآن أُخوة على دين واحد ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، وأنتم للنصيحة منّا أهل، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة وكُنّا أُمّة وأنتم أُمّة. إن الله ابتلانا وإيّاكم بذرية نبيه محمّد صلى الله عليه وآله لينظر ما نحن وأنتم عاملون، إنّا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية يزيد وعبيد الله بن زياد، فإنّكم لا تدركون منهما إلاّ سوء، عمر سلطانهما، ليسملان أعينكم ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثّلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقرّاءكم أمثال حجر بن عدي وأصحابه وهانيء بن عروة وأشباهه». فسبّوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد ودعوا له وقالوا: لا نبرح حتّى نقتل صاحبك ومن معه، أو نبعث به وبأصحابه إلى عبيد الله بن زياد سلماً.

فقال زهير: عباد الله إنّ ولد فاطمة أحق بالود والنصر من ابن سمية، فإن لم تنصروهم فأُعيذكم بالله أن تقتلوهم، فخلّوا بين هذا الرجل وبين يزيد، فَلَعمري إنّه ليرضى من طاعتكم بدون قتل الحسينعليه السلام.

فرماه الشمر بسهم وقال: اسكت أسكت الله نامتك، أبرمتنا بكثرة كلامك.

فقال زهير: يا بن البوّال على عقبيه ما إيّاك أُخاطب، إنّما أنت بهيمة، والله ما أظنك تحكم من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم.

فقال الشمر: إنّ الله قاتلك وصاحبك عن ساعة.

فقال زهير: أفَبالموت تخوّفني؟ فوالله لَلْموت معه أحبّ إلى من الخُلد معكم، ثم أقبل على القوم رافعاً صوته وقال:

عباد الله لا يغرّنكم عن دينكم هذا الجلف الجافي وأشباهه، فوالله لا تنال شفاعة محمّد صلى الله عليه وآله قوماً هرقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذبّ عن حريمهم.

فناداه رجل من أصحابه: أنّ أبا عبد الله يقول لك: أقبل، فَلَعمري لئن كان مؤمن آل فرعون نصح قومه وأبلغ في الدعاء، فلقد نصحت هؤلاء وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ[1].

١ ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٤٣.

ب. الدلالات

الدلالات الأربعة لخطاب الاستنصار الحسيني

لخطاب الاستنصار الحسيني أربع دلالات:

١ ـ الدلالة السياسية.

٢ ـ الدلالة الحركية.

٣ ـ الدلالة الولائية.

٤ ـ الدلالة الشمولية.

وفيما يلي توضيح وشرح لهذه الدلالات الأربعة التي يتضمنها الخطاب الحسيني:

١. المضمون السياسي لخطاب الاستنصار الحسيني :

الاستنصار، والتعبئة، وتحشيد الرأي العام، والإعلام ضد الطاغية، من مقوّمات كلّ مواجهة سياسية ضد نظام حاكم، يحكم بالظلم.

فإنّ الصراع على الحكم بين الحاكم والمعارضة صراع غير متكافئ من الناحية الميدانية.

ذلك أن الحاكم يملك من القوّة والمال والإعلام والسلطان ما لا يتملكه

المعارضة.

ولا غنى للمعارضة، أيّة معارضة، في معركة من هذا القبيل من أن تعمل كلّ جهدها، وتسعى لكسب الرأي العام إلى جانبها، وكسب القوّة والاستنصار، وتحشيد الرأي العام والتعبئة.

ونحن على يقين أنّ الحسين عليه السلام لم يكن يفكر، يومَ أقدم على الخروج... في أن يهزم طاغية عصره في مواجهة عسكرية ميدانية، ولا نحتاج إلى محاسبات عسكرية وسياسية لنعرف أنّ الحسين عليه السلام لم يكن بصدد إسقاط يزيد، وانتزاع السلطان والمُلك والحكم من يده، وهو أولى به من غيره.

وإنّما كان الحسين عليه السلام يفكر في أمرين أحدهما سياسي، والآخر حركي.

أمّا الهدف السياسي من حركة الحسين عليه السلام وهو إلغاء شرعية الخلافة الأُموية وفضح يزيد، وكسر هيبته وعزله سياسياً واجتماعياً.

وأمّا الهدف الحركي فهو توعية الناس، وكسر حاجز الخوف، وتحريك الناس وتثويرهم لإسقاط نظام الطاغية، واستنهاض الأُمّة، وإعادة إرادتها المسلوبة ووعيها المسلوب إليها.

والهدف الأوّل هدف سياسي بالتأكيد، والحسين عليه السلام يدخل في مواجهة سياسية مع أعتى نظام سياسي وأشرسه، والاستنصار جزء من هذه المعركة.

والاستنصار دعوة إلى تطويق النظام الأُموي ومحاصرته وعزله، وتحجيم دوره وإلغاء شرعيّته... وهو جزء من رسالة الإمام الحسين عليه السلام في هذه المعركة الشاملة.

٢ـ المضمون الحركي لخطاب الاستنصار الحسيني

والدلالة الأُخرى لخطاب الاستنصار الحسيني هي الدلالة الحركية...

ولتوضيح ذلك لابدّ أن نرسم الإطار العام لخروج الحسين عليه السلام وعناصر هذا الإطار ثلاثة.

أ. رفض البيعة ليزيد:

وقد أعلن الحسين عليه السلام رفضه لبيعة يزيد عندما أرسل الوليد والي بني أُميّة في المدينة، يطالبه بالبيعة بعد هلاك معاوية، وكان ذلك بحضور مروان بن الحكم، فامتنع الإمام الحسين عليه السلام من البيعة، وقال مثلي لا يبايع سرّاً فإذا دعوت الناس دعوتنا معهم.

فاقتنع الوليد، لكن مروان ابتدره قائلاً: إن فارقك الساعة، ولم يبايع لم تقدر منه على مثلها حتّى تكثر القتلى بينكم، ولكن احبس الرجل حتّى يبايع أو تضرب معهم.

فقال الحسين عليه السلام يا بن الزرقاء[1] أنت تقتلني أم هو، كذبت وأثمت.

ثم أقبل على الوليد، وقال: أيّها الأمير، إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمور، وقاتل النفس المحترمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يبايع مثله، ولكن

---

١ ـ هي الزرقاء بنت موهب جدة مروان بن الحكم لأبيه وكانت من ذوات الرايات التي يستدل بها على ثبوت البغاء، فلذا كان الحكم وبنوه يذمون بها، نص على هذا كله ابن الأثير حيث ذكر صفة مروان ونسبه وأخباره في حوادث سنة ٦٥ للهجرة ص ٥٧ من الجزء الرابع من تاريخه الكامل ـ وصرح به غير واحد من أهل الأخبار.

نصبح وتصبحون[١].

وفي كربلاء خطب الحسين عليه السلام وقال: «إنّ الدعيّ ابن الدعيّ قد خيّر بين السلّة والذلّة، وهيهات منا الذلّة يأبى الله لنا ذلك ورسوله وحجور طابت وطهرت».

ب ـ إعلان الرفض:

لم يتكتّم الحسين عليه السلام برفضه البيعة، وعرف الناس جميعاً إنّ الحسين عليه السلام ممتنع عن البيعة ونصحه بعض الناس بالبيعة وآخرون أن يخفي نفسه عن الأمصار.

ولكن الحسين عليه السلام أعلن أنّه يرفض البيعة ويريد الخروج إلى مكة، وترك وصيّته إلى بني هاشم وكافة المسلمين عند أخيه محمّد بن الحنفية وغادر المدينة إلى مكة، سالكاً الطريق العام الذي يسلكه الناس، ويراه الناس فيه، فقيل له لو تنكّبت الطريق الأعظم، كما فعل ابن الزبير قال: لا والله لا أُفارقه حتّى يقضي الله ما هو قاضٍ[٢].

ودخل مكة، وهو يقرأ:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ﴾.

ونزل دار العباس بن عبد المطّلب[٣]، واختلف إليه أهل مكة ومَن بها من

١ ـ لواعج الاشجان: ٢٥. واللهوف: ١٧. والفصول المهمة ٢: ٧٨٢. والفتوح ٥ : ١٤. و الأمالي للصدوق : ١٢٩ ضمن ح١. ومقتل الخوارزمي ١ : ١٨٤. ومثير الأحزان : ٢٤. و البحار ٤٤ : ٣٢٥، العوالم ١٧ : ١٧٣.

٢ ـ إرشاد المفيد٢: ٣٥.

٣ ـ تاريخ ابن عساكر ٤: ٣٢٨.

المعتمرين وأهل الآفاق، وكان ابن الزبير يأتي إلى الحسين عليه السلام فيمن يأتيه.

وكان بإمكان الحسين عليه السلام أن يأخذ بنصيحة من ينصحه، بإخفاء نفسه، فيخفي نفسه عن الأنظار، ويذهب إلى بعض الثغور، ويبتعد عن الأضواء، وبذلك يسلم من أذى بني أُميّة وكيدهم، وكان لا يخفى هذا الوجه على الحسين عليه السلام، كما صرح بذلك لجملة من الذين نصحوه، ولكنّه أصرَّ أن يرفض البيعة، وأصرّ أن يعلن رفضه، ويبقى تحت الأضواء، ويصارح الناس برأيه في يزيد وبيعته، وبأنه أحقّ بذلك من كل إنسان آخر على وجه الأرض.

ج ـ الخروج والثورة:

وأصرّ الحسين عليه السلام بعد ذلك أن يخرج من الحجاز إلى العراق ليواجه فيه بني أُميّة.

وإذا أنعمنا النظر في كلمات أُولئك الذين نصحوا الحسين عليه السلام بالامتناع عن الخروج إلى العراق نجد أنّ كلامهم يتضمن ثلاث نقاط.

الأُولى: إنّ خروج الحسين عليه السلام إلى العراق بمعنى الثورة[١] والمواجهة بعينها لنظام بني أُميّة.

والثانية: إنّ شيعة الحسين عليه السلام في العراق إذا وفوا للحسين عليه السلام بعهودهم

١ ـ انظر نصيحة محمد بن الحنفية للحسين عليه السلام في المدينة ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ٧، ونصيحته له في مكة ـ البحار ٤٤: ونصيحة عبد الله بن جعفر الطيّار له بالامتناع عن الخروج الى العراق ـ الطبري ٦: ٢١٩، ونصيحة عبد الله بن العباس له ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ١٦، ونحن نشكّ في صدق كلّ هؤلاء في نصيحتهم للحسين عليه السلام، ولا نشك أنّ الحسين عليه السلام لم يكن يخفى عليه هذا الوجه من الرأي.

ومواثيقهم، فلن يستطيعوا أن يدفعوا عن الحسين عليه السلام كيد بني أُميّة ومكرهم وشرّهم، ولن يغلبوا سلطان بني أُميّة على العراق.

والثالثة: وبناءً على ذلك فإنّ الحسين عليه السلام إذا خرج إلى العراق فهو مقتول لا محالة.

ولم تكن هذه الحقائق تخفى على الإمام عليه السلام، ولم يكن يجهل الإمام عليه السلام إنّ خروجه إلى العراق بمعنى الخروج على سلطان بني أُميّة علانية، ولم تكن تخفى على الحسين عليه السلام عاقبة هذا الخروج.

ولا يصح ما يرويه بعض الناس أنّ الإمام الحسين عليه السلام طلب منهم أن يُخلوا له الطريق إلى بعض الثغور، بعيداً عن الأضواء، وبعيداً عن التصدّي والمواجهة، فلا يعطيهم يده للبيعة ولا يتصدّى للخروج والمواجهة.

روى الطبري وابن الأثير عن عقبة بن سمعان أنّه قال: صحبت حسيناً فخرجت معه من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى العراق، ولم أُفارقه حتّى قتل عليه السلام، وليس من مخاطبته الناس كلمة بالمدينة، ولا بمكة، ولا في الطريق ولا بالعراق، ولا في معسكر إلى يوم قتله إلاّ وقد سمعتها. لا والله ما أعطاهم ما يتذاكر الناس وما يزعمون من أن يضع يده في يد يزيد بن معاوية، ولا أن يسيّروه إلى ثغر من ثغور المسلمين، ولكنّه قال: «دعوني في هذه الأرض حتّى ننظر ما يصير أمر الناس»[١].

وكان من رأي محمّد بن الحنفية أن يخفي الحسين عليه السلام نفسه عن الأنظار، ويبتعد عن أجواء المواجهة والتصدّي، ويلتحق بالجبال وشعب

---

١ ـ تاريخ الطبري ٧: ٣١٤، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ١٥.

الجبال، ويخرج من بلد إلى آخر، حتّى ينظر ما يصير إليه أمر الناس[١].

فأبى الحسين عليه السلام وأصرّ على الخروج ونصحه ابن عباس أن يسير إلى اليمن، فإنّ بها حصوناً وشعاباً وهي أرض عريضة طويلة، ولأبيه عليه السلام بها شيعة، وهو عن الناس في عزلة.

فقال له الحسين عليه السلام: **«يا بن العم إنّي والله أعلم إنّك ناصح مشفق، وقد أزمعت على المسير»**[٢].

إذن فإنّ الحسين عليه السلام كان يقصد الخروج ويريده، وهو على علم بكل لوازمه وتبعاته وعواقبه.

هذا هو الإطار العام لحركة الإمام الحسين عليه السلام وموقفه من المدينة إلى كربلاء، وفي هذا الإطار نستطيع أن نفهم خطاب الاستنصار الحسيني.

إنّ الحسين يعلم أنّه إن خرج إلى العراق يُقتل لا محالة، وكل القرائن والدلائل تشير إلى هذه الحقيقة.

إذن فإنّ الحسين عليه السلام يطلب النصر بالقتل والدم. ولم يكن يفطن يومئذ ابن عباس وعبد الله بن جعفر الطيار ومحمّد بن الحنفية لهذه الوسيلة التي اتخذها الحسين عليه السلام يومئذ طريقاً إلى النصر.

لقد كان الحسين عليه السلام شاهداً لنجاح المؤامرة الأُموية التي قادها آل أبي سفيان للانقلاب على الأعقاب... وقد فقدت الأُمّة في عرضها العريض حصانتها تجاه هذه المؤامرة، وعاد الضمير الإسلامي لا يملك الدرجة الكافية من المناعة والمقاومة. ولا يختلف في ذلك أهل العراق عن أهل

---

١ ـ تاريخ الطبري ٦: ١٩١، وأنساب الأشراف ٤: ١٥.

٢ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير ٤: ١٦.

الشام، وأهل مصر عن أهل الحجاز، فأراد الحسين عليه السلام أن يحدث هزة بشهادته وشهادة الثلّة الطيبة من أهل بيته وأصحابه في الضمير الإسلامي، ويعيد إليهم ما سلبه منهم آل أبي سفيان من ضمائرهم وعزائمهم ورشدهم.

وقد كان الذي يريده الحسين عليه السلام بمصرعه ومصرع أهل بيته وأصحابه والمأساة التي يتناقلها أهل السير فأحدث في الضمير الإسلامي هزة عنيفة، وصحوة ضمير كانت مبدأ كثير من البركات والثورات والوعي واليقظة السياسية في تاريخ الإسلام.

المؤامرة الأموية على دم الحسين عليه السلام

وقد خطط آل أبي سفيان لإهدار دم الحسين عليه السلام في مكة في موسم الحج، وبلغ الحسين عليه السلام أنّ يزيد أنفذ عمرو بن سعيد بن العاص في عسكر، وأمّره على الحج وولاّه أمر الموسم، وأوصاه بالفتك بالحسين أينما وَجَدهُ[١]، فعجّل الحسين بالخروج من مكّة قبل الوقوف بعرفات يوم التروية، ولم يمكّن بني أُميّة من اغتياله فيذهب دمه هدراً، وبذلك أحبط المؤامرة التي خطط لها بنو أُميّة.

يروي أبو مخنف عن أسديّين قالا: خرجنا من الكوفة حتّى قدمنا مكّة، فدخلنا يوم التروية فإذا نحن بالحسين عليه السلام وعبد الله بن الزبير قائمين عند ارتفاع الضحى فيما بين الحجر والباب... فسمعنا ابن الزبير يقول للحسين عليه السلام: إن شئت أن تقيم أقمت فولّيت هذا الأمر؛ فآزرناك وساعدناك ونصحنا لك وبايعناك.

فقال الحسين عليه السلام: «إنّ أبي حدّثني أنّ بها كبشاً يستحلّ حرمتها، فما

---

١ ـ مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرّم: ١٧٢، والمنتخب: ١٧٢.

أحبّ أن أكون ذلك الكبش»[1].

ولمّا بلغ عمرو بن سعيد أنّ حسيناً قد خرج فقال اطلبوه. اركبوا كلّ بعير بين السماء والأرض فاطلبوه. فعجب الناس من قوله هذا[2].

فاعترضه عليه السلام يحيى بن سعيد بن العاص ومعه جماعة أرسلهم عمرو بن سعيد إليه فقالوا له: انصرف أين تذهب؟ فأبى عليهم ومضى وتدافع الفريقان وتضاربوا بالسياط وامتنع الحسين عليه السلام وأصحابه امتناعاً قويّاً[3].

وواضح لمن يعلم خفايا كيد بني أُمية، أنّ بني أُمية كانوا لا يريدون أن يعطوا للحسين عليه السلام فرصة للخروج والثورة، وكانوا يخططون لاغتيال الحسين عليه السلام.

وقد جاء عمرو بن سعيد بن العاص من عند يزيد بخطة كاملة لاغتيال الحسين عليه السلام في الموسم.

فلمّا علم الإمام بذلك غادر مكّة إلى العراق يوم التروية، ليفوّت على آل أبي سفيان فرصة المؤامرة ويحبط عليهم خطّتهم.

وقد أزعج عمرو بن سعيد بن العاص نبأ مغادرة الحسين عليه السلام للموسم يوم التروية بهذه الصورة، وأرسل إليه يحيى بن سعيد بن العاص ليطلب من الحسين أن يعود إلى الموسم، إلاّ أنّه رجع من دون أن يحقق شيئاً ممّا كان يريده عمرو بن سعيد بن العاص، كما لم يصنع مروان بن الحكم قبله شيئاً، عندما أنكر على الوليد أن يترك الحسين عليه السلام ليخرج من عنده من غير بيعة

---

١ ـ تاريخ الطبري ٧: ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

٢ ـ العقد الفريد ٤: ٣٧٧.

٣ ـ الارشاد ٢: ٦٨.

في تلك الليلة.

وقال لـه بصـراحة (إن فـارقك الساعة ولـم يبايع لم تقدر منه على مثلها حتّى تكثر القتلى بينكم، ولكن احبس الرجل حتّى يبايع أو تضرب عنقه).

ولكـن الحسين عليه السلام كـان قـد أعـدّ العـدّة لمـثل هـذه المفاجـأة من قبل، فصـحب معـه جمعـاً مـن الفتـيان، وقفـوا بسـيوفهم على باب الأمير ليتدخّلوا بالقوّة إذا اقتضى الأمر، وكان كذلك.

عودة إلى الدلالة الحركية للخطاب الحسيني:

إذن، كـان الحسـين عليه السلام يعـدّ نفسـه للخـروج والـثورة علـى يزيد، وهو لا يـريد بهـذه لـثورة إلحـاق هـزيمة عسـكرية بـيزيد، وإنّمـا يريد أن يستنهض المسـلمين ويحفّـزهم ويحـرّكهم لمقاومـة الظـالم، ويعـيد إلـيهم وعـيهم وضمائرهم وعزائمهم كما قلنا.

فلسـت أدري مـاذا دهـى المسـلمين حتّى رضـوا بـيزيد بن معاوية خليفة لرسول الله صلى الله عليه وآله ولم يمض من وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أكثر من نصف قرن.

وخطـاب الاستنصـار الحسـيني يحمـل الدعـوة إلـى الثورة والمقاومة في وجه الظالم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول عليه السلام في منزل البيضة في أصحاب الحر:

«أيّهـا الـناس إنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأى سلطاناً جائـراً مسـتحلاً لحـرام الله، ناكثاً عهده مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عـباد الله بـالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخلـه مدخلـه». وهذه هي الصفة البارزة الأُولى في خطاب الاستنصار الحسيني.

٣ـ المضمون الولائي لاستنصار الحسين عليه السلام:

للاستنصار علاقة وثيقة بشبكة الولاء، فتجب النصرة في شبكة الولاء عند الاستنصار. وشبكة الولاء ذات بعدين: البعد العمودي، والبعد الأُفقي، وهما سواء في وجوب النصرة عند الاستنصار.

البعد العمودي من شبكة الولاء:

أمّا البعد العمودي في هذه الشبكة فهو الولاء لله ولرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولأئمّة المسلمين وأولياء أُمورهم. يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1] وقد ورد في تفسير هذه الآية المباركة بأسانيد مستفيضة عن طرق الفريقين أنّ الآية الكريمة نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام إمام المسلمين، وهو المقصود بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ عندما تصدّق بخاتمه وهو راكع في الصلاة خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ويقول تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2].

البعد الأُفقي من شبكة الولاء:

وأمّا البعد الأُفقي في هذه الشبكة فهو الولاء للمؤمنين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[3] وعلى هذا البعد من شبكة الولاء: المؤمنون أُسرة واحدة، تربطهم رابطة الولاء، مهما كانت لغاتهم وألوانهم

---

١ ـ المائدة: ٥٥.

٢ ـ النساء: ٥٩.

٣ ـ التوبة: ٧١.

وأوطانهم وطبقاتهم.

ويشترك البعد العمودي والبعد الأُفقي في الولاء في وجوب الحبّ والنصر والنصيحة والسلام، ويتميّز البعد العمودي من الولاء بوجوب الطاعة، فتجب طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أُولي الأمر، وطاعة من يأمر الله تعالى ورسوله وأُولوا الأمر بطاعتهم.

الصيغة التوحيدية في شبكة الولاء:

وكلّ ما يجب في هذه الشبكة على أعضائها من الحبّ والنصر والتعاون والنصيحة والسلام والتعاون والطاعة، إنّما يجب بأمر الله تعالى.

ويأتي في امتداد طاعة الله تعالى وحده، فلا طاعة لرسول الله ولا لأُولي الأمر من دون طاعة الله، وإنّما يجب طاعتهما بأمر الله.

ولا يجب حبّ رسول الله ولا أُولي الأمر ولا المؤمنين، ولا يجب نصرهم ولا تجب نصيحتهم إلاّ بأمر الله تعالى.

وهذه هي الصيغة (التوحيدية) لشبكة الولاء، وهي خصوصية بارزة ومحورية في كلّ هذه الشبكة، وفي كلّ ما يجب ويحرم في هذه الشبكة الواسعة، وفي أعضاء أُسرة التوحيد الكبيرة.

مقوّمات الولاء في البعد الأُفقي:

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[1].

وهذه المجموعة من العناصر هي التي تشدّ المؤمنين بعضهم ببعض

---

١ ـ الأنفال: ٧٢.

بآصرة الولاء. وهذه المجموعة هي الإيمان، والهجرة، والجهاد، بالأموال والأنفس والإيواء والنصرة.

والآية الكريمة وإن كانت تُشير إلى المهاجرين والأنصار صدر الإسلام. ولكن تبقى هذه العناصر بروحها من ثوابت الولاء، ولا ولاء من دونها بين المؤمنين.

ذلك أنّ أُسرة التوحيد الكبيرة كلّها في مواجهة الشرك والكفر والظلم والاستكبار.

وهذه المواجهة حتمية من ناحية، ومصيرية من ناحية أُخرى. فلابدّ أن يدخل المؤمنون في هذه المواجهة كتلة واحدة وصفّاً واحداً، تربطهم آصرة الولاء أُولئك بعضهم من بعض كما أنّ الأمر كذلك في أُسرة الشرك والكفر تدخل في هذه المواجهة كتلة واحدة، تربطها علاقة الولاء العضوية بعضهم من بعض.

الولاء والإيمان الحقّ:

والإيمان الحقّ، هو الإيمان الفاعل المؤثر الذي يشدّ بعض المؤمنين ببعض، ويجعلهم في مواجهة الكفر والشرك والاستكبار. والإيمان الحقّ خصيب وليس بعقيم. يوصل ويفصل: يوصل المؤمنين بعضهم ببعض، ويفصل المؤمنين عن المشركين والكافرين.

والإيمان الحقّ مصدر عطاء وثورة ونصر وفعل في حياة الإنسان المسلم. ولا يكون الإيمان حقّاً إلاّ ضمن شبكة الولاء بكل مقوماتها.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[1].

---

١ ـ الأنفال: ٧٤.

وهذه هي القضية الأُولى، والقضية الثانية أنّ المؤمنين حقّاً بعضهم من بعض.

يعني أن الإيمان الحقّ يجمع شتات المؤمنين، ويجعلهم كتلة واحدة وصفاً واحداً، ويجعل بعضهم من بعض كأعضاء الجسد الواحد.

خصائص وآثار شبكة الولاء

السلام والعصمة في شبكة الولاء:

ومن أهم خصائص شبكة الولاء حالة (السلام) و(العصمة). الإنسان المسلم يتعامل مع الآخرين بسلام. ويتمتع تجاه تعامل الآخرين بالعصمة، يمنح الآخرين السلام في تعامله معهم وعلاقته بهم، ويتمتع هو بالعصمة فلا يحق له أن يعتدي على أحد، ولا أن يؤذي أحداً من المسلمين ويظلمه، كما لا يحق لأحد أن يخترق العصمة التي منحها الله تعالى، ويهتكها.

فهو يعيش مع الآخرين (بسلام) من طرف، و يطالب الآخرين (بالعصمة) من طرف آخر، وهذا أحد أهم بنود الولاء في علاقة المؤمنين بعضهم ببعض داخل شبكة الولاء.

وإليكم توضيحاً موجزاً لهاتين الكلمتين: (السلام) و(العصمة).

معنى السلام:

رُوي عن رسول الله ﷺ: (المسلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده إلاّ بالحقّ، ولا يحق أذى المسلم إلاّ بما يجب)[1].

---

١ ـ بحار الأنوار ٦٤: ٣٥٤ ح٥٦ عن الكافي.

وعن أبي عبد الله الصادقعليه السلام قال: (المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يخونه، ويحقّ على المسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاقد على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة، وتعاطف بعضهم على بعض، حتى تكونوا كما أمركم الله رُحماء بينكم، متراحمين)[١].

وشبكة الولاء على متانتها واستحكامها وقوّتها حسّاسة شديدة الحساسية تجاه الإساءة والأذى.

عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام قال:« إذا قال رجل لأخيه المؤمن أفّ خرج من ولايته.

وإذا قال: أنت عدوّي كفر أحدهما، ولا يُقبل من مؤمن عملاً، وهو مُضمر على أخيه سوءاً»[٢].

وعن الصادقعليه السلام قال: «إنّ اللعنة إذا خرجت من صاحبها ترددت بينه وبين الذي يُلعن، فإن وجدت مساغاً، وإلاّ رجعت إلى صاحبها، وكان أحقّ بها، فاحذروا أن تلعنوا، فيحلّ بكم»[٣].

معنى العصمة:

وفي العصمة روي عن رسول اللهصلى الله عليه وآله: «المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله»[٤].

وعن رسول اللهصلى الله عليه وآله قال: «المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يكذّبه ولا

---

١ ـ وسائل الشيعة ٨: ٥٤٣.

٢ ـ وسائل الشيعة ٨: ٦١١.

٣ ـ وسائل الشيعة ٨: ٦١٣.

٤ ـ مسند أحمد بن حنبل ٢: ٤٩١.

يخذله. كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه»[١].

وعن رسول الله ﷺ قال: «كل مسلم على مسلم محرّم»[٢].

عن زيد الشحّام عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وقف بمنى حين قضى مناسكها في حجة الوداع فقال: «أيّها الناس اسمعوا ما أقول لكم واعقلوا عنّي، فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم في هذا الموقف بعد عامنا هذا ثمّ قال: أيّ يوم أعظم حرمة؟ قالوا هذا اليوم، قال: فأيّ شهر أعظم حرمة؟ قالوا: هذا الشهر. قال: فأي بلد أعظم حرمة قالوا: هذا البلد.

قال: فإنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقونه فيسألكم عن أعمالكم. ألا هل بلغت؟ قالوا نعم[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتّى يقولوا لا اله إلاّ الله، فإذا قالوا فقد حرم عليَّ دماؤهم وأموالهم»[٤].

وعن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلاّ الله، فإذا قالوا لا إله إلاّ الله. عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها وحسابهم على الله»[٥].

---

١ ـ سُنن الترمذي ٤: ٣٢٥، ح١٩٢٧.

٢ ـ مسند أحمد بن حنبل ٥: ٤ و ٥.

٣ ـ الكافي، الفروع ٧: ٢٧٣، ووسائل الشيعة ١٩: ٢.

٤ ـ بحار الأنوار ٦٨: ٢٤٢.

٥ ـ مشكاة المصابيح: ١٢ ـ ١٤.

علاقة النصر بشبكة الولاء:

وعلاقة النصر بشبكة الولاء علاقة وثيقة ومُحكمة.

يقول تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾[١].

فإذا استنصر المسلمين مسلمون من مشارق الأرض أو مغاربها وجب على المسلمين ـ على نحو الكفاية ـ المبادرة إلى نصرهم.

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَن أصبح ولم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، ومن سمع رجلاً يُنادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم»[٢].

وعن البراء بن العازب قال: أمر النبيّ صلى الله عليه وآله بسبع ونهانا عن سبع. فذكر ردّ السلام ونصر المظلوم وإجابة الداعي وإبرار القسم[٣].

وعن الصادق عن أبيه عليهما السلام قال: «لا يحضرن أحدكم رجلاً يضربه سلطان جائر ظلماً وعدواناً ولا مقتولاً ولا مظلوماً إذا لم ينصره، لأنّ نصرة المؤمن على المؤمن فريضة واجبة، إذا هو حضره، والعافية أوسع ما لم يلزمك الحجّة الظاهرة»[٤].

ويحرم خذلان المسلم إذا دعاه إلى نصرته وهو قادر على نصرته.

عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس من الإسلام في شيء، ومَن

١ ـ الأنفال: ٧٢.

٢ ـ وسائل الشيعة ١١: ٥٦٠.

٣ ـ صحيح البخاري ٢: كتاب المظالم باب ٥.

٤ ـ بحار الأنوار ٧٥: ١٧ عن قرب الاسناد: ٢٦.

شهد رجلاً ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس من المسلمين»[١].

وقد سبق هذا الحديث بلفظ قريب.

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما من مؤمن يخذل أخاه، وهو يقدر على نصرته إلاّ خذله الله في الدنيا والآخرة»[٢].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «ما من مؤمن يعين مؤمناً مظلوماً إلاّ كان أفضل من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام، وما من مؤمن ينصر أخاه وهو يقدر على نصرته إلاّ نصره الله في الدنيا والآخرة»[٣].

استنصاران للحسين عليه السلام في قصر بني مقاتل:

وإذا لم يسع المسلم تلبية استنصار المسلمين وإجابة دعوتهم، ونصرهم فلا يحضر استغاثتهم واستنصارهم.

وقد مرّ بنا قريباً قول الإمام الصادق عليه السلام، حسب الرواية: «لا يحضرن أحدكم رجلاً يضربه سلطان جائر ظلماً وعدواناً».

وقد كان الحسين عليه السلام إذا استنصر رجلاً فأبى عليه ينصحه أن يبتعد عنه ويغيب عن مصرعه لئلاّ يسمع باستغاثته.

وكان للحسين عليه السلام لقاءان في منزل قصر بني مقاتل[٤] في طريقه إلى كربلاء:

---

١ ـ بحار الأنوار ٧٥: ٢١ عن نوادر الراوندي: ٢١.

٢ ـ بحار الأنوار ٧٥: ١٧ عن أمالي الصدوق: ٢٩١.

٣ ـ بحار الأنوار ٧٥: ٢٠ عن ثواب الأعمال: ١٣.

٤ ـ يقول السيّد عبد الرزّاق المقرّم: إنّ القصر ينسب إلى مقاتل بن حسّان بن ثعلبة يقع بين عين التمر والقطقطانة والقريات، خرّبه عيسى بن علي بن عبد الله بن العبّاس ثمّ جدّده.

اللقاء الأوّل بعبيد الله بن الحرّ الجعفي، واللقاء الثاني بعمرو بن قيس المشرقي وابن عمّه.

وقد استنصرهم الحسين عليه السلام جميعاً، فاعتذروا ولم تطب نفسهم بالموت، فنصحهم الحسين عليه السلام أن يبتعدوا عنه ويغيبوا عن مصرعه، لئلاّ يسمعوا استغاثته فلا يجيبوه فيكبّهم الله تعالى في النار.

في اللقاء الأول التقى بعبيد الله بن الحرّ الجعفي فاستنصره، فاعتذر عبيد الله كما ذكرنا ذلك من قبل، وقال له انه لا يشك أنّ من شايعه كان سعيداً في الآخرة، ولكن نفسه لا تطيب بالموت، وأهدى إلى الحسين عليه السلام فرسه(الملحقة) ومدحها.

فقال له الحسين عليه السلام: «أما إذا رغبت بنفسك عنّا فلا حاجة لنا في فرسك، ولا فيك، وما كنت متّخذ المضلّين عضُداً، وانّي أنصحك كما نصحتني إن استطعت أن لا تسمع صراخنا، ولا تشهد وقعتنا فافعل، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد ولا ينصرنا إلاّ أكبّه الله في نار جهنّم»[1].

واللقاء الثاني في نفس المنزل بعمرو بن القيس المشرقي وابن عمّه، رواه الصدوق في عقاب الأعمال.

قال: دخلت على الحسين أنا وابن عمّ لي، وهو في قصر بني مقاتل فسلمنا عليه.

فقال له ابن عمّي: يا أبا عبد الله هذا الذي أراه خضاب أو شعرك، فقال خضاب والشيب إلينا بني هاشم يعجّل.

---

١ ـ مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٢٠٢ ـ ٢٠٤ نقلاً عن أمالي الصدوق، المجلس ٣٠، وخزانة الأدب ١: ٢٩٨.

ثـمّ أقبل علينا. فقـال: جئتما لنصرتي، فقلت: إنّي رجل كبير السن، كثير الديـن كثير العيال، وفـي يدي بضائع الناس ولا أدري ما يكون، وأكره أن أضيع أمانتي.

وقال له ابن عمّي مثل ذلك.

قال لنا: فانطلقا فلا تسمعا لي واعية، ولا تَرَيا لي سواداً، فإنّه من سمع واعيتنا، أو رأى سوادنا فلم يجبنا، ولم يعبأ، كان حقّاً على الله عزّ وجلّ أن يكبّه على منخره في النار.

الاستنصار لإتمام الحجّة:

عاشـوراء مفـترق طـريق، ومـن فـارق الحسـينعليه السلام في عاشوراء عن علم وعمد، وسمع واعيته، وحضر استغاثته فسبيله نار جهنم، لا شكّ في ذلك.

وقـد شـطر الناس عاشوراء منذ سنة (٦١ هـ) إلى اليوم، شطرين: شطر إلى الجنّة وشطر إلى النار.

فمـن كـان رأيـه مـن رأي الحسينعليه السلام وهواه مع الحسينعليه السلام وموقفه مع الحسينعليه السلام كان سبيله الجنّة.

ومـن كـان رأيه من رأي يزيد وهواه مع يزيد وموقفه مع يزيد كان سبيله النار.

ذلـك أنّ الحسـينعليه السلام وارث الأنبـياء والصـدّيقين والمرسـلين فـي مسـير الـتاريخ كلّـه، فمـن كـان هـواه مـع الحسـينعليه السلام، كـان لا محالـة مـع حركـة الأنبـياء والمرسـلين والصـدّيقين، ومـن كـان هـواه مـع آل أبـي سفيان، كان موقفه لا محالة، مع أعداء الأنبياء وخصومهم.

ولذلك فإنّ الحسين عليه السلام وارث الأنبياء، ويزيد وارث الطغاة والجبابرة، وعاشوراء من أيّام (الفرقان) في التاريخ.

وقد شطر عاشوراء الناس كما ذكرنا منذ سنة (٦١ هـ) إلى اليوم شطرين:(أنصاراً) و(أعداءً).

ولسنا نعرف شطراً وسطاً بينهما إلاّ أن يكون من المستضعفين الذين يرجون رحمة الله بالاستضعاف. إذن (عاشوراء) مفترق طريق.

وقد كان الحسين عليه السلام يحرص يوم عاشوراء وقبله أن يتمّ الحجّة على كلّ أولئك الذين وقفوا مع آل أبي سفيان، ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ﴾، وكان يحرص أن ينقذ من يمكن إنقاذه، ويصلح من يمكن إصلاحه ويهدي من يمكن هدايته.

كان الحسين عليه السلام يتمّ الحجّة في استنصاره واستغاثته الذي تكرّر منه على كلّ الذين قاتلوه وحاربوه وظلموه، أو وقفوا من مصرعه موقف المتفرّج الذي لا يبالي ماذا حدث.

فقد كان عليه السلام يعلم بأنّ لهذا اليوم شأناً كبيراً في التاريخ، وأنّه مفترق الطريق بين الحق والباطل والهدى والضلال، فأراد أن يتمّ الحجّة على الناس لئلاّ يكون للناس حجّة.

تنوّع الخطاب الحسيني:

ولذلك نجد أنّ الخطاب الحسيني للاستنصار خطاب متنوّع.

فهو عليه السلام حريص على أن ينفذ إلى تلك القلوب المغلقة، ويفتحها بأي أسلوب ممكن.

فهو يخاطب عقولهم تارة، ويخاطب ضمائرهم تارة، والضمير آخر قلعة

يقاوم الباطل في نفس الإنسان.

ويخاطب قلوبهم وعواطفهم تارة، والعاطفة خزين مبارك من الخير والرحمة في نفس الإنسان، وآخر ما ينضب من نفس الإنسان قلبه وعاطفته.

لقد خاطب الحسين عليه السلام عقولهم يوم عاشوراء فقال لهم: (أحين استنصرتمونا والهين فأصرخناكم موجفين سللتم علينا سيفاً لنا في أيمانكم، وحشيتم علينا ناراً اقتدحناها على عدوّنا وعدوّكم فأصبحتم إلباً لأعدائكم على أوليائكم، من عدل أفشوه فيكم، ولا أمل أصبح لكم فيهم).

وخاطب ضمائرهم فقال: (يا شيعة آل أبي سفيان إن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في دنياكم).

وخاطب عواطفهم ثالثاً فقال في آخر استغاثة له عليه السلام: (أما من مغيث يغيثنا أما من ذابٍّ يذبّ عن حرم رسول الله)، ومن مشاهد الاستغاثة المؤثرة استسقاؤه للطفل الرضيع يوم عاشوراء وهو يتلظّى عطشاً، فرفع إليهم الرضيع وقال: (أما منكم من أحد يأتنا بشربةٍ من الماء لهذا الطفل الرضيع؟) ثم قال لهم: (اسقوا هذا الرضيع)[1].

والعاطفة خزين مبارك من الخير والرحمة كما ذكرنا، وآخر ما ينضب في نفس الإنسان، تفيض بالرقة والرحمة.

وهذه الرقة والرحمة التي تفيض بها العاطفة تطهّر القلب مما يعلق به من الدرن وتلين القلب. وتفتح مغاليق القلوب.

وقد تنغلق العقول ويتصامم الناس عن نداء العقل ولكنهم يستجيبون لنداء العاطفة، وتنفتح له قلوبهم.

١ ـ الخصائص الحسينية: للشيخ جعفر التُستري: ١٨٦.

٤. المعنى الشمولي لخطاب الحسين عليه السلام

لا نجد مبرراً للقول بأنّ خطاب الحسين عليه السلام بالاستنصار كان مقتصراً على أُولئك الذين عاصروا الحسين عليه السلام وشهدوا وقعة الطف.

وليس ثمة دليل في خطاب الحسين عليه السلام لحجب هذا الخطاب عن الأجيال التي تعاقبت من بعده، ممّن لبوا هذا الخطاب وأسرعوا في الاستجابة له.. فقد كان المجتمع الإسلامي يومئذٍ يمرّ بفترة رهيبة من التاريخ فقدَ فيها الكثير من أخلاقيته وقيمه وكفاءاته.

ولست أدري ماذا فعل معاوية، خلال سني حكمه من إفساد وظلم، حتّى بلغ المجتمع الإسلامي في عصر ابنه يزيد هذا المبلغ من ضعف الإرادة ونضوب القيم، وفقدان الأخلاق، وليس أدل على ما نقول من أنّ ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله يدعوهم إلى الخروج على يزيد، وهم يعرفون الحسين عليه السلام ويعرفون يزيد. ثمّ لا يستجيب له من كلّ أُولئك الذين خاطبهم الحسين عليه السلام أو بلغهم خطابه إلاّ اثنين وسبعين رجلاً فقط.

وأصدق وصف لهذا العصر هو الوصف الذي يصفهم به الحسين عليه السلام، كما يرويه الطبري في التاريخ، وهو أول خطبة له عليه السلام بعد وصوله إلى كربلاء:

يقول عليه السلام: **«إنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكّرت، وأدبر معروفها، ولم يبق منها إلاّ صُبابة كصُبابة الإناء، وخسيس عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به وإلى الباطل لا يتناهى عنه؟»**.

وهو وصف دقيق لذلك العصر، ولإثبات هذا الوصف يقول

الإمام عليه السلام: «ألا ترون إلى الحقّ لا يُعمل به؟».

ومن أجل ذلك نعتقد أنّ خطاب الحسين عليه السلام لا يقتصر على عصره، ليس من سبب لحَجب هذا الخطاب عن العصور التي تلي ذلك العصر.

ولسنا نريد أن ننفي مخاطبة الناس في ذلك العصر من جانب الحسين عليه السلام، ولكنّا نريد أن نقول إنّ روح هذا الخطاب أوسع من ذلك العصر.

إنّ الصراع الذي خاضه عليه السلام في سنة إحدى وستين هجرية حلقة متوسطة من سلسلة طويلة من الصراع بين التوحيد والشِرك والهدى والضلال، يتصل طرف منه بصراع الأنبياء عليهم السلام مع أئمّة الكفر، والحسين عليه السلام وارث هذه السلسلة المتّصلة من أئمّة التوحيد، ويتصل الطرف الآخر منه بسلسلة طويلة من الصراع، في امتداد الطف يقوده أئمّة التوحيد، حتّى يتسلّم المهدي من آل محمّد عليهم السلام لواء التوحيد، ويطهّر الأرض من رجس الشِرك والظلم.

وعاشوراء من المفاصل الأساسية في هذه السلسلة الممتدة من الصراع بين التوحيد والشرك والهدى والضلال.

وخطاب الحسين عليه السلام خطاب شامل لكل أُولئك الذين بلغهم هذا الخطاب، ومكّنهم الله تعالى. من وراثة تراث عاشوراء، ورزقهم الله الوعي والبصيرة.

التلبية:

والتلبية الواردة في نصوص الزيارات التي يزور المسلمين بها الحسين عليه السلام تشير إلى هذه الحقيقة التاريخية.

فإنّ الحسين عليه السلام (داعي الله) ونداؤه ودعوته توحيد الله.

وخطابه الدعوة إلى نصرة دين الله وشريعته وأحكامه وحدوده، ورفض الطاغوت والكفر به.

وهذه دعوة عامة، وخطاب شامل لتلك الأجيال الذين تعاقبوا بعد عاشوراء.

وإذا حجبنا عصرنا عن التلبية المباشرة لدعوة الحسين عليه السلام لاستنصاره، فنحن اليوم نلبّي ذلك الخطاب، ونستجيب لتلك الدعوة في إزالة الظلم والشرك ومجاهدة الظالمين، وتثبيت أركان التوحيد في الأرض، وهدم بنيان الشرك والظلم والاستكبار.

وقد ورد في نصوص زيارة الحسين عليه السلام «لبيك داعي الله. إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند استنصارك فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري ورأسي وهواي» والتلبية من مقولة (العزم) و(الفعل)، وليس من مقولة (القول). والقول تعبير عن عزم الإنسان على الفعل.

فالتلبية الحقيقية لخطاب الحسين عليه السلام أن يَصُفَّ الإنسان مع الحسين عليه السلام في مواجهة الظالمين، وعدم الركون إليهم، ورفضهم، والبراءة منهم، والصمود والثبات في مواجهتهم.

ولست أعتقد أنّ مرور ألف وثلاثمائة عاماً على مصرع الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته الذين لبّوا دعوته... قد خفف من قسوة الصراع وضراوة المعركة، ولا أعتقد أنّ التلبية لذلك الخطاب أيسر في عصرنا، من التلبية لنفس الخطاب في ذلك العصر.

فالمعركة هي المعركة، والخطاب هو الخطاب، والتلبية هي نفس التلبية، وضريبة التلبية هي نفسها.

حركتان في التاريخ (النصر والثأر):

ولا تختلف مسؤوليتنا اليوم تجاه استنصار الحسين. فإنّ قضية عاشوراء هي رفض الظلم والكفر بالطاغوت، وطالما يوجد في حياة المسلمين ظلم وشرك واستكبار، يبقى خطاب الحسين في يوم عاشوراء نافذاً فاعلاً في حياة المسلمين.

ونحن اليوم مسئولون عن نصر الحسين عليه السلام، مخاطبون بالاستنصار، كما كان الناس مخاطبون بالاستنصار مطالبون بالنصر في عصره عليه السلام.

غير إنّا نحمل بعد مصرع الحسين عليه السلام مسؤولية أُخرى غير مسؤولية (النصر) وهي مسؤولية (الثأر) لدماء الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه (رضوان الله عليهم)، وهي مسؤولية أُخرى غير مسؤولية النصر.

فهاتان مسؤوليتان تتطلبان حركتين في تاريخ وارثي عاشوراء:

حركة باتجاه النصر، وأُخرى باتجاه الثأر، لدماء الشهداء في كربلاء.

وقضية (النصر) غير قضية (الثأر)، إنّ (النصر) يعني الاستنصار لدعوة الأنبياء في تشييد أركان التوحيد والعدل، وهدم بنيان الشرك والظلم، ونصر المسلمين المستضعفين وإمدادهم وإغاثتهم، في معاناتهم وعذابهم على أيدي الظالمين.

(والثأر) يعني المطالبة بدماء الشهداء من أُسرة التوحيد، وبدماء الشهداء في يوم عاشوراء. فهذه دماء حرّمها الله تعالى، وأهدرها الناس، ولابدّ من الثأر لها، شأن كلّ دم حرّمه الله تعالى.

غير أنّ دماء الشهداء لمّا كانت في سبيل الله، فإنّ الله تعالى هو الثائر الأوّل لها، وهي ثأر الله قبل كلّ شيء، وهذه قيمة كبيرة لدم الشهيد في هذا

الديـن ومفهـوم رفـيع من مفاهيم هذا الدين، ونحن نخاطب الحسينﷺ في الزيارة بـثأر الله، فـنقول السـلام علـيك يـا ثـار الله وابن ثاره، وعلينا نحن في امـتداد (ثـأر الله) أن نـثأر لهـذه الدماء، ودماء كلّ الشهداء التي أُريقت ظلماً وعدواناً في سبيل الله.

ولمّـا كانـت هـذه الدمـاء قـد أُريقـت فـي الصـراع بيـن الحـقّ والـباطل، فالمُطالَب بالدم ليس هو شخص المجرم القاتل، بل يُطالَب به كل من وقف معه في تلك الجبهة، وكلّ من يقف معه بعد ذلك في تلك الجبهة...

شأن كـلّ دم يُهراق في معركة. فإنّ المطالَب بالدم في ساحة المعركة لا يكـون هـو القـاتل فقـط، وإنّما كلّ من يقف مع القاتل في نفس الجبهة في نفس المعركة.

ولمّـا كانـت معـركة عاشـوراء قائمة مستمرة ومتّصلة الحلقات إلى اليوم، فكـل مـن يقـف مـع أعـداء الحسـينﷺ، ويتعاطف معهم، ويهواهم ويميل إلـيهم، ويرضـى بفعلهـم، ويحـبّهم... يكـون مطالـبَاً بدماء الحسينﷺ والثلّة الطاهرة من أصحابه.

وهـو شـأن (عاشـوراء) كمـا إنّ ذلـك شـأن كـلّ صـراع قـائم بيـن الحـقّ والـباطل، وكـلّ دم يُهـراق ظلمـاً فـي وسـط المعـركة. حيـث تعـم مسؤولية المطالـبة بـدم الشـهيد كـلّ الذين وقفوا معه وإلى جنبه أو خلفه في المعركة (فهـم أولياء الدم جميعاً) وتعم الجريمة كلّ من وقف مع القاتل أو خلفه في نفـس الصـراع فـيكون مطالَباً بالدم الذي أُهريق ظلماً في ذلك الصراع، إذن نحـن الـيوم بعـد مصـرع الحسـينﷺ فـي عاشـوراء مسـئولون عن قضيّتين، وليست قضية واحدة، وهما (النصر) و(الثأر).

وقضية الحسين عليه السلام حلقة واحدة، ولكنها مفصّلة، في مسلسل الصراع التاريخي بين الأنبياء وخصومهم من أئمّة الكفر.

والحسين وارث كلّ ذلك التراث وحفيده المهدي من آل محمّد (عجّل الله فرجه) يرث جدّه وينهض بتلبية خطاب جدّه الحسين لنصرة دين الله، كما ينهض بالثأر لدماء الشهداء في كربلاء ودماء الشهداء قبل كربلاء وبعده، ولذلك فهو الإمام (الوارث) (الثائر) من آل محمّد، (عجّل الله فرجه).

تحليل بعض المضامين الواردة في خطاب الاستنصار الحسيني:

ويستوقفنا في خطابات الحسين عليه السلام خطابه المعروف في مكّة عشية خروجه إلى العراق، وقد تناقل أرباب السِيَر هذا الخطاب، وورد في أكثر المصادر التي دوّنت سيرة الحسين عليه السلام وخروجه إلى العراق.

وقد ذكرنا الخطاب في بداية هذه المقالة، ويبدأ الإمام الخطاب بهذه الكلمة العجيبة: «خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جِيد الفتاة».

وهذه البداية تفسّر كلّ حركة الإمام وخروجه، وتوضح للناس الذين يستنصرهم الحسين عليه السلام ما يؤول إليه أمره وأمر من معه ليخرج من يخرج معه، وهو على بيّنة من أمره، وهو أمر يهمّ الإمام كثيراً، ويصرّ عليه في كلّ مراحل حركته بمقدار إصراره على استنصار الناس ودعوتهم للخروج معه على يزيد.

فهو يدعوهم ويعفيهم في وقت واحد، يدعوهم إذا صحّ عزمهم على لقاء الله في خروجهم هذا، وطابت أنفسهم بالقتل في سبيل الله.

ويعفيهم، إذا لم تطب نفوسهم بالقتل في سبيل الله، فإنّ الحسين يسعى إلى الموت، وليس إلى سلطان ولا مال.

ويطلب من الأنصار من يصدق عزمه وتصدق نيّته على ابتغاء القتل في سبيل الله.

ومصيبة الناس في دنياهم إقبالهم على الدنيا وتعلّقهم بها وهروبهم وخوفهم من الموت.

وهو سرّ ضعفهم، وسقوطهم، وخضوعهم للظالمين، وهوان أنفسهم عليهم، هو نقطة الضعف الكبرى في حياتهم. فإذا هانت الدنيا في أعين الناس، وزال الخوف من الموت عن نفوسهم لم يتمكن الظالم من ظلمهم، ولم يعطوا أنفسهم للظلم. وكيف يهرب الإنسان من الموت وقد «خطّ الموت على ولد آدم مخطّ القلادة على جِيد الفتاة».

فالموت يحاصر الإنسان، ولا يستطيع ابن آدم أن يخرج من حصار الموت فلا ينفعه هروب.

ثمّ لماذا يخاف الإنسان من الموت والموت جمال المؤمن وكماله، ويزدان به كما يزدان جيد الفتاة بالقلادة... ولا ينقص من جمال الموت أنّه يحاصر الإنسان كما لا ينقص من جمال القلادة أنّها تطوّق جيد الفتاة. فليس كلّ طوق ذلّ وأسر.

ولست أعرف تصويراً للموت أجمل من هذا التصوير الذي يقدّمه الحسينعليه السلام للموت عشية خروجه إلى العراق.

ثمّ يقولعليه السلام: «وما أولهني إلى أسلافي اشتياق يعقوب إلى يوسف».

إنّ الموت عند الحسينعليه السلام لقاء الله، ولقاء أسلافه الصالحين إبراهيم وموسى وعيسى ورسول الله. وهو يشتاق إلى هذا اللقاء اشتياق يعقوب إلى يوسف. فهو غصن من تلك الشجرة وثمرة طيبة لها يحنّ إليها حنين الفرع

إلى أصله. فليس بالموت يمكن ردع الحسين عليه السلام عن رسالته وقضيّته.

وهذه رسالة الحسين عليه السلام إلى طاغية عصره وإلى أنصاره معاً.

ثمّ يقول عليه السلام: «لا محيص عن يوم خطّ بالقلم. رضا الله رضانا أهل البيت». وهي صورة أُخرى لنفس المشهد ولكن بلون آخر... فقد كان المشهد السابق مشهد الشوق والوله إلى لقاء الله ولقاء أحبّائه، وهذا مشهد التسليم والرضا لأمر الله.

وهو نفس المشهد، ولكن بصيغة أُخرى: وسواء عرض الإمام هذه العاقبة من خلال الاشتياق والوله أو من خلال التسليم والرضا، فالرسالة واحدة والنتيجة واحدة. ثمّ يقول عليه السلام: «لن تشذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمته، وهي مجموعة له في حظيرة القدس».

إنّه من لحم رسول الله صلى الله عليه وآله ودمه وبضعة من رسول الله، من جسمه وروحه، ووعيه، وهداه، وبصيرته، ورسول الله صلى الله عليه وآله هو الخير والهدى كلّه، وما تفرّق من رسول الله صلى الله عليه وآله يجتمع له في حظيرة القدس، ولا تشذ عن رسول الله صلى الله عليه وآله لحمة ولا بضعة له.

ومن أراد أن يجتمع برسول الله صلى الله عليه وآله مع الصدّيقين والصالحين في حظيرة القدس فعليه أن يلتحق بالحسين عليه السلام. ومن شذّ عنه عليه السلام شذّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله. ثمّ يختتم عليه السلام كلامه بهذا الخطاب «ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله».

إنّ السبط الشهيد يسعى إلى لقاء الله، ويطلب من الناس مهجهم ويدعو الناس إلى أن ينتزعوا حبّ الدنيا من قلوبهم، ويوطّنوا أنفسهم للقاء الله.

وهو خطاب عجيب. قلّما نعهد نظيراً له في خطابات القادة السياسيين

والعسكريين إذا دعوا الناس للقتال.

فهوعليه السلام لا يمنّيهم بمال ولا سلطان، إنّما يمنّيهم بلقاء الله، ويطلب منهم أن يوطّنوا أنفسهم للقاء الله، ولا يرضى منهم بغير (مهجهم).

ثم يقول لهم أنّه يتقدّمهم في هذه الرحلة «فإنّي راحل مصبحاً غداً إن شاء الله»ولست أدري ماذا تستبطن هذه الجملة القصيرة «فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله»من العزم، والإرادة، والقوّة، والبصيرة، والهدى، والتسليم لمشيئة الله وإرادته.

وقد شاء الله تعالى أن يكون هذا العزم والإرادة والبصيرة والتسليم مبدأ لبركات كثيرة في تاريخ الإسلام.

وفي منزل البيضة خطب الحسينعليه السلام في أصحاب الحرّ فقال: أيّها الناس إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «من رأى سلطاناً جائراً، ناكثاً عهده مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله».

وهذا الحديث الذي يرويه السبط الشهيد عن جدّه رسول اللهصلى الله عليه وآله منهجاً في العمل السياسي والحركي للمسلمين، يختلف عن المنهج الذي تبنّاه بنو أُميّة في عصرهم، ويلخصه أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب في كلمته المعروفة «نحن مع من غلب».

وقد عمل بنو أُميّة على إشاعة هذا المنهج السياسي بين المسلمين، واختلقوا في ذلك الأحاديث، وبشّروا به من على المنابر لإجهاض كلّ معارضة سياسية وحركية في وجوههم، ولإسباغ الشرعية على حكمهم.

فمن هذه الأحاديث...

روى الحجاج قال: قال لي أبو هريرة:

ممن أنت؟ قلت: من أهل العراق. قال: يوشك أن يأتيك رجال من أهل الشام، فيأخذوا صدقتك. فإذا أتوك فتلقهم بها فإذا دخلوها، فكن في أقاصيها، وخلِّ عنهم وعنها، وإيّاك وأن تسبّهم فإنّك إن سببتهم ذهب أجرك وأخذوا صدقتك وإن صبرت جاءت في ميزانك يوم القيامة[١].

وعن زيد بن وهب قال سمعت عبد الله قال: قال لنا رسول الله ﷺ: إنّكم سترون بعدي أثرة وأُموراً تنكرونها.

قالوا: فماذا تأمرنا يا رسول الله؟ قال: أدّوا إليهم حقّهم، وسلوا الله حقّكم[٢].

وعن جنادة بن أُميّة قال: دخلنا على عبادة بن الصامت، وهو مريض، فقلنا: (أصلحك الله حدّثنا بحديث ينفعك الله به، سمعته من النبيّ ﷺ فقال: دعانا النبيّ ﷺ فبايعناه، فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله، إلاّ أن تروا كفر بواحاً عندكم من الله فيه برهان)[٣].

وهذا أقصى ما يطلبه الحكّام الظلمة من الناس، وفي كتب الحديث الكثير من هذه الروايات التي يأباها القرآن ويرفضها الإسلام.

ونحن من دون أن نناقش هذه الأحاديث مناقشة سندية، نقطع بأنّها منحلة موضوعة على رسول الله ﷺ، ونتّهم في ذلك بني أُميّة أوّلاً. وقد

---

١ ـ الشعر والشعراء: لابن قتيبة: ٥٧٢.

٢ ـ صحيح البخاري ٤: ١٨١ (كتاب الفتن) ط. مصر ١٢٨٦ هـ

٣ ـ المصدر السابق.

خفـي أمر ذلك على كبار المحدّثين الذين رووا هذه الأحاديث وأكثروا من رواياتها.

ودليلنا على ذلك هو القرآن.

ونعتقد أنّ المنهج العلمي الصحيح في نقد الرواية هو عرض الرواية على القرآن.

والنقد من حيث السند يأتي بعد العرض على القرآن، فما خالف القرآن نرفضه ونردّه صحّ سنده أم لم يصحّ. هذا هو منهج أهل البيت عليهم السلام في نقد الرواية.

ولذلك فنحن لا نطيل الوقوف عند مناقشة هذه الروايات ونقدها من حيث السند، فالأمر عندنا أوضح من ذلك. ودليلنا على ذلك آيات مُحكمات من كتاب الله تنهي عن الركون إلى الظالمين وعن طاعة المسرفين.

وإليك إضمامة من آيات كتاب الله:

يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[3].

---

١ ـ هود: ١١٣.

٢ ـ الشعراء: ١٥١ ـ ١٥٢.

٣ ـ الكهف: ٢٨.

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً﴾[1].

وينهض أبو عبد الله سيد الشهداء يومئذ لإزالة هذا اللبس عن سنّة رسول الله ﷺ، فيعلن في الناس، أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى سلطاناً جائراً... فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله».

وهي مسؤولية شاقّة وصعبة، وانطلاقاً من هذه المسؤولية خرج الحسين عليه السلام على طاغية عصره.

فإذا ابتلى الله تعالى المسلمين بسلطان جائر... فلا يسع المسلمين جميعاً إلاّ أن ينهضوا لتغييره، بفعل أو قول، ومَن يسكن إلى الظالم ويسكت عنه «كان حقاً على الله أن يدخله مدخله»... وهي كلمة عجيبة، تستوقف الإنسان طويلاً، وتُشعر الإنسان بثقل المسؤولية الصعبة في ظروف الظلم والاستبداد السياسي. فلا يكفي ألاّ يركن الإنسان إلى الظالم ولا يتعاون معه، ولا يسنده حتّى لا يدخل مدخله في النار، وإنّما يجب عليه أن يسعى إلى تغييره بفعل أو قول، فإن لم يفعل كان حقاً على الله أن يدخله مدخله.

ثمّ يقول عليه السلام «وأنا أحق من غيّر»، ومن أولى من ابن بنت رسول الله ﷺ أن ينهض بالتغيير ويقود حركة التغيير ويدعوا إلى التغيير.

وهو عليه السلام في هذه الرحلة قائد وقدوة، قائد يقود حركة التغيير ويدعو إلى التغيير «وأنا أحق من غيّر».

---

١ ـ النساء: ٦٠.

و(قدوة)، يتقدّمهم في كلّ محنة وعذاب، ويكون نصيبه منه الأوفى. يقول عليه السلام: «فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم. فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله. نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، ولكم فيّ أسوة».

ثمّ يقول: «وإن لم تفعلوا ونقضتم بيعتي.... فحظّكم أخطأتم، ونصيبكم ضيّعتم، ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه».

إنّ آل أبي سفيان أعداء الناس، وقد تمكّنوا من رقاب الناس، وأفسدوا أخلاق الناس ودينهم وقيمهم وأذلّوهم... والحسين عليه السلام يخرج ليقود حركة التغيير، وإن نقضوا عهدهم، فلم يضرّوا إلاّ أنفسهم، وأمكنوا آل أبي سفيان من رقابهم، ووطّنوا أنفسهم لظلم آل أبي سفيان واستكبارهم، وأورثوا أبناءهم ذلاً، ومن نكث فإنّما ينكث على نفسه.

الولاء والبراءة في مرآة عاشوراء

لـ (عاشوراء) علاقة وثيقة بـ (الولاء) و(البراءة).

فهي حركة سياسية كبرى في هذه الأُمّة في مواجهة الطاغوت نهض بها ابن بنت رسول الله ﷺ.

ولهذه الحركة عمق وامتداد. عمق في حركة الأنبياء عليهم السلام في مواجهة طغاة عصرهم، وامتداد في مواجهة الصالحين من هذه الأُمّة لأئمّة الكفر.

وهذه الحركة بمالها من عمق وامتداد محفوفة بـ (الولاء) و(البراءة).

وفيما يلي توضيح لعلاقة (عاشوراء) بـ (الولاء والبراءة).

الولاء

توحيد الولاء:

قبل أن ندخل في تفاصيل الكلام عن الولاء والبراءة، نقول: إن الولاء من مقولة التوحيد دائماً، فلا يقبل الولاء الشرك مطلقاً، وتوحيد الولاء من أهم مقولات التوحيد.

وليس من الممكن أن يجمع الإنسان إلى ولاء الله ولاءً آخر، مهما كان ذلك الولاء...

وأي ولاء آخر، غير ولاء الله فهو لا محالة يقع في مقابل ولاء الله إلاّ أن يكون في امتداد الولاء لله.

وإن أكثر مصاديق الشرك الذي كان يحاربه الأنبياء عليهم السلام، وينقله القرآن

الكريم، هو من شرك الولاء، وليس من الشرك بالخالق.

فقليل من الناس الذين يشركون بالخالق، ويعتقدون بوجود آله خالق غير الله لهذا الكون... ولكن الكثير من الناس من يشرك بالله في الولاء، ويشرك غير الله تعالى مع الله في ولائه، ويوزّع ولاءه وطاعتهُ لله تعالى ولغير الله معاً، ويعطي للطاغوت حظاً من ولائه. وصراع التوحيد والشرك في حياة الأنبياء، في هذا الأمر بالذات في أغلب الحالات.

وهذا الصراع في جوهره صراع عقائدي حضاري.

والبشرية تنشطر شطرين حول هذه المسألة:

ـ شطر يوحّد الله بالولاء والطاعة، ولا يقبل لله تعالى شريكاً في الولاية والحاكمية.

ـ وشطر آخر يتخذ في الحياة محاور أُخرى للولاية، وينقاد لها...

وقد يكون الولاء للهوى، وقد يكون الولاء للطاغوت... ولا يختلف الأمر كثيراً.

والصراع بين هذين الشطرين في حياة البشرية يعتبر كبرى قضايا الإنسان، وأهم الأحداث التي عاشتها البشرية على وجه الأرض في التاريخ.

عناصر الولاء:

الولاء: هو الارتباط بالله سبحانه وتعالى، وأهم عناصر الولاء هو:

اولاً: في الطاعة والانقياد والتسليم.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[1].

---

١ ـ النور: ٥١.

﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[2].

﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾[3].

﴿وَأَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[4].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[5].

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ﴾[6].

وكما إن الولاء لله يتطلب الطاعة لله وللرسول والانقياد والتسليم... كذلك يتطلب رفض الطاعة لغير الله.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾[7].

ثانياً: الحب والإخلاص لله سبحانه وتعالى.

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[8].

---

١ ـ الحجرات: ١٤.

٢ ـ النساء: ١٣.

٣ ـ آل عمران: ٣٢.

٤ ـ آل عمران: ١٣٢.

٥ ـ النساء: ٥٩.

٦ ـ النور: ٥٤.

٧ ـ الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥١.

٨ ـ التوبة: ٢٤.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[١].

ثالثاً: النصرة لله ولرسوله وللمؤمنين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٢].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٣].

قيمة الولاية:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «بُنِيَ الإسلام على خمسٍ على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية، ولم يناد بشيء، كما نودي بالولاية»[٤].

وعن عجلان أبي صالح قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام أوقفني على حدود الإيمان. فقال: بشهادة أن لا إله إلاّ الله، وأن محمّد رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وصلاة الخمس، وأداء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت، وولاية ولينا، وعداوة عدونا، والدخول مع الصادقين»[٥].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: « بُنِيَ الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والصوم والحج والولاية».

قال زرارة (راوي الحديث): فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ قال: الولاية أفضل، لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن... ثم قال: ذروة

---

١ ـ البقرة: ١٦٥.

٢ ـ محمّد: ٧.

٣ ـ الحج: ٤٠.

٤ ـ أصول الكافي ٢: ١٨.

٥ ـ المصدر السابق.

الأمر، وسنامه ومفتاحه، وباب الأشياء، ورضى الرحمن، الطاعة للإمام بعد معرفته.

إنّ الله عز وجلّ يقول: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾.

أما لو أنّ رجلاً قام ليله، وصام نهاره، وتصدق بجميع ماله، وحجّ بجميع دهره، ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه، ويكون جميع أعماله بدلالته إليه، ما كان له على الله حقّ في ثوابه ولا كان من أهل الإيمان. ثمّ قال: «أولئك المحسن منهم يدخله الله الجنّة بفضل رحمته»[1].

وهذا الحديث يوقف الإنسان للتأمل طويلاً فمن قام ليله وصام نهاره... ولم يعرف ولي الله لم يكن له على الله حقّ في ثواب، ولا كان من أهل الإيمان.

الولاية ومسألة الحاكمية والسيادة:

ولا تتم الولاية، من دون ممارسة فعلية للحاكمية والسيادة في حياة الناس.

فإن الإسلام شريعة قائدة في حياة الإنسان يتولّى تنظيم وإدارة المجتمع، وتوجيه المجتمع الإسلامي باتجاه تحقيق أهداف الدعوة وغاياتها، ولا يمكن أن يتحقق شيء من ذلك دون وجود ممارسة فعلية للقيادة والحاكمية في المجتمع الإسلامي.

وهذه القيادة والحاكمية هي التي يسميها القرآن الكريم بـ«الإمامة».

وهي شيء آخر غير الجانب التشريعي من هذا الدين، فإن الطاعة فيما يبّلغ النبيّ ﷺ من أحكام وتشريعات، إنّما هي طاعة لله تعالى، وليس للأنبياء في ذلك دور غير التبليغ والتوجيه.

---

١ ـ أصول الكافي ٢: ١٨، وبحار الأنوار ٦٨: ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

والقـرآن يصـرّح بوجـوب طاعـة الرسـول ﷺ وطاعة أُولي الأمر من بعد الرسول ﷺ في امتداد طاعة الله ومن بعد طاعة الله.

﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

وهـذه الطاعـة ليسـت هـي طاعة الله في امتثال أحكامه، والالتزام بالحلال والحـرام، وإلاّ لـم يكـن شيئاً آخـر غـير طاعـة الله.. ولـم يكـن معنى لطاعة الرسول وأُولي الأمر، بعد طاعة الله تعالى وفي امتداده.

فهـي طاعـة أُخرى إذن غير طاعة الله، وإن كانت في امتدادها... تأتي في مسـاحة الفـراغ التي تتركها الشريعة لأولياء أُمور المسلمين، وتتطلبه مصلحة الأُمّة والإسـلام، ممـا لا يمكـن ضبطها في الشريعة بأحكام ثابتة. ولأجل أن يمـارس هـذا الديـن دوره فـي حـياة الإنسـان، لابـدّ من وجود ممارسة فعلية لهذه القيادة والحاكمية في حياة الناس.

البراءة

والوجـه الآخر لمسألة الولاية البراءة.. ولا ولاية من دون البراءة.. والولاء والبراءة وجهان لقضية واحدة.

ويصـدق الإنسـان في ولائه بقدر ما يصدق في البراءة... فإن الولاء وحده لا يكلـف الإنسـان كثيراً.. وأكثر مما يصيب الإنسان من أذى وعناء في أمره الـبراءة.. ولـيس مـن الصـعب من أن يجامل الإنسان الجميع.. ويمدّ يده إلى الجميع، ويعـيش مـع الكـلّ بسـلام، ويـداري كـلّ العواطـف والأحاسـيس، ويلعـب علـى كلّ الحبال.. ويتجنب الصدام مع الجميع، ويوزع الابتسامة في كـلّ مكـان ويُرضّي الجميع.. أن مثل هذا الإنسان يستطيع أن يعيش في رغد

وعافية، ويستطيع أن يكسب ودّ الجميع وتعاطفهم.. ويستطيع أن يعيش من دون مشاكل ومتاعب.. ولكن لا يستطيع أن يرتبط بمحور الولاية الإلهية على وجه الأرض، ولا يستطيع أن ينتمي إلى هذه الأُسرة المسلمة، التي أعطت ولاءها لله ولرسوله ولأوليائه، ولا يستطيع أن يملك موقفاً، ولا يستطيع أن يُحب ويُبغض ويرضى ويسخط بصدق.. ولا يستطيع أن يتجاوز حدود المجاملة السياسية والاجتماعية في علاقاته.. إن الصدق في التعامل، والموقف من الأحداث، والقوّة والحرّية والصراحة في المواقف لا تتم من دون ولاء.. والولاء لا يتم من دون براءة.. والبراءة تكلف الإنسان الكثير في علاقاته الاجتماعية، وصِلاته في المجتمع وفي الأُسرة وفي راحته وعافيته، وفي استقراره.. وهذه حقيقة من ورائها حقائق كثيرة. أن البراءة ضريبة الولاء.. والتعب والعناء والأذى ضريبة البراءة وهذه معادلات أجراها الله تعالى، بسنته التي لا تتبدل في حياة الإنسان.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: (عشرٌ من لقى الله عزّوجلّ بهنّ دخل الجنّة، شهادة أن لا اله إلاّ الله، وأنّ محمّداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجّ البيت، والولاية لأولياء الله، والبراءة من أعداء الله، واجتناب كلّ مسكر)[1].

---

١ ـ خصال الصدوق ٢: ٥٢.

وقد ورد في رسالة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى النجاشي ملك الحبشة: (وإني أدعوك الى الله وحده، ولا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني إني رسول الله). (مكاتيب الرسول: ١٢٠).

وفي رسالته صلى الله عليه وآله الى أسقف نجران: (إني أدعوكم الى عبادة الله عن عبادة العباد، وأدعوكم الى ولاية الله عن ولاية العباد، فإن أبيتم لا جزية، وان أبيتم آذنتكم بحرب). (مكاتيب الرسول: ١٧٠).

فالفاصلة بين الإسلام والكفر هي الولاية.

وعن رسول الله ﷺ قال: «... إن أوثق عرى الإيمان، الحبّ في الله، والبغض في الله، وتوالي وليّ الله، وتعادي عدو الله»[١].

وعن الرضا عليه السلام: (روي أن الله أوحى إلى بعض عبّاد بني إسرائيل وقد دخل قلبه شيء: «أما عبادتك لي فقد تعزّزت بي، وأما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة، فهل واليت ليّ ولياً وعاديت ليّ عدواً؟ ثم أمر به إلى النار نعوذ بالله منها...)[٢].

ولاء (الأعور):

روي أن رجلاً قدم على أمير المؤمنين عليه السلام: (فقال يا أمير المؤمنين أني أُحبّك وأُحبّ فلاناً وسمي بعض أعدائه.. فقال له عليه السلام: أما الآن فأنت أعور، فإما أن تعمى وإما أن تبصر)[٣].

ورؤية الأعور، نصف الرؤية، فهو يرى بإحدى عينيه فقط.

وكذلك ولاء الإنسان الذي يفقد البراءة.. ولا يجرأ على البراءة.. ويريد أن يجمع بين الكلّ.. ويُرضّي الجميع.

ومثل هذا النمط من الناس لا يبقى أعوراً إلى آخر عمره، بنصف الرؤية.. فإما يهديه الله تعالى فتكتمل لديه الرؤية، وإما أن يفقد هذه الرؤية النصفية، الضعيفة، فيعمى، ويفقد الولاء مطلقاً.

وقيل للصادق عليه السلام: (إن فلاناً يواليكم إلاّ أنه يضعف عن البراءة من

---

١ ـ المحاسن: ١٦٥. وبحار الأنوار ٢٧: ٥٧.

٢ ـ فقه الرضا: ٥١. وبحار الأنوار ٢٧: ٥٧.

٣ ـ بحار الأنوار ٢٧: ٥٨.

عدوكم، فقال عليه السلام: هيهات.. كذب من ادّعى محبتنا، ولم يتبرأ من عدونا)[١].

والسائل، في هذا الحديث، دقيق في طرح السؤال، أن الشخص الذي هو موضع السؤال لا يُشك في ولائه ولكنه يضعف عن البراءة، وضعفه يجعل موقفه من البراءة مهزوزاً وضعيفاً، ولا يملك القوّة الكافية في أن يعلن عن موقفه في الولاء والبراءة، والوصل والفصل، والارتباط والمقاطعة، بشكل صريح وحاسم.

فيجيبه الإمام عليه السلام: إن الولاء الصادق لا يمكن أن ينفصل عن البراءة، ومن يجد في نفسه ضعفاً عن البراءة، فهو كاذب في ولائه.

وفي حديث الأعمش عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (حبّ أولياء الله واجب، والولاية لهم واجبة، والبراءة من أعدائهم واجبة.. والبراءة من الناكثين والقاسطين والمارقين واجبة، والبراءة من الأنصاب والأزلام وأئمة الضلال وقادة الجور كلّهم، أولهم وآخرهم واجبة)[٢].

وعن أبي محمّد الحسن العسكري عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لبعض أصحابه ذات يوم: (يا عبد الله أحبّ في الله، وأبغض في الله، ووالِ في الله، وعادِ في الله، فأنه لا تنال ولاية الله إلاّ بذلك، ولا يجد رجل طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه حتّى يكون كذلك. وقد صارت مؤاخاة الناس في يومكم هذا أكثرها في الدنيا، عليها يتوادّون، وعليها يتباغضون وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً.

فقال له: وكيف لي أن أعلم أني قد واليت وعاديت في الله عزّ وجلّ؟

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ الخصال ٢: ١٥٣ و ١٥٤. وبحار الأنوار ٢٧: ٥٢.

ومَنْ وليّ الله عزّ وجلّ حتّى أواليه؟ ومن عدوه حتّى أعاديه؟

فأشار له رسول الله ﷺ إلى عليّ عليه السلام. فقال: أترى هذا؟ فقال: بلى. قال:وليّ هذا ولي الله فواله. وعدو هذا عدو الله فعاده. قال والِ وليّ هذا ولو أنه قاتل أبيك وولدك، وعادِ عدوِ هذا ولو انه أبوك أو ولدك)[١].

وهذا المضمون قد وردً تأكيده في حديث الغدير المعروف، والمرويّ عن رسول الله ﷺ:

(من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللّهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله).

وقد استوفى العلاقة حجّة الحقّ السيد مير حامد حسين اللكهنوي رحمه الله في عبقات الأنوار والعلاّمة الأميني رحمه الله في الغدير دراسة هذا الحديث الشريف من حيث السند والمتن.

وقد صدّر العلاّمة الأميني كتابه القيّم (الغدير) بحديث عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى نود أن نختم به أحاديث الولاء والبراءة..

عن رسول الله ﷺ قال: (من سره أن يحيى حياتي، ويموت مماتي، ويسكن جنّة عدن التي غرسها ربي فليوالي علياً من بعدي، وليوالي وليه، وليقتد بالأئمّة من بعدي، فأنهم عترتي، خلقوا من طينتي، ورزقوا فهماً وعلماً، وويلٌ للمكذبين بفضلهم من أُمّتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي)[٢].

---

١ ـ التفسير المنسوب الى الإمام العسكري: ٨، معاني الأخبار: ١١٣.

٢ ـ اخرجه الحافظ أبو نعيم في (حلية الأولياء) ١: ٨٦، وأخرجه الحافظ الخطيب البغدادي في تأريخه ٤: ٤١٠.

البراءة والمفاصلة:

إنّ طبيعة هذا الدين طبيعة حركية جهادية، ذلك أنَّ مهمة هذا الدين إبلاغ رسالة التوحيد إلى البشرية جميعاً، وتحرير الإنسان من الطاغوت، وتعبيده لله تعالى. وتقرير أُلوهية الله في حياة الناس. وهذا كلّه ممّا يغيظ الكفر، ويصادر نفوذهم وسلطانهم، ويدفعهم إلى عرقلة مسيرة هذا الدين وتطويقه وإعاقة حركته... ولكي تستطيع هذه الأُمّة أن تحتفظ بأصالتها في هذا الصراع الحضاري وبموقعها الحضاري على وجه الأرض في الدعوة إلى الله لابدّ لها من أن تقاوم كيد أئمّة الكفر ومكرهم، وتدخل معهم في مواجهة حقيقته أولاً، وتعلن المفاصلة عنهم ثانياً والأول (الجهاد) والثاني (البراءة).

وهذه المفاصلة هي التي يقول تعالى عنها: ﴿بَرَاءةٌ مِّنَ اللّه وَرَسُوله إِلَى الَّذينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْركينَ... ✽ وَأَذَانٌ مِّنَ اللّه وَرَسُوله إِلَى النَّاس يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكينَ وَرَسُولُهُ﴾[1].

المواصلة والمفاصلة في المجتمع الإسلامي:

إن طبيعة هذا الدين الحركية ورسالته تتطلبان من الأُمّة حالتين في الداخل والخارج:

التماسك والترابط في الداخل، ﴿وَالَّذينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَئكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[2].

---

١ ـ التوبة: ١ ـ ٣.

٢ ـ الأنفال: ٧٢.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ﴾[١].

حتّى كأنَّ الأُمّة جسم واحد متضامن الأعضاء والأطراف.

«مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى»[٢].

«المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُ بعضه بعضاً»[٣].

«تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا أُخوة بررة كما أمركم الله»[٤].

هذا فيما يتعلّق بالعلاقة بين أطراف هذه الأُمّة من الداخل، وأمّا العلاقة مع الخارج، مع أعداء الله ورسوله وأئمّة الكفر وقادة الاستكبار فهي المفاصلة والبراءة. وتحريم موالاتهم ومودتهم والتحبب إليهم.

﴿لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٥].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٦].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾[٧].

﴿لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ﴾[٨].

---

١ ـ التوبة: ٧١.

٢ ـ رواهما عن رسول الله ﷺ مسلم في صحيحه ٤: ٨ دار الفكر.

٣ ـ المصدر السابق.

٤ ـ بحار الأنوار ٧٤: ٣٩٩.

٥ ـ آل عمران: ٢٨.

٦ ـ النساء: ١٤٤.

٧ ـ المائدة: ٥١.

٨ ـ التوبة: ٢٣.

وهاتان الحالتان: الترابط والتماسك من الداخل والمفاصلة من الخارج، يتطلبان وجود قيادة مركزية، تربط هذه الأُمّة بعضها ببعض في كتلة متراصة واحدة من الداخل، وتفصلها عن أعدائها الذين يريدون بها سوءاً من الخارج[1].

ثم توجه هذه الكتلة المجتمعة باتجاه تحقيق الأهداف الكبرى لهذه الدعوة على وجه الأرض.

وهذه القيادة المركزية التي تمتلك من الأُمّة الطاعة والنصرة والحب (العناصر الثلاثة للولاء).. هي التي يصطلح عليها القرآن الكريم باسم (الولي) أو (الإمام).

وولايته على الأُمّة امتداد لولاية الله ورسوله، وطاعته ونصرته وحبّه امتداد لما يجب على المؤمنين من الطاعة والحب والنصرة لله تعالى، وليس محوراً آخر في عرض هذا المحور.

التوحيد والشرك في الولاء:

ذلك أن الولاء من مقولة التوحيد، ولا ولاية لأحد إلاّ في امتداد ولاية الله وبأمر وإذن من الله.

والولاء لله أما أن يكون أو لا يكون... فإذا كان فلابدّ أن يكون بوجهيه الإيجابي والسلبي، ولا تقل قيمة الوجه السلبي عن الوجه الإيجابي... والوجه السلبي هنا، رفض الولاء لغير الله... ولا يتم الولاء لله تعالى إلاّ برفض

---

١ ـ راجع البحث القيم الذي كتبه سماحة السيد علي الخامنئي ولي أمر المسلمين حفظه الله بعنوان (الولاية).

أي ولاء آخر من دون إذن الله.

وقبول أي ولاء بغير إذن الله يعني الشرك بالله العظيم، وأكثر مصاديق الشرك في القرآن ليس هو الشرك بالخالق، وإنّما هو الشرك في الولاء.

تأملوا في قوله تعالى:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً...﴾[١].

يضرب الله لنا مثلاً في التوحيد والشرك برجلين: رجل يتنازعه شركاء متشاكسون، كلٌّ له ولاية وسلطان عليه، وهم فيما بينهم متشاكسون مختلفون، وهو موزع بين هؤلاء الشركاء المشاكسين. ورجلٌ قد أسلم أمره إلى رجل واحد آخر ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ يطيعه في كلّ شيء، وينقاد له، ويتقبل ولايته وحاكميته.

كذلك التوحيد والشرك، فالموحدون من الناس كالرجل الذي أسلم أمره لرجل آخر في راحة من أمره. والمشركون من الناس كالذي يتنازعه شركاء متشاكسون... وواضح من هذا المثال أن المقصود بالشرك والتوحيد، الشرك في الولاء، والتوحيد في الولاء.

يقول القرآن عن لسان يوسف عليه السلام:

﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٢].

إن صاحبي يوسف عليه السلام لم يكونوا ينكرون الله الواحد القهار، وإنما كانوا يشركون أرباباً متفرقين مع الله في الولاية والحاكمية، فينكر عليهم

---

١ ـ الزمر: ٢٩.

٢ ـ يوسف: ٣٩.

يوسف عليه السلام ذلك، لأنهم أنهم لم يُسلموا أمرهم كلّه لله الواحد القهار.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام في أسباب البعثة: **«بعث الله محمّداً صلى الله عليه وآله، ليخرج عباده من عبادة عباده، إلى عبادته، ومن عهود عباده إلى عهده، ومن طاعة عباده إلى طاعته، ومن ولاية عباده إلى ولايته»**[1].

فالولاية إذن لله سبحانه وتعالى، وتمتدُّ الولاية الإلهية إلى من يشاء ومن يرتضي من عباده فلن تكون ولاية في قبال ولاية الله، ولن تكون ولاية بغير إذن الله، وإنّما هي بإذن الله وأمره، وفي امتداد ولاية الله.

مصدر الحاكمية في حياة الإنسان هو الله:

ويجب أنْ نقف عند هذه النقطة قليلاً، فإن الولاية المشروعة في حياة الأُمّة لما كانت امتداداً لولاية الله لابدّ أن تكون الولاية بإذن الله وأمره، وما لم يأذن الله لأحدٍ بأن يلي أمر عبادهِ لن يكون له الحقّ في أن يتولى شيئاً من أمور الأُمّة.

وبمراجعة القرآن الكريم نجد هذه الحقيقة واضحة، فيما يحكي الله تعالى لنا من تنصيب عباد له ليكونوا أولياء وأئمّة على الناس، ولا تتم لهم إمامة وولاية على الناس، لولا أن الله تعالى قد خصّهم بذلك، وأناط إليهم هذا الأمر. ففي قضية إبراهيم يقول تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[2].

والإمامة هنا بمعنى الولاية... وقد جعل الله تعالى إبراهيم عليه السلام إماماً بعد إن

---

١ ـ الوافي ٣: ٢٢.

٢ ـ البقرة: ١٢٤.

كان نبياً.

وفي قصة داود عليه السلام يقول تعالى:

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[1].

والخلافة هنا بقرينة «فاحكم بين الناس بالحقّ» هي الولاية والحاكمية.

ويقول تعالى في ذرية إبراهيم لما نجاه الله تعالى من القوم الظالمين:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[2].

ولسنا نريد أن نسهب هنا في هذا القول، فله مجاله الخاص به في البحث، وإنما نريد أن نشير إشارة سريعة فقط إلى إن مصدر الحاكمية والسلطان في حياة الإنسان هو الله تعالى، وليست الأُمّة كما تُفسر ذلك النظم والاتجاهات الديمقراطية... فليس لأحد من دون إرادة الله أن يتولى أمراً من أُمور المسلمين.

والله عزّ وجلّ هو مصدر السلطة والحاكمية في حياة الناس، ولا يقتصر أمر ولاية الله في حياة الناس على نفوذ الأحكام الشرعية المحددة من قبل الله في عباده، وإنّما تشمل الممارسة الفعلية للحاكمية والأمر والنهي في حياة الإنسان من خلال الذين اتخذهم الله أولياء وجعلهم أئمّة وخلفاء على الناس.

---

١ ـ سورة ص: ٢٦.

٢ ـ الأنبياء: ٧٢ ـ ٧٣.

التحدّي والصراع:

وهذه الحقيقة تقرر حتميّة الصراع بين محوري الولاية والطاغوت بشكل دائم في تاريخ الإنسان.

أن هذين المحورين يعملان باتجاهين متعاكسين في حياة الإنسان، وكلّ منهما يعمل لاستقطاب ولاء الناس، وقطع الإنسان من المحور الآخر.

إن مُهمّة هذا الدين ورسالته هي استقطاب ولاء الناس لله تعالى، وإنقاذ الناس من التشتّت والتيه والضياع والاختلاف، وتحرير الإنسان من عبودية الطاغوت والهوى، وإزالة العقبات من أمام طريق الإنسان إلى الله تعالى، وربط الإنسان بالله وتعبيده لله تعالى، وإخراجه من الظلمات إلى النور.

وفي قبال هذا المحور الربّاني، يعمل الطاغوت على استقطاب ولاء الناس، ووضع الحواجز والعقبات في طريق الناس إلى الله تعالى، واستعباد الإنسان وإخراجه من النور إلى الظلمات.

وإلى هذا الصراع بين المحورين، تشير الآية الكريمة:

﴿اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّوُرِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

الاستضعاف والاستكبار:

ولما كانت هذه المهمّة التي يتولّى أمرها الطاغوت لا تتحقق إلاّ من خلال استضعاف الإنسان، فإن الطاغوت يتبع أساليب كثيرة في استضعاف

---

١ ـ البقرة: ٢٥٧.

الإنسان، وانتزاع ما أودع الله تعالى في نفسه من القيم والمواهب والكفاءات، ليتأتّى له استعبادهم وترويضهم للطاعة دون طاعة الله. وهذا هو معنى الاستضعاف. ويعبّر القرآن عن هذا المعنى بالاستخفاف. وإذا استخف الطاغوت الإنسان كان كالخشبة العائمة تأخذه الأمواج حيث تريد.

يقول تعالى عن فرعون وقوم فرعون:

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[1].

ومهما يكن من أمر فإن الصراع بين هذين المحورين، من كبريات قضايا التاريخ، ومن أهم العوامل المحركة لعجلة التاريخ.

ومن خلال فهم هذا الصراع نستطيع أن نفهم الكثير من أحداث التاريخ وقضاياه الكبرى ومنعطفاته وثوابته ومتغيراته.

خصائص الصراع:

ونشير هنا إلى بعض خصائص هذا الصراع التاريخي بين هذين المحورين: (الحقّ والباطل).

أن هذه المعركة، معركة عقائدية تستبطن صراعاً عقائدياً ضارياً حول الشرك والتوحيد. وقد أشرنا قريباً، إن جوهر هذا الصراع يدور حول الشرك والتوحيد، وإن أكثر معاني الشرك والتوحيد في القرآن الشرك في الولاء والتوحيد في الولاء.

ولهذا السبب فهي معركة عقائدية في جوهرها. هذا أولاً.

وثانياً: هي معركة حضارية لأنها تعتبر صداماً بين حضارتين: الحضارة

---

١ ـ الزخرف: ٥٤.

الربانية والحضارة الجاهلية، ولكلّ منهما خصائصها... والانتماء إلى أي من المحورين ليس انتماءً سياسياً فقط إلى أحد محاور القوّة والسيادة، وإنّما هو انتماء حضاري ويستتبع هذا الانتماء خصائص وميزات حضارية في أُسلوب التفكير، والإخلاص، والعمل، والعلاقة مع الله تعالى، ومع النفس ومع الآخرين ومع الأشياء... والصراع بين هذين المحورين يعني الصراع بين حضارتين بشكل دقيق.

وثالثاً: إن هذا الصراع صراع سياسي على مراكز القوى.

ولاشك إن كلاً من هذين المحورين يعمل للاستيلاء على مراكز القوى في المجتمع: المال والسلطان، والقوة العسكرية، وثقة الناس ومراكز التوجيه، والرأي العام، والإعلام، والثقافة.

وكلّ منهما يعمل لاستخدام هذه المراكز في تمكين محوره وخطه.

رابعاً: هذه المعركة تدخل في حتميات التاريخ الكبرى، ولا يمكن أن يتخلص منها الإنسان بحال من الأحوال، فإن تعاكس المحاور والخطوط تستدعي بصورة حتمية هذه المعركة في كلّ زمان ومكان. ولا يمكن أن يتخلص منها الإنسان.

إن هذا الدين يصادر كلّ مصالح الطاغوت ووجوده ومراكزه ومواقعه، ولا يمكن أن يتخلى الطاغوت عن دوره في الإفساد على وجه الأرض من دون أن يخوض هو وجنده صراعاً مريراً مع هذا الدين. وهذا الصراع لم يخل منه عصر من العصور، منذ أن خلق الله تعالى الإنسان بهذه التركيبة الخاصّة على وجه الأرض إلى اليوم الحاضر.

والقرآن الكريم يقرّر حتميّة الصراع بين هذين المحورين بشكل جازم، يقول تعالى:

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[١].

خامساً: إن هذا الصراع معركة مصيرية تدوم وتطول... ويعمل كلّ من المحورين على استئصال المحور الآخر من على وجه الأرض، وإنهائه وتصفيّة وجوده ومراكزه ومواقعه بشكل عام... وليست معركة على قطعة من الأرض، أو حدود برية أو بحرية، وليست معركة على بضعة آبار من النفط، أو على كمية من الذهب والفضة... إنها معركة على الوجود والكيان، ولا يرضى كلّ من الطرفين بأقلّ من التصفية الكاملة للطرف الآخر.

﴿وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[٢].

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَوْلاَكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[٣].

فهذه المعركة تستمر حتّى الاستئصال الكامل للفتنة من على وجه الأرض... وبطبيعة الحال لن تكون معركة بسيطة يسيرة، وإنّما هي معركة شرسة، لا يعرف التاريخ نظيراً لها في الحروب من حيث الشراسة والقسوة.

ولذلك فالتفكير في اللقاء والتفاهم والحلول النصفية مع الكفر والطاغوت تفكير فيه كثير من الفجاجة والبساطة والضعف والهزيمة النفسية.

---

١ ـ النساء: ٧٦.

٢ ـ البقرة: ١٢٠.

٣ ـ الانفال: ٣٩ ـ ٤٠.

وإن بداية كلّ هزيمة ميدانية، هزيمة في النفس... وبداية الهزيمة النفسية التفكير في إمكان اللقاء والتفاهم مع الطاغوت، وإنهاء الصراع، والجلوس مع الطاغوت على موائد الصلح.

إن المعركة مع الطاغوت على الوجود، وليس على حدود بريّة أو آبار من النفط أو مساحات من الأرض، حتّى يمكن التفاهم والتصافي والتعايش بسلام وتطبيع العلاقات.

وسادساً: إن هذه المعركة التاريخية تتطلب من الأُمّة المؤمنة مواقف واضحة وحدّية وصارخة في إعلان الولاء والبراءة... الولاء لله ولرسوله ولأولياء أُمور المسلمين، والبراءة من أعداء الله ورسوله وأوليائه.

فلابدّ من موقف...

ولابدّ أن يكون الموقف جدياً...

ولابدّ أن يكون الموقف واضحاً ومعلناً...

لأن المعركة مع أئمّة الكفر جدّ لا هزل فيه، ولا يكفي أن يضمر الإنسان الحبّ لله ولرسوله، ولأوليائه، من دون موقف، ومن دون أن يعرف الناس عنه ذلك... ولا يكفي أن يكون قلبه مع الله ورسوله وأوليائه، وسيفه وحرابه عليهم[١].

ولا يكفي أن يعطي لله ورسوله وأوليائه بعض وقته وماله... ليعطي

١ ـ التقى الحسين عليه السلام في مسيره إلى العراق بمنزل الصفاح بالفرزدق بن غالب، فسأله عن خبر الناس خلفه فقال الفرزدق: قلوبهم معك والسيوف مع بني أُمية فقال الحسين عليه السلام والقضاء ينزل من السماء، وكلّ يوم ربنا في شأن ان نزل القضاء، بما نحب فنحمد الله على نعمائه وهو المستعان على أداء الشكر، وان حال القضاء دون الرجاء فلم يعتد من كان الحقّ نسبه والتقوى سريرته. مقتل الحسين للمقرّم: ١٨٢، نقلاً عن الطبري ٦: ٢١٨، وابن الأثير ٤: ١٦.

للطاغوت البعض الآخر... إن الولاء كلٌ لا يتجزأ، فإما أن يكون الكلُّ لله، أو لا يكون لله منه شيء، فإن الله غنيٌّ عن العالمين.

إن الولاء، يتطلب الموقف المحدّد، والإشهار بالموقف في الانتماء والانفصال... وفي الحبّ والبغض... وفي المودة والمعاداة... وفي السلم والحرب...

وسابعاً: أن الولاء والبراءة وجهان لحقيقة واحدة في هذه المعركة... ولا ينفع ولاء من دون براءة، ولا يؤدي الولاء دوره الفاعل في حياة الأُمة ما لم يقترن بالبراءة من أعداء الله ورسوله وأوليائه.

ولا يتكون الموقف هنا من الولاء فحسب، إن للموقف وجهين: وجه إيجابي ووجه سلبي، سلم وحرب، وانتماء وانفصال، وحب وبغض، وما لم يجتمع هذا وذاك لن يكون الموقف موقفاً حقيقياً وإنّما يكون شُعبُه من شُعب النفاق وطوراً من أطوار المجاملة السياسية واللعب على الحبال...

يقول تعالى في هذين الوجهين:

﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾[1].

ثامناً: وكما إنّ محور الولاية، مركز واحد، وخط واحد، وامتداد واحد، على طول التاريخ، كذلك محور البراءة.

ونحن لا نفرق في الولاء بين أنبياء الله وأوليائه القريب منهم من عصرنا والبعيد منهم عن عصرنا... فكلهم يحملون رسالة الله ويبلّغون دين الله، وآتاهم الله من لدنه النبوّة والإمامة والولاية على عباده... نواليهم جميعاً، ونؤمن بما أنزل الله إليهم، لا نفرق بين أحدٌ منهم.

﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

١ ـ الفتح: ٢٩.

وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[١].

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[٢].

كذلك.. نتبرأ من أعدائهم جميعاً.. نتبرأ من فرعون ونمرود، كما نتبرأ من أبي جهل ويزيد، وكما نتبرأ من طغاة وجلاوزة عصرنا.

وكما أن الولاء أمر واحد، كذلك البراءة أمر واحد.

ومثلما نتبرأ من طغاة عصرنا ونلعنهم، لنفس الأسباب نلعن الحجّاج ويزيد وأبا جهل ونمرود وفرعون وقابيل.

فإن المعركة بين محوري الحق والباطل ليست معركة شخصية، وإنّما هي معركة حضارية، تمتد جذورها إلى أعماق التاريخ.

وكما أن المعركة في جوهرها واحدة في كل مراحلها، كذلك الولاء والبراءة.

عاشوراء مسرح للولاء والبراءة:

وننتقل الآن إلى (عاشوراء).

إن وقعة الطف من المواقع المؤثرة، العقائدية والحضارية الكبرى في التاريخ. التي لا يملك الإنسان نفسه من.. أن يمر عليها مروراً عابراً، أو يقف

١ ـ البقرة: ١٣٦.

٢ ـ البقرة: ٢٨٥.

عليها وقوفاً متفرجاً أو يقرأها بلا مبالاة ولا اكتراث.. ورغم مرور أكثر من ألف وثلاثمائة عام على هذه الواقعة المفجعة.. فإنّها لا تزال تملك تأثيراً فوق العادة على النفوس والقلوب والعقول، وتفرض نفسها على كل من آتاه الله بصيرة ووعياً في دينه.

ولا تزال الأجيال تتلقى قضية كربلاء بحرارة وحماسة، وتتفاعل معها في الإيجاب والسلب والولاء والبراءة.

فما هو السرّ الكامن في هذه الوقعة، والذي جعل منها مرآة للولاء والبراءة. عبر هذا التاريخ الطويل.

عاشوراء يوم الفرقان:

إن عاشوراء تتميز بالوضوح الكامل الذي لا يبقى شكاً لأحدٍ في طرفي المعركة.

فلم يكن هناك التباس في أمر المعركة التي حدثت على أرض الطف، ولم يكن أحدٌ من المسلمين يومئذٍ يشك في أن الحسين عليه السلام، يدعو إلى الله ورسوله وإلى الاستقامة على صراط الله المستقيم، وإن يزيد بن معاوية قد تجاوز حدود الله، وأعلن الحرب على الله رسوله، وأعلن الفسق والفجور، وهو يجلس مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولم يكن احدٌ من المسلمين يومئذٍ يتردّد لحظة واحدة وهو يقف على ساحة الصراع بين أبي عبد الله الحسين عليه السلام ويزيد بن معاوية، أن الحسين على هدى ويزيد على ضلالة.

وعليه فلم يكن في أمر هذه المعركة خفاء أو لبس.. فمن وقف مع

الحسين عليه السلام وقف عن بيّنة، ومن وقف مع يزيد وقف عن بيّنة...

وقليل من مشاهد الصراع بين الحقّ والباطل يمتلك هذا الوضوح الذي تمتلكه واقعة الطف.

وقف الحسين يوم عاشوراء بين الصّفين وقال مخاطباً جيش ابن زياد: (أيّها الناس أنبئوني من أنا ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها، وانظروا هل يحل لكم قتلي وانتهاك حرمتي؟ ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه، وأول المؤمنين بالله، والمصدّق لرسوله بما جاء من عند ربه؟ أو ليس حمزة سيد الشهداء عمّي؟ أوليس جعفر الطيار عمي؟ أو لم يبلغكم قول رسول الله لي ولأخي: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ فإن صدقتموني بما أقول وهو الحقّ. فوالله ما تعمدت الكذب منذ علمت إن الله يمقت عليه أهله، ويضرُ به من اختلقه.

وإن كذبتموني فإن فيكم من إن سألتموه عن ذلك أخبركم. سلوا جابر بن عبد الله الأنصاري، وأبا سعيد الخدري، وسهل بن سعد الساعدي، وزيد بن أرقم، وأنس بن مالك، يخبرونكم أنهم سمعوا هذه المقالة من رسول الله لي ولأخي. أما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي.

فقال شمر: هو يعبد الله على حرف إن كان يدري ما يقول.

فقال له حبيب بن مظاهر: (والله أني أراك تعبد الله على سبعين حرفاً. وأنا أشهد أنك صادق ما تدري ما يقول، وقد طبع الله على قلبك)[1].

وقال الحسين عليه السلام للوليد عامل يزيد على المدينة، لما أراد أن يجبر الحسين عليه السلام على البيعة ليزيد والرضوخ له:

---

١ ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٢٣.

(يا أيّها الأمير إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمور، وقاتل النفس المحترمة معلن الفسق، ومثلي لا يبايع مثله)[١].

الفاصل الحضاري بين المعسكرين في عاشوراء:

لقد كانت الجبهتان المتصارعتان في كربلاء متميزتين في انتمائهما لمحور الولاية الإلهية، والطاغوت، ولم يكن الأمر يخفى على أحد.

(لقد مضى أصحاب الحسين عليه السلام ليلة العاشر ولهم دويّ كدوي النحل، بين قائم وقاعد وراكع وساجد)[٢].

سمة العبيد من الخشوع عليهم لله أن ضمتهم الأسحار
وإذا ترجّلت الضحى شهدت لهم بيض القواضب إنّهم أحرار[٣]

وتقول فاطمة بنت الحسين: (وأما عمتي زينب فإنّها لم تزل قائمة في تلك الليلة في محرابها تستغيث إلى ربها.. والله، فما هدأت لنا عين ولا سكنت لنا رنّة)[٤].

كذلك كان الأمر في معسكر الحسين عليه السلام الشوق إلى لقاء الله والإعراض عن الدنيا وزخرفها، والانقطاع عن الدنيا إلى الله حتّى لقد كان بعضهم يداعب أصحابه ويمازحهم في تلك الليلة فقد هازل برير عبد الرحمن الأنصاري رضي الله عنه.

---

١ ـ مقتل الحسين للسيد عبد الرزاق المقرم: ١٢٧ ط. النجف.

٢ ـ مقتل الحسين للمقرّم: ٢٣٨.

٣ ـ ديوان السيد حيدر الحلي ١: ٣٥ من قصيدة له يرثي بها الحسين عليه السلام.

٤ ـ مثير الأحزان: ٥٦.

فقال لـه عبد الرحمن: (ما هذه ساعة باطل. فقال برير: لقد علم قومي ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، ولكنّي مستبشر بما نحن لاقون والله ما بيننا وبين الحور العين، إلاّ أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم.. ولوددت أنّهم مالوا علينا الساعة)[1].

والطرف الآخر في هذه المعركة كان همّه ما يصيب من الذهب والفضة والإمارة والجائزة في قتال ابن بنت رسول الله.

فقد تولى عمر بن سعد أمر قتال ابن بنت رسول الله طمعاً في إمارة الري.

يقول اليافعي: (ووعد الأمير المذكور (عمر بن سعد) أن يملّكه مدينة الري، فباع الفاسق الرشد بالغي وفيه يقول:

أأترك ملك الري والري بغيتي ... وأرجع مأثوماً بقتلِ حسين

ثمّ يقول: (وحزّ رأس الحسين بعض الفجرة والفاسقين وحمله إلى ابن زياد ودخل به عليه وهو يقول:

أوقر ركابي فضةً أو ذهباً ... إني قتلت الملك المحجبا

قتلت خير الناس أماً وأبا ... وخيرهم إذ يذكرون نسبا

فغضب ابن زياد من قوله وقال له: (إذا علمت أنه كذلك فلمَ قتلته؟ والله لا سلمت مني خيراً أبداً)[2].

ويتبجح الأخنس بن مرثد الخضرمي في رضّه للأجساد الطاهرة بعد استشهادهم وهو يعلم أنه يعصي الله تعالى في طاعة أميره ويقول كما يروي الخوارزمي:

---

١ ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٤١.

٢ ـ انظر مرآة الجنان لليافعي ١: ١٣٢. روايات السيد المهزبان.

نحن رضضنا الظهر بعد الصدر بكل يعبوب شديد الأسر
حتى عصينا الله رب الأمر بصنعنا مع الحسين الطهر[١]

لقد كان هم الحسين وأصحابه في كربلاء مرضاة الله ولقاء الله... وكان هم جند ابن زياد، ما يدفع لهم الأمير من الجائزة والإمارة والذهب والفضة.

لم يكن في الأمر إذَنْ أي خفاء. وجميع الذين عاصروا المعركة أو شاهدوها أو وقفوا عليها من قريب أو بعيد... كانوا يميزون فيها الحقّ من الباطل، ودعوة الله عن دعوة الطاغوت.

ولم يتخلف أحد عنها عن جهل أو لبس، وإنما عن إيثار العافية والراحة على القتل في سبيل الله... ولم يشهر أحد فيها السيف على ابن رسول الله عن لبس أو جهل... وإنما عن وضوح وعلم بأنهم يحاربون الله ورسوله وأوليائه بقتال الحسين عليه السلام.

وهذا الوضوح في ساحة المعركة يجعل معركة الطف معركة متميزة من بين سائر المواقع التاريخية... أنها تعكس صورة صارخة من صراع الحقّ والباطل، ومجابهة بين الولاء الله والولاء والطاغوت. ولذلك كانت هذه المعركة رمزاً خالداً للصراع بين الحقّ والباطل. ومسرحاً للولاء والبراءة، في حياة المؤمنين.

إن وقعة الطف لا تبقي مجالاً لأحد في التردّد والتأمل.

فهي المواجهة الصارخة بين الحقّ والباطل، وجند الله وجند الشيطان، والهدى والضلال...

...فلابدّ من موقف محدد واضح في هذه القضية... فإن لم يكن هذا

١ ـ مقتل الحسين عليه السلام للخطيب الخوارزمي ٢: ٣٩.

الموقف موقف الولاء لجند الله والبراءة من أعدائهم... فهو لا محالة موقف الرضى بفعل يزيد وجنده، وهو الموقف الذي يستحق اللعن والطرد من رحمة الله، كما في زيارة وارث.

وحدة الولاء والبراءة في زيارة (وارث):

إن النصّ المعروف في زيارة الحسين عليه السلام باسم زيارة (وارث) نصّ حافل بمشاهد الولاء والبراءة.

ومن أهم هذه المشاهد: وحدة الولاء والبراءة، ووراثة الحسين عليه السلام للأنبياء عليهم السلام، وربط الولاء للحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه بالولاء للأنبياء:وربط قيم عاشوراء بالقيم الموروثة من تاريخ الأنبياء عليهم السلام.

ولعلّ التسليم على الحسين عليه السلام في زيارة وارث، بصفته وارثاً للأنبياء عليهم السلام للإشارة إلى هذه الحقيقة.

(السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله،

السلام عليك يا وارث نوح نبي الله،

السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله،

السلام عليك يا وارث موسى كليم الله،

السلام عليك يا وارث عيسى روح الله،

السلام عليك يا وارث محمّد حبيب الله،

السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله)[1].

فإن هذه الصفوة من أولياء الله وعباده الصالحين امتداد واحد لولاية الله

---

١ ـ زيارة وارث.

على وجه الأرض، وخط حضاري واحد، يَدعون إلى الالتفاف حول محور واحد، ويحملون قضية واحدة، كما أن أعداءهم أُمّة واحدة، وخط حضاري واحد، وحرب واحدة، رغم كلّ التباينات والتقاطعات الموجودة بينهم.

فالإحساس بوحدة الولاء، ووحدة البراءة، يعمّق الشعور بأن الأُمّة المسلمة على امتداد التاريخ منذ آدم عليه السلام إلى اليوم الحاضر أُسرة واحدة، تلتف حول محور واحد، وتحارب جبهة واحدة، وتشترك في الحبّ والبغض والسلم والحرب، وقضيتها قضية واحدة، ومهمتها على وجه الأرض مهمة واحدة، وخطها واحد، وحضارتها واحدة، وإيمانها واحد.

إنّ هذا الإحساس بمعية الله ومعيّة المؤمنين يزيل الشعور بالوحشة عن نفوس الدعاة إلى الله تعالى في خضم الصراع مع الطاغوت، وفي مواجهة شوكة الطاغوت وجبروته وكبريائه.

فقد كان إبراهيم عليه السلام وحده أُمّة قانتاً لله في مواجهة نمرود.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

مشاهد الولاء في زيارة (وارث)

مشاهد الولاء في متن هذه الزيارة ثلاثة:

١ ـ **التسليم**: السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله...

٢ ـ **الشهادة**: أشهد أنك الإمام البر التقي الرضي...

٣ ـ **الموقف**: قلبي لقلبكم سلم، وأمري لأمركم متّبع...

---

١ ـ النحل: ١٢٠.

وضمن هذه المراحل الثلاثة يعبّر الزائر عن ولائه للحسين عليه السلام في المعركة الكبرى التي وقف فيها أبو عبد الله في مواجهة طاغية عصره... ينطلق فيها من جذور هذه المعركة التاريخية إلى يومنا هذا.

والولاء يتجسد في هذه الزيارة ضمن هذه المفاهيم الثلاثة وهي:

١ ـ السلام والأمن والمحبة (التسليم).

٢ ـ الثقة المطلقة (الشهادة بالإمامة وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر).

٣ ـ الموقف تجاه محور الولاية.

وسنعرض فيما يأتي هذه المشاهد الثلاثة للولاء في زيارة وارث.

السلام في (النفس) و(المجتمع):

وأول هذه المشاهد التسليم ضمن ثلاث فقرات:

(السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله...

السلام عليك يا بن محمّد المصطفى...

السلام عليك يا ثأر الله وابن ثاره...).

والتسليم من أهم عناصر الولاء، وهو بمعنى ترك المشاكسة، والمشاققة، والاختلاف، واللجاج، والعناد، داخل النفس وفي السلوك، وإزالة عوامل البغضاء والكراهية والضغينة والاختلاف في الرأي والمخالفة، وإحلال المحبّة والمودّة والانسجام النفسي والطاعة والانقياد والتسليم محل المشاققة والمخالفة واللجاج والبغضاء.

وهذه العلاقة، في التسليم، تأتي في خاتمة الصلاة، في السلام، (السلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته).

وكأنَّ حصيلة الصلاة، وحصيلة هذا العروج الروحي إلى الله تعالى هي التسليم والطاعة والانقياد والمحبّة والمودّة لله ولرسوله ولأوليائه.

و(السلام) ليس فقط أساساً للعلاقة مع الله ورسوله، وإنّما هو أيضاً أساس للعلاقة مع الأُمّة المسلمة الملتفة حول هذا المحور.

وقد اعتبر الإسلام (السلام) تحيّة بين المؤمنين. وجعل هذه التحية خاتمة للصلاة (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين). وهذا الاهتمام بنشر السلام بين أعضاء هذه الأُسرة للتأكيد على نوع العلاقة القائمة بين أفراد وأعضاء الأُسرة المسلمة، وأن هذه العلاقة قائمة على أساس ترك المشاققة والمخالفة وإزالة البغضاء والضغائن والكراهية من النفوس وبذل المحبّة والمودّة في النفوس والانسجام والوفاق والتعاون والتناصر في السلوك.

الشهادة للحسين عليه السلام بإمامة المسيرة:

تأتي بعد ذلك الشهادة ضمن ثلاثة فقرات:

١ ـ الشهادة للحسين عليه السلام بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف (أشهد أنك قد أقمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وأطعت الله ورسوله حتى أتاك اليقين)[1].

و(إقامة الصلاة) هنا غير أداء الصلاة.

إن أداء الصلاة تكليف شخصي وفريضة شخصية.

أمّا إقامة الصلاة فهي تثبيت الصلاة والارتباط بالله وإعلان الصلاة وتفعيلها في حياة الإنسان.

---

١ ـ زيارة وارث.

...ثم (وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر).

فلم يكن الحسين عليه السلام يبتغي من خروجه على يزيد ملكاً أو سلطاناً أو جاهاً، وإنّما كان يعمل لتثبيت دعائم المعروف وهدم أُسس المنكر وإقامة محور الولاية لله وهدم محور الطاغوت.

وقد خطب الحسين عليه السلام يوم عاشوراء فقال:

(ألا ترون إلى الحقّ لا يعمل به والى الباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله... إني لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ بَرما)[١].

وفي منزل (البيضة) خطب الحسين عليه السلام في أصحابه فقال: (أيّها الناس إن رسول الله قال: من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرام الله، ناكثاً عهده، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله.

ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمان، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله وأنا أحق من غيّر...)[٢].

فلم يكن الحسين عليه السلام يطلب سلطاناً أو مالاً... وهو يرى أنه يستقبل الموت في سفره هذا، وإنّما كان يرى ظالماً جائراً، يفسد في الأرض، ويهلك الحرث والنسل، ويحلل حرام الله، ويتجاوز حدود الله.. فنهض عليه السلام بالعصبة المؤمنة التي احتفت به في كربلاء، لفضح الطاغية وكسره والتشهير به وتسقيطه أمام الرأي العام الإسلامي المضلّل، وتوعية الرأي العام بحقيقة

١ ـ حلية الأولياء لأبي نعيم ٢: ٣٩.

٢ ـ تاريخ الطبري ٦: ٢٢٩.

الطاغية وإفساده في الأرض، وانتزاع الأُمّة من محور الطاغوت وإعادتها إلى محور الولاية الإلهية.

٢ ـ الشهادة بـ (الطهر) والنزاهة للحسين عليه السلام. النزاهة من كلّ إثم وذنب، والعصمة من كلّ خطأ وزلل وعصيان... طهارة النفس والسلوك... ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

والشهادة بأن هذه النزاهة وهذا الطهر، طهر موروث، خلفاً عن سلف. وقد شاء الله تعالى أن يحتفظ بهذا الطهر في هذه السلالة الطيبة، عبر الحضارات الجاهلية التي سادت حياة الإنسان... وعبر ظلمات الحضارات الجاهلية. استمر إشعاع هذا النور الإلهي في ظلمات حياة الإنسان، واستمر هذا الطهر بين أرجاس الجاهلية لم يتلوث ولم يلبسه شيء من مدّلهمات ثيابها...

وقد اصطفى الله تعالى هذه السلالة المباركة للإمامة في حياة الإنسان عبر العصور المختلفة.

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

ولنقرأ هذه الفقرة من الشهادة في زيارة وارث:

(أشهد أنك كنتً نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجسك الجاهليةُ بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها...)[3].

---

١ ـ الأحزاب: ٣٣.

٢ ـ آل عمران: ٣٣ـ٣٣. (حماة الوحي) للشيخ شهاب الدين الاشرافي والشيخ محمّد موحد يفاضل في تفسير هذه الآية الكريمة وعلاقتها بإمامة أهل البيت عليهم السلام: ص ١٧٦ ـ ١٨٦.

٣ ـ زيارة وارث.

ولا أُحبّ أن أتجاوز هذه الفقرة دون أن أُشير إلى جمال التعبير في هذه الفقرة...

إن الطهر في هذا البيت الطاهر حصيلة اللقاح بين أصلاب شامخة وأرحام مطهرة. أصلاب شمخت وترفعت مما يتساقط حوله الناس من متاع وزخرف زائل، وأرحام طُهرت وسلمت من أوضار وأوساخ وأدناس الحضارات الجاهلية التي تناوبت على حياة الإنسان...

٣ ـ الشهادة بموقع الحسين عليه السلام من حياة الأُمّة ومركزه القيادي الذي وضعه الله فيه، وما آتاه الله تعالى من الإمامة والولاية على المسلمين.

(أشهد أنك من دعائم الدين وأركان المؤمنين، وأشهد أنك الإمام البرّ التقي، الرضي، الزكي، الهادي، المهدي.

وأشهد أن الأئمّة من ولدك كلمة التقوى، وأعلام الهدى، والعروة الوثقى، والحجّة على أهل الدنيا)[1].

الموقف:

والمشهد الثالث للولاء في هذه الزيارة (الموقف) بعد مشهد التسليم والشهادة.

والموقف هنا في (الإيمان والرأي) اوّلاً وفي (العمل) ثانياً.

الموقف النفسي في (الإيمان والرأي): (أنّي بكم مؤمن وبإيابكم موقن، بشرائع ديني وخواتيم عملي، وقلبي لقلبكم سلم)[2].

---

١ ـ زيارة وارث.

٢ ـ زيارة وارث.

والموقف في (العمل): (وأمري لأمركم متبع)[١].

مؤمن بولايتكم وإمامتكم وقيادتكم. وأصدق دليل على هذه الدعوى: أنني أُسلّمكم شرائع ديني وخواتيم عملي.. فليس شيء أعز عند الإنسان المؤمن، من شرائع دينه الذي يدين به لله تعالى، وخواتيم عمله، الذي يختم بها حياته، حيث لا يمكن أن يتدارك منه شيئاً. فإن من الممكن أن يتدارك الإنسان ما فرّط فيه من أعماله، وإصلاحها بالتوبة.. ومراجعة النفس، وتصحيح العمل... أما خواتيم العمل فهي التي تقرر عاقبة الإنسان ومصيره.. ونحن نأخذ منكم شرائع ديننا وخواتيم أعمالنا... وليس شيء أدل على الثقة والصدق في الولاء من ذلك.. ومن خلالكم نأخذ معالم ديننا وبكم هدانا الله تعالى.

ثمّ هذا التسليم المطلق الذي لا يشوبه شقاق، ولا يعكّره ريب في أعماق النفوس: تسليم القلب للقلب، (وقلبي لقلبكم سلم)، فإنّ انسجام القلوب، وتلاقي القلوب، وتفاهم القلوب من أسمى معاني ومصاديق (السلم)... هذا أولاً.

وثانياً (التبعية المطلقة) والانقياد والتسليم في مقام العمل (وأمري لأمركم متبع) وهو يؤول إلى التسليم لأمر الله تعالى.

والموقف هنا إيمان مطلق، وتسليم مطلق، وثقة مطلقة في النفس.. ويستتبعه الالتزام الكامل، والتبعية الكاملة في مقام العمل.

وورد في زيارة الحسين عليه السلام الخاصّة في يوم عرفة (إنّي سلم لمن

١ ـ زيارة وارث.

سالمكم، وحرب لمن حاربكم، وولي لمن والاكم وعدوّ لمن عاداكم إلى يوم القيامة)[١].

وفي زيارة الأربعين الخاصّة: (أشهدُ أني بكم مؤمن، وبإيابكم موقن، بشرائع ديني وخواتيم عملي، وقلبي لقلبكم سلم، وأمري لأمركم متبع، ونصرتي لكم معدّة حتى يأذن الله لكم، فمعكم معكم، لا مع عدوكم، صلوات الله عليكم وعلى أرواحكم وأجسامكم وشاهدكم وغائبكم)[٢].

فالنصرة معدّة وجاهزة انتظر فيها إذن الله تعالى.

معكم، معكم:

ثم بعد ذلك يأتي هذا النّشيد الولائي الرائع.. وهذه النغمة الإيمانية العذبة... (فمعكم، معكم، لا مع عدوكم...).

بالتأكيد، بتكرار المعيّة (فمعكم، معكم) وبالسلب والإيجاب... والولاء والبراءة (لا مع عدوكم) نردّد هذه التلبية الولائية لداعي الله، الذي وقف يوم عاشوراء في كربلاء... يدعو البشرية إلى العودة إلى الله وتحطيم الطاغوت، وكسر كبريائه وجبروته، والعودة إلى عبودية الله.

(لبيك داعي الله، إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك، ولساني عند استنصارك، فقد أجابك قلبي..)[٣].

وإن أفضل التّلبية تّلبية القلب... فإذا فاتتنا تلبية داعي الله بأبداننا في كربلاء، فإن قلوبنا التي عمرها الله تعالى بولائه وولاء أوليائه لا تنفك عن

---

١ ـ انظر زيارة الحسين الخاصّة ليوم عرفة، وزيارة عاشوراء.

٢ ـ زيارة الأربعين.

٣ ـ الزيارة المخصوصة لأول من رجب.

الاستجابة لدعوته، بمقارعة الظالمين، وكسر شوكتهم وسلطانهم، وتعبيد الناس لله، وتحكيم شريعة الله تعالى وحدوده في حياة الإنسان، وانتزاع الإنسان من محور الطاغوت إلى محور الولاء لله تعالى.

الطوائف الثلاثة الملعونة

وقد وردّ اللعن والبراءة في زيارة وارث لثلاثة أُمم وطوائف:

(فلعن الله أُمّة قتلتك.

ولعن الله أُمّة ظلمتك.

ولعن الله أُمّة سمعت بذلك فرضيت به)[١].

١. الطائفة الأولى (المباشِرة بالقتل):

والطائفة الأولى: هي الطائفة التي باشرت قتال الحسين عليه السلام، (لعن الله أُمّة أسرجت وألجمت وتهيأت وتنقبت لقتالك يا مولاي يا أبا عبد الله)[٢].

٢. الطائفة الثانية (المعينة بالقتل):

والطائفة الثانية: هي الطائفة التي ظلمت الحسين عليه السلام وجارت عليه، ومكنت منه، وشايعت، وبايعت، وظاهرت عليه، وخالفته. وهذه الطائفة تشمل كلّ أُولئك الذين اعدوا لقتال الحسين عليه السلام، أو مكّنوا منه، أو خالفوه، أو ظاهروا عليه، أو ساهموا في الإعداد لقتاله، أو أعانوا الطاغية في قتاله بطريقة أو أُخرى... وأشياع هؤلاء جميعاً وأتباعهم.

---

١ ـ زيارة وارث.

٢ ـ زيارة وارث المطلقة. وباختلاف يسير عن زيارة عاشوراء المخصوصة.

وقد ورد اللعن والبراءة من هذه الطائفة، في طائفة واسعة من الزيارات بصيغ مختلفة. ففي زيارة عاشوراء المخصوصة:

(فلعن الله أُمّة أسست أساس الظلم والجور عليكم أهل البيت، ولعن الله أُمّة دفعتكم عن مقامكم، وإزالتكم عن مراتبكم التي رتبكم الله فيها.. ولعن الله أُمّة قتلتكم ولعن الله الممهدين لهم بالتمكين من قتالكم، برئت إلى الله وإليكم منهم ومن أشياعهم وأتباعهم)[١].

وأيضاً جاء في زيارة عاشوراء **(وأبرأ إلى الله ورسوله ممن أسس أساس ذلك ـ الظلم والجور عليكم أهل البيت ـ وبنى عليه بنيانه وجرى في ظلمه وجوره عليكم وعلى أشياعكم برئت إلى الله وإليكم منهم)**[٢].

وهذه الطائفة طائفة واسعة تشمل كلَّ أُولئك الذين ساهموا في قتال الحسين أو مكّنوا من قتاله أو أعدوا له أو بايعوا الطاغية على قتاله أو شايعوا أو ظاهروا عليه..

٣. الطائفة الثالثة (الشريحة الراضية):

والطائفة الثالثة: هي الطائفة التي سمعت بذلك فرضيت به.

وهذه الطائفة تستوقف الإنسان طويلاً فمن هم أُولئك الذين سمعوا بذلك فرضوا به؟

إن هذه الطائفة ليست بالتأكيد مشاركة في القتال ولا هي مشاركة في ممارسة الظلم بصورة عملية، ولا كانت تدخل ضمن الطائفة الأُولى أو الثانية وإلاّ لم يكن من موجب لإفرادها بالذكر ثالثاً.

---

١ ـ زيارة عاشوراء المخصوصة.

٢ ـ زيارة عاشوراء المخصوصة.

فهذه الطائفة لابدّ أن تكون ممن سمعوا استنصار الحسين عليه السلام ولم ينصروه وآثروا العافية على الوقوف بجانب سيد الشهداء عليه السلام في معركة الطف... وخذلوا سيد الشهداء عليه السلام ولم ينصروه في يوم عاشوراء... وهذه الطائفة لابدّ أن تكون راضية بما حدث في يوم عاشوراء..

فلا يمكن أن يتم هذا الخذلان والسكوت والقعود عن نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله في معركته مع طاغوت عصره والقعود بعد ذلك عن أخذ ثأره لولا إنهم كانوا راضين بما حدث.

أن تخلف هؤلاء عن الالتحاق بالحسين عليه السلام وتقاعسهم عن نصرة الحسين، وإيثارهم للعافية في دنياهم على آخرتهم، ينطوي على الرضا بما قام به يزيد.. وإن لم يكن كذلك فإن كلّ هذا التخلف والتقاعس وإيثار العافية يؤدي أخيراً إلى الرضا بالظلم.. وهذه العاقبة هي مآل هذا الخذلان.

وقد ذكرت هذه الطائفة في نصوص أُخرى للزيارة بصيغ مختلفة كلّها تصب في معنى التخاذل عن نصرة (أبي عبدالله الحسين) عليه السلام والتقاعس عن الالتحاق به وإيثار العافية على الوقوف إلى جانب سيد الشهداء عليه السلام.

فقد ورد في الزيارة المطلقة الثانية:

(لُعنت أُمّة قتلتكم وأُمّة خالفتكم وأُمّة جحدت ولايتكم وأُمّة ظاهرت عليكم وأُمّة شهدت ولم تستشهد...)[1].

وموضع الشاهد الفقرة الأخيرة (وأُمّة شهدت ولم تستشهد).

وورد في الزيارة المطلقة السابعة:

(وأشهد إن قاتلك في النار، أدين الله بالبراءة ممن قتلك وممن قاتلك

١ ـ الزيارة المطلقة الثانية.

وشايع عليك، وممن جمع عليك، وممن سمع صوتك ولم يعنك)[1].

وموضع الشاهد، (وممن سمع صوتك ولم يعنك).

وورد في زيارة ليلة القدر وليلة العيدين:

(أشهد أن الذين خالفوك وحاربوك، والذين خذلوك والذين قتلوك ملعونون على لسان النبيّ الأُميّ)[2].

وواضح في هذا النص إن الطوائف الثلاثة الملعونة هي:

١ ـ الطائفة التي خالفت وظلمت.

٢ ـ والطائفة التي قاتلت الحسين وقتلت.

٣ ـ والطائفة التي خذْلت الحسين عليه السلام ولم تُلَبِّ دعوة الحسين عليه السلام ولم تنصره، فالذين سمعوا صرخة الحسين عليه السلام في وجه يزيد وسمعوا نداء الحسين عليه السلام وهو يستنصر المسلمين فلم يتحركوا، وخذلوا سيد شباب أهل الجنّة، وآثروا عافية دنياهم على سلامة الآخرة، وتخلفوا عن الالتحاق بالحسين عليه السلام.. أُولئك من أهل البراءة، ومن الذين يستحقون اللعن.

عاشوراء، (يوم الفرقان):

إن معركة الطف كانت معركة حقيقية في الأبعاد العقائدية والحضارية والسياسية.

ولذلك فهي تتطلب مواقف حقيقية من الولاء والبراءة، وترفض التفرج واللامبالاة..

---

١ ـ الزيارة المطلقة السابعة.

٢ ـ الزيارة المخصوصة لليلة القدر وليلة العيدين.

فطبيعة المعارك والصراعات الحضارية والعقائدية إنها تشطر الناس شطرين، مخالف وموافق، ويجري هذا التشطير والانقسام بصورة مستمرة فيما بعد إلى ما شاء الله من العصور.

ومعركة الطف في القمة من هذه المعارك والصراعات، نظراً إلى المواجهة والمقابلة العقائدية والحضارية والسياسية التي تمت في هذه المعركة.. ولوضوح الطرفين في اتجاهاتهما العقائدية والحضارية، فلم يكن خافياً أمر الحسين ابن بنت رسول الله وسيد شباب أهل الجنّة على أحد من المسلمين، كما لم يكن خافياً أمر يزيد بن معاوية ابن آكلة الأكباد... وسلالة الشجرة الملعونة في القرآن على أحد، ولا أحد يشك في ماهية وحقيقة الطرفين المتصارعين.. ومن منهما كان يدعو إلى الله، ومن منهما كان يخالف إرادة الله ويعصي الله.

هذه المأساة والمواجهة التاريخية شطّرت الناس، شطرين متميزين..

الشطر الأول: الموالي والناصر والمنتمي والمرتبط والمساند..

والشطر الثاني: المخالف والمعادي.

وهذا الصراع لم يَدَعْ أحداً يقف بين الصفين ليتفرج على المعركة من دون أن يصيبه غبار من هذا الطرف أو ذاك.

فلابدّ من موقف محدد من ولاء أو براءة.

ولذلك قلنا أن هذه المعركة شطرت الناس في الولاء والبراءة شطرين متميزين من سنة إحدى وستين هجرية.. إلى يومنا الحاضر وإلى ما شاء الله من العصور.

أبعاد وامتدادات المواجهة ليوم الفرقان:

ولقد كان يوم بدر (يوم الفرقان) الأول في تاريخ الإسلام، يقول تعالى: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[1].

وهو أول مواجهة قتالية بين التوحيد والشرك في تاريخ الإسلام..

وعلى نتائج هذه المواجهة الميدانية كان يتوقف مصير البشرية جميعاً.

صحيح إن الذين وقفوا مع رسول الله ﷺ في بدر ثلاثمائة أو يزيدون، وإن الذين وقفوا إلى جانب قريش لقتال رسول الله ﷺ ألف أو يزيدون قليلاً، إلاّ أن هذه المواجهة كانت أعمق وأوسع مما يتراءى لنا لأول مرّة من خلال التاريخ في وادي بدر في السنة الثانية بعد الهجرة.

فقد كان يقف من وراء المشركين من قريش في بدر جبهة عريضة من الشرك في الجزيرة وخارجها.. وتصاعد الأحداث بعد هذا اليوم أثبت هذه الحقيقة.. ولقد وقف رسول الله ﷺ بهذه العصابة الصغيرة أمام جبهة الشرك العريضة.

فيوم بدر إذن فرّق الناس إلى شطرين متمايزين في الولاء:

شطر قوامه ثلاثمائة وخمسة مقاتلين.

وشطر قوامه جبهة الشرك العريضة وبكل إمكاناتها الواسعة.

فهو (يوم الفرقان) الأول حقّاً في تاريخ الإسلام.

إن النظرة الساذجة الأُولى لساحة بدر، في السنة الثانية من الهجرة لا تلتقي إلاّ بهذين الجمعين الصغيرين المتقاتلين.. ولكن النظرة العميقة الممعنة تلتقي في هذه الساحة بحضارتين وعقيدتين تتصارعان على البقاء،

---

١ ـ الانفال: ٤١.

وفي جبهات عريضة واسعة وليس مع ألف من المقاتلين أو يزيدون فقط..

ولـم يكـن يـوم بـدر (يـوم الفرقان) الذي يشطر الناس في الولاء والبراءة إلـى شـطرين فـي السـنة الثانـية مـن الهجـرة فقـط، وإنما يظل هذا اليوم يوم فرقان في تاريخ الإسلام إلى أن يأذن الله بنهاية الأرض.

يوم الفرقان الثاني في تاريخ الإسلام:

وإذا كان يوم بدر (يوم الفرقان) الأول في تاريخ الإسلام.

فإن يوم عاشوراء (يوم الفرقان) الثاني في تاريخ الإسلام[1].

كان يقف فيه الحسين عليه السلام مع ثلة صغيرة من أهل بيته وأصحابه.

وفـي الجانـب الآخـر، يقـف ابـن زيـاد مـع جيش واسع، ومن ورائه يزيد وسـلطانه وملكـه الواسـع وأموالـه الكثـيرة وإمكاناتـه، وكـلّ المواليـن لـه والمستفيدين منه.

ففـي يـوم عاشـوراء إذن نجـد كـلّ خصائص (الفرقان).. فقد شطر الناس إلى شطرين متمايزين في الولاء والأخلاق والفكر والخط والعقيدة..

ولا يـزال هـذا الـيوم (فـرقاناً) فـي تـاريخ الإسلام، يفرّق الناس في الولاء والبراءة إلى أن يأذن الله بنهاية الأرض.

يوم الفرقان الثالث في تاريخ الإسلام:

وما دمنا قد أشرنا إلى يومين من أيام (الفرقان) في التاريخ الإسلامي:

يـوم بـدر، ويـوم عاشـوراء، فـلا نستطيع أن نتجاوز هذا الحديث دون أن نشير إلى اليوم الثالث من أيّام (الفرقان) في تاريخ الإسلام الحديث، والذي

١ ـ بالإمكان أن نَعُدَّ (يوم صفّين) يوم الفرقان الثاني في تاريخ الاسلام، و(يوم الطّف) الفرقان الثالث.

يأتي امتداداً ليوم بدر، ويوم عاشوراء.

وهو يوم انتصار الثورة الإسلامية في إيران. والذي هو من أيّام الله الكبرى في التاريخ.. هدم الله تعالى فيه عرش أكبر إمبراطورية في آسيا، تحميه أضخم الأجهزة السرية والعلنية وأكبر قلعة للاستكبار في المنطقة. يحميها سادس قوّة عسكرية في العالم، وذلك بقيادة السيّد الخمينيقدس سره.

إن هذا اليوم لا يعني فقط سقوط نظام أُسرة بهلوي في تاريخ إيران، وإنّما يعني نهاية مرحلة من التاريخ، وبداية مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام. فإن سقوط أُسرة بهلوي، وقيام الجمهورية الإسلامية يعتبر نهاية لعصر من الخمول والركود والاستضعاف واليأس والارتماء في أحضان الغرب والشرق.. والتخلف الفكري والثقافي والسياسي والعسكري والاقتصادي.. والهزيمة النفسية.. وبداية عصر جديد من التحرّك باتجاه حاكمية دين الله على وجه الأرض، وفك القيود والأغلال من الأيدي والأقدام.. وكسر الطوق السياسي، والاقتصادي، والعسكري، والعلمي، والحضاري، الذي فرضه الاستكبار الغربي والشرقي على العالم الإسلامي.. والعودة إلى الله، وتعبيد الإنسان لله، وتحكيم شريعة الله في حياة الإنسان، وإعادة الأعراف والقيم والأخلاق، والحدود الإسلامية إلى صلب الحياة من جديد.. وبالإجمال مرحلة جديدة للتاريخ.. إن هذا اليوم امتداد حقيقي ليوم عاشوراء، كما كان يوم عاشوراء امتداداً واقعياً ليوم صفين وبدر.

انتصار الثورة الإسلامية منطلق ثوري، وقيمة حضارية:

ونلخّص فيما يلي أبرز نقاط وعناصر هذه الثورة المباركة:

إن هذه الثورة، ثورة مبدئية بكل معنى الكلمة.. وهي نوع جديد من

العمل والحركة الثورية في تاريخنا المعاصر.. وحدث سياسي بارز لا شبيه له في الأحداث المعاصرة.. وصراع جديد بين التوحيد والشرك.. بين التوحيد في الولاء والشرك في الولاء.. فهي تتّجه لفك ارتباط الإنسان المسلم بالاستكبار الشرقي والغربي.. وفك ارتباطه بمحاور الولاء المصطنعة: (القومية، الوطنية، العشائرية، الحزبية..) وربط ولائه بالله تعالى، ورسوله وأوليائه، وتوحيد الولاء لله تعالى.. ومقاطعة كلّ المحاور الأُخرى التي تعمل لانتزاع الولاء من الناس.

تلك كانت طبيعة الثورة ومحتواها..

أن من المهم أن نفهم نحن مسار الثورة الإسلامية المعاصرة ومحتواها، ومن دون ذلك لا نستطيع أن نساهم أو ندعم أو نساند هذه الثورة.

إنّها ليست ثورة على التخلف العلمي والتقني.. ولا هي ثورة على التخلف الاقتصادي والفقر الاجتماعي.. ولا هي ثورة ضد الاستعمار.. ولا هي ثورة من أجل تحرير آبار النفط من قبضة ملوك النفط.. أو من الشركات الاحتكارية.. ولا هي ثورة طبقة على طبقة أُخرى (صراع طبقي).. كما حدث في ثورة الزنج في تاريخ الإسلام.. وإن كانت تحتوي على كلّ هذه الأُمور، وتطمح لكلّ هذه المكاسب، وتحقق هذه النتائج كلّها إن شاء الله، إلاّ أنها في جوهرها شيء آخر، أنها ثورة الولاء لله تعالى، على الولاء للطاغوت.. وثورة التوحيد على الشرك.. وثورة الإسلام على الجاهلية الحديثة..

وهي إذا حققت غايتها على وجه الأرض فسوف تقضي على التخلف العلمي والثقافي والتقني، وتقضي على الفقر والتخلف الاقتصادي، وتقضي

على الاستثمار والاستعمار، وتقضي على الاحتكار، وعلى الشركات الاستعمارية، وتقضي على التلاعب بأموال المسلمين وثرواتهم، وتقضي على الاستضعاف والاستكبار، وعلى استضعاف طبقة لطبقة أُخرى، وممارسة السيادة لطبقة على أُخرى.. إن هذه الثورة سوف تحقق كلّ هذه الغايات، وغايات أُخرى أبعد من هذه وأسمى منها إن شاء الله.. ولكن على أن تحافظ على جوهرها ومحتواها الحقيقي.. ثورة التوحيد على الشرك.

إن السمة البارزة والأُولى لهذه الثورة هي: (الربانية)، وهذه السمة هي التي تربطها ببدر وصفّين وعاشوراء وبحركة الأنبياء عليهم السلام وبمسار الصالحين من أولياء الله.

ومتى أُفرغت الثورة من هذه السمة، وتشبعت بالأهداف والشعارات الجانبية.. فقدت كلّ قيمتها، وفقدت تأييد الله تعالى لها.

.. إن هذه الثورة تختلف اختلافاً جوهرياً عن كلّ الثورات المعاصرة لنا كالثورة الفرنسية، وثورة أكتوبر، والثورات التي قامت في القارة الأفريقية وفي آسيا بعد الحرب العالمية الثانية. والثورات في المنطقة العربية..

إن الكثير من هذه الثورات كانت ثورات طبقية، ثورة طبقة مستضعفة على طبقة مستأثرة.. أو ثورات تحررية من الاستعمار وسيطرة الأجنبي.. أو القضاء على أنظمة ديكتاتورية.. أو حكام مجرمين..

ولا نستطيع أن نستثني ثورة معاصرة عن هذه المنطلقات.

والثورة الإسلامية هي الوحيدة التي انطلقت من منطلق آخر يختلف إختلافاً نوعياً عن هذه الثورات جميعاً.. انطلقت باتجاه تحرير الإنسان من المحاور البشرية للولاء، مهما كان نوعها.. إن لم يكن مرتبطاً بالله تعالى،

وتعبيد الإنسان لله تعالى، وتحكيم شريعته في حياة الإنسان. وترسيخ محور الولاية الإلهية بكل امتداداتها في حياة الإنسان.

تراكم من الفعل والحراب (الفعل والانفعال):

إن هذه الثورة حصيلة جهود كثيرة وكبيرة، من قبل كلّ العاملين في سبيل الله وطلائع العمل الإسلامي، من الذين وعوا محنة تخلّف الأُمّة وتحملوا المسؤولية، ونهضوا بأعباء المسؤولية، إن هؤلاء جميعاً لهم دور في بناء قواعد هذه الثورة، وفي إنجاز هذه الحركة الربانية على وجه الأرض، وفي تحريك هذا السيل البشري الهادر الذي زعزع مكان الطاغوت.. أن الطالب الذي كان يدعو إلى الله ورسوله وإلى تحكيم شريعة الله، بين زملائه الطلبة، له دور في بناء هذه الثورة، والعامل الذي كان يبثّ الوعي الإسلامي في صفوف إخوانه العمال، له دور في هذه الثورة، والخطيب الذي كان يخطب في المساجد والاجتماعات، وينشر هدي الإسلام ووعيه، له دور في هذه الثورة، والعالم، والكاتب، والشاعر، والأديب، والمعلم وكلّ حملة الرسالة، من النساء والرجال، من الذين وضعوا حجراً في أساس هذه الثورة من مشارق الأرض ومغاربها، كلّ أولئك وغيرهم لهم دور وحظّ في هذه الثورة المباركة..

إن هذه الثورة التي زلزلت الأرض تحت أقدام الطغاة، لم تكن حصيلة فترة زمنية محدودة. وجهد جماعة من العاملين، وإنما كانت حصيلة أجيال من العمل في سبيل الله من قبل كلّ العاملين في حقول العمل الإسلامي.. كما أن هذه الثورة حصيلة كلّ الآلام والحرمان والاضطهاد والعذاب والعناء الذي لاقاه المسلمون في مرحلة الركود والضعف.. وساهم في هذه الثورة

كلّ الشهداء الذين اضطهدوا في سبيل الله.. وكلّ من التفّت السياط على جسمه في غيابات السجون.. وكلّ الدموع والدماء والآهات.. وكلّ الهجرات التي كانت في سبيل الله..

أجل إن هذه الثورة كانت انفجاراً هائلاً لكلّ هذه الآلآم والمحن.. ولو كان الأمر في هذه الثورة الإسلامية يقتصر على العامل الثاني: (ركام الآلآم والعذاب) لكان من الممكن أن تغلب على هذه الثورة الصفة الانفعالية.. إلاّ أن وجود العامل الأول وقوته وفعاليته في تحقيق هذه الثورة المباركة كان عاملاً قوياً في توجيه الثورة وتصحيح مسارها والمحافظة عليها من الانحراف.

محاولات لأقلمة الثورة:

فليست هذه الثورة ثورة إقليمية كما يحاول أعداء الإسلام أن يصفوها، وكما تنطلي أحياناً على بعض السذّج من المسلمين، وليست ثورة إسلامية إيرانية، وإنما هي ثورة إسلامية شاملة.. وشاء الله تعالى أن تكون نقطة انفجار هذه الثورة أرض إيران.. والشعب الذي يُفجرّ هذه الثورة، الشعب الإيراني المسلم.

وأية محاولة لأقلمة هذه الثورة وعزلها عن مشاعر وأحاسيس وقلوب المسلمين خيانة لهذه الأمّة، إن كانت من قبل أعداء هذه الأمّة والمتربصين بها سوءاً.. أو من أبنائها الذين لم يعّوا خطورة هذا الدور.. إن عزل الثورة الإسلامية عن مشاعر المسلمين، وعن الرأي العام الإسلامي وتطويقها يُعدُّ خيانة كبرى ومقدمة للإجهاز عليها.

ويجب علينا كمسلمين أن نواجه هذه المؤامرات بوعي وانتباه، وبعيداً عن جو الحساسيات... وفي جوّ من المسؤولية الشرعية.

إن هذه الثورة بداية لانفجار شامل وثورات إسلامية كثيرة على وجه الأرض. وليست تلك الثورات شيئاً آخر غير هذه الثورة، ولا امتداداً لها، وإنّما هي مراحل مختلفة لثورة واحدة، شاء الله تعالى أن تتم المرحلة الأُولى منها في إيران، وفي أحضان هذا الشعب المسلم الشجاع.

أرأيت خط الزلزال ينطلق من نقطة ويمتد على منطقة واسعة من الأرض، بفعل التفاعلات غير المرئية في طبقات الأرض.. كذلك هذه الثورة.

التفاعلات التي كانت تجري في الأعماق غير المرئية لهذه الأُمَة:

لقد تمَّ في عمق هذه الأُمّة تفاعلات واسعة وكبيرة وقوية.. بتأثير الفعل (العامل الأول) والانفعالات (العامل الثاني) في غياب من رصد الاستكبار العالمي.. وحيث كان الاستكبار العالمي يزهو بانتصاراته الكبيرة في العالم الإسلامي، ويعيش في نشوة هذه الانتصارات على العالم الإسلامي.. جرت هذه الانفعالات في أعماق الأُمّة الإسلامية، وتفاعلت وتفاقمت.. ثمّ كانت الثورة التي تشبه الزلزال.. فاهتزت الأرض من تحت أقدام حكّام الغرب وأتباعهم ولم ينتبه هؤلاء الطغاة من نشوة سكر السلطان إلاّ بعد أن حدث الزلزال.

إن الذي حدث في طهران كان شيئاً أكبر بكثير من تصوراتنا المحدودة.. وكان تحقيقاً لوعد الله سبحانه وتعالى للصالحين المستضعفين

من عباده في هذه الأُمّة، ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[1].

وعلينا قبل كلّ شيء أن نعي بصورة جيدة الأبعاد الحقيقية لهذه الثورة، وأن ننشر هذا الوعي في صفوف المسلمين، لنحبط المؤامرات التي يحيكها أعداء الإسلام لتطويق ومحاصرة الثورة الإسلامية.

إن الذي يقرأ كتب ومحاضرات السيّد الخميني قدس سره، يجد وعياً دقيقاً لهذه المؤامرة، وتوجيهاً عملياً لإحباطها. وحرصاً مسئولاً لوحدة ومصير المسلمين، ولارتباطهم بالثورة سواءً كانوا سنة أو شيعة، عرباً أو فرساً، وتعمّيم مسؤولية المحافظة على هذه الثورة على المسلمين جميعاً..

إن هذه الثورة نتاج من جهد كلّ المسلمين الصالحين وعملهم وعنائهم وجهادهم، ورسالة هذه الثورة فك الأغلال والقيود، عن أيدي وأقدام كلّ المسلمين. ومسؤولية المحافظة على هذه الثورة من واجب كلّ المسلمين كذلك. ومن أجل هذه الشمولية الواسعة في هذه الثورة.. نجد أن فكرة تصدير الثورة رافقت ولادة الثورة.

إن من يعرف أعماق هذه الثورة وجذورها.. يدرك أن هذه الثورة لا تعترف بالحدود الإقليمية، ولا بالنزعة القومية.. وإنها لا تقف من وراء الحدود تستأذن سدنة الحدود ليفتحوا إليها الطريق.. إنها السيل الذي لا يقف ولا يتردّد ولا ينتظر.

ونحن نضع هذه الحقائق في طريق الثورة، وبين يديّ هذه الأُمّة المؤمنة ومفكريها وقادتها وعلمائها والعاملين في صفوفها.. ليعرف كلّ واحد منا

---

١ ـ القصص: ٥ ـ ٦.

مسؤوليته إزاء هذا الحدث الكبير.

الولاء والبراءة بعدان للثورة:

هذه الثورة من أيّام الفرقان في تاريخ الإسلام انشطر الناس تجاهها إلى شطرين:

شطر الموالين..

وشطر المعادين..

وليس للثورة ولاء جديد في قبال الولاء لله ولرسوله ولأوليائه، وإنّما هو امتداد للولاء لله..

أن هذه الثورة كانت من الأحداث القليلة والنادرة في التاريخ التي لم تسمح للإنسان أن يقف منها موقف المتفرج واللامبالاة وإنّما تفرض على كلّ الناس أن يحكموا لها وعليها.. ومنذ أيّام بزوغ هذه الثورة، ومنذ أن اندلع لهيبها في طهران وجدنا كلّ القلوب المؤمنة والضمائر الحية، قد تجمعت حول هذه الثورة وتعاطفت معها..

وكانت تعيش باهتمام بالغ ساعات ميلاد هذه الدولة المباركة.. وحبس التاريخ أنفاسه ليتابع لحظات هذا الميلاد.. لحظات (عودة الحضارة الربانية، وعودة سيادة الإسلام على وجه الأرض).. و(حاكمية الله في حياة الإنسان).. بعد تلك السنوات العجاف من الركود، والخمول، والضعف، والهزائم النفسية.. والانصهار المذل في حضارة الاستكبار الشرقي، والاستكبار الغربي.. ونفوذ الكفر العالمي على بلادنا وأُمتنا وثرواتنا..

وفي مقابل ذلك.. فقد أحس كلّ الظالمين العتاة والجلادين والذين باعوا

دينهم وضمائرهم، كلّ أولئك أحسّوا بالشر وأحسوا بالخطر، وبأن هناك حدثاً جديداً، وميلاداً جديداً.. وأن الذي يجري في طهران ليس أمراً كسائر الأُمور التي تجري هنا وهناك.. أنه نهاية لمرحلة، وبداية لمرحلة، ونهاية لحضارة، وبداية لحضارة..

لقد أحس هؤلاء بالشر، وبالخطر يُفاجئهم على حين غفلة.. فأعلنوا عدائهم تجاه الثورة منذ اللحظات الأُولى لانطلاقتها.. ولم يخفوا حقدهم وتخوفهم من هذه الثورة.

لقد استقبلت الثورة طائفتان من الناس.

الطائفة الأُولى: استقبلتها بقلوب ملؤها العطف والحبّ والحماس والاندفاع لنصرتها.. والدعاء إلى الله بتأييدها.

الطائفة الثانية: استقبلتها بقلوب حاقدة متخوّفة متحسّسة.. لم تتمكن من إخفاء هذا الحقد والخوف والتحسس.

وهذا الانشطار في الولاء والبراءة من خصائص أيّام الفرقان في التاريخ.. ولسوف تبقى هذه الثورة تحتفظ بهذه الخاصية المزدوجة في مراحلها المختلفة..

حتمية الصراع:

ولقد كان من الطبيعي أن يكون ميلاد هذه الدولة المباركة واستمرارها، إيذاناً بصراع ممتد طويل بينها وبين الجاهلية الحديثة..

فلا يمكن أن يسكت أو يهدأ الغرب أمام هذه الموجة الربانية.. دون إثارة الفتن والمتاعب في طريق دعاة هذه الثورة.. ودون أن تعمل على

تطويق ومصادرة هذه الثورة..

أن الذي يتفهم سنن الله في التاريخ، يستطيع أن يفهم بوضوح حتمية هذا الصراع بين هاتين القوتين؛ القوّة الإسلامية النامية.. وقوّة الكفر العالمي.. وأن هذا الصراع سوف يكون من أقسى أنواع الصراع وأطوله.. ذلك أن هذا الصراع صراع من أجل البقاء.. والصراع على البقاء يطول ويقسو ويستمر.. لأنه صراع عقائدي حضاري.. وليس صراعاً على ماء وطين، وعلى نفط وصلب ونحاس، حتّى يمكن اللقاء والتفاهم فيها.

ولا يمكن تجنب هذا بحال من الأحوال إن هذه الثورة والدولة قد كسرتا دائرة النفوذ الاستكباري: الشرقي والغربي، على العالم الإسلامي، وخرجت الدولة الإسلامية لأول مرّة عن منطقة نفوذ القوى الكبرى بشكل كامل، وتعمل الثورة الآن لفك هذا الحصار عن كلّ العالم الإسلامي.. ومن الطبيعي أن تواجه الاستكبار هذه الثورة ودولتها الناشئة بكل أنواع الضغوط والمؤامرات من الداخل والخارج لتحجيمها واستهلاكها وتطويقها.

والعاقبة للمتقين:

والعاقبة في هذا الصراع للمتقين.

ومهما نشك في شيء فلا نشك في هذه الحقيقة..

أن الأُمّة المؤمنة لا تدافع عن نفسها، وإنما تدافع عن دين الله، وشريعة الله وحدوده.. ولا تواجه أعداءها وإنما تواجه أعداء الله.. ولا تحارب بحولها وقوّتها وإنما تحارب بحول الله وقوّته.

فإذا استوفت هذه الأُمّة الشروط، ووضعت ثقتها في الله، وأعطت نفسها

لله وابتعدت عن التعلّق بالدنيا وحبها.. وتخلصت من أهوائها.. وقامت لله تعالى مثنى وفرادى.. فإن الله تعالى ينصرها، طال عليها الأمر أم قصر. فإن ذلك وعد الله تعالى، ولا يخلف الله وعده.. واستمعوا إلى كتاب الله الكريم وآياته لبيّنات:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[١].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٣].

﴿فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٤].

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾[٥].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٦].

إن المعركة إذا طالت، وإذا قستْ، فلن يتركنا الله لأعدائنا، ولن يتخل الله تعالى عنا، ولن يخلف وعده.. تبارك وتعالى عن ذلك علوا كبيراً.

﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[٧].

---

١ ـ الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣.

٢ ـ الروم: ٤٧.

٣ ـ غافر: ٥١.

٤ ـ المائدة: ٥٦.

٥ ـ النساء: ٤٥.

٦ ـ محمّد: ٧.

٧ ـ الأحزاب: ٢٢.

ليحق الحقّ بكلماته ويقطع دابر الكافرين:

وإن طالت هذه المحنة.. فلكي يمتحن الله قلوب عباده، ويعرف الثابتين منهم عن المهزومين.. وهو العالم بخفايا القلوب، ولكي يثبّت الله للمؤمنين قدم صدق على أرض المعركة، ولكي يتخفّف المؤمنون في هذا الصراع من حب الدنيا والتعلق بها.

ولكي يزدادوا يقيناً بالله تعالى في هذا الصراع.. فإن الإنسان لا يرزق اليقين في ساعات الرخاء والراحة والعافية.. مثل ما يناله في الابتلاء.. ولكي يتمرس المؤمنون على مواجهة التحديات الكبيرة.. وتجاوز الصعاب في سبيل الله ويزدادوا بأساً وقوّة وإيماناً.. ولكي يقوى ولاؤهم وبراءتهم.. فإن الولاء يقوى من خلال التضحية والعطاء والبراءة، تقوى من خلال المواجهة والقتال.

وليس هذا الصراع وما يستتبعه من آلام وعناء يخص هذه الثورة أو يخص هذا الدين، وإنما هو سنة الله تعالى في حياة الصالحين من عباده، الذين يرتضيهم الله تعالى لرحمته والذين يسكنهم الله تعالى جنته مع عباده الصادقين. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللّهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء﴾[2].

إن نفوسنا الضعيفة لتهوى أن تقتطف النصر من أقرب الأسباب وأيسره..

---

١ ـ التوبة: ١٦.

٢ ـ البقرة: ٢١٤.

وأن لا يكلفها دينها شيئاً.. وأن نمد أيدينا فننال النصر والإمامة والخلافة على وجه الأرض..

ولكن الله الحكيم.. يعلم أن النصر إذا جاء بيسر، وعلى غير طريق ذات الشوكة، لا يؤهل الإنسان للإمامة وخلافة الله على وجه الأرض.

فيريد الله تعالى لنا أن نتمرس ونقوى، ونحقق حاكمية دين الله في الحياة على طريق ذات الشوكة..

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ * لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾[1].

واستمعوا إلى هذه الآيات البيّنات من سورة آل عمران توضّح الصراع، والعناء، والمحنة، والنصر، والفتح، في تسلسل رائع جميل:

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[2].

وفي هذه الآيات المباركة من سورة آل عمران إجابات شافية على كلّ الأسئلة التي تخطر على بال المؤمنين في هذا الصراع الرهيب بين الإسلام والكفر..

وإليك التوضيح والشرح:

---

١ ـ الأنفال: ٧ ـ ٨.

٢ ـ آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٢.

تداول النصر والهزيمة في ساحة المعركة:

لقد كان المسلمون يظنون بعد أن نصرهم الله تعالى ببدر.. أن النصر حليف الفئة المؤمنة دائماً، لا يفارقهم ولا يعدوهم.. وأنهم إذا آمنوا بالله ورسوله، وجاهدوا في سبيل الله، فلن يتخلف عنهم النصر في حال من الأحوال، فلما أذاقهم الله مُرَّ الانتكاسة في أُحد، وانتكس المسلمون في هذه المعركة عندما خالف الرماة أمر رسول الله ﷺ، وتخلفوا عن مواقعهم بحثاً عن الغنائم.. اهتزت نفوس المسلمين.. واهتزت الثقة في نفوسهم بالنصر.. وعادوا يشكّون في أن تكون لهم عاقبة الأمر، وغلب الضعف على النفوس.. وتمكن الحزن في نفوسهم على الذين استشهدوا في هذه المعركة من سراة المسلمين ومن الصفوة المؤمنة، الذين صدقوا الله وأخلصوا له في العمل والجهاد..

فيعيد الله تعالى إلى نفوسهم الثقة بالنصر أولاً، ويطمئنهم بأن العاقبة للمؤمنين، مهما كانت القروح والآلام والانتكاسات والعناء خلال طريق ذات الشوكة ثانياً.

ويزيل الضعف والوهن، ولا حزن على نفوسهم ويثبت أفئدتهم وقلوبهم بالنصر والعلو..

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

ثمّ يذكرهم الله تعالى إن ما مسهم من القرح في الحرب لم يخصهم فقط، وإنما مس أعداءهم أيضاً.. وهذا القرح وما يصيب المقاتلين من أذى وتعبْ وخسائر من متطلبات المعركة.. لا يمكن أن يخص طرفاً دون الآخر.. ولا يمكن أن تجري معركة من دون قروح.. ﴿...إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾. وقد جرت سنة الله تعالى أن يداول الأيّام بين

الناس، فيجعل يوماً للمؤمنين على الكافرين، وآخر للكافرين على المؤمنين، وينصر هؤلاء في يوم ويذيقهم مرّ الانتكاسة في يوم آخر.. وهكذا يداول بينهم النصر.. على أن العاقبة للمؤمنين فقط.

وهذه المداولة لا تغيّر مشيئة الله تعالى وتبقى العاقبة للمتقين.

وإنما يداول الأيام بين الناس، ويذيق المؤمنين الشدّة والرخاء ونشوة النصر حيناً ومرارة الانتكاسة حيناً آخر، ليتميّز الذين آمنوا وصدقوا في إيمانهم وثبتوا على الإيمان.. عن المنافقين وضعاف النفوس وأصحاب النفوس المهزومة.

تمحيص وتهذيب المسيرة في المجتمع:

إن مسيرة الدعوة لو كانت محفوفة بالنصر دائماً ومفروشة باليسر والرخاء، تراكمت عليها العناصر المنافقة التي تحسن التسلق على الجدران العالية، أُولئك الذين يغيبون حين البأس، ويحضرون حين توزيع الغنائم، وتطول ألسنتهم في المطالبة بالغنائم ﴿فَإِذَا جَاء الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾[1].

إن مسيرة الدعوة إن كانت تخلو من المكاره ومرارة الانتكاسات تجمعت حولها طائفة واسعة من المنافقين وضعفاء النفوس، واحتلوا منها المواقع الحساسة.. وإذا ما تولت هذه الطائفة أُمور الدعوة والمسيرة تعطل دورها القيادي في حياة الناس، وفقدت الدعوة قدرتها على التغيير والقيادة، وتحولت الدعوة من طريق ذات الشوكة في مواجهة الطاغوت.. إلى مسيرة

---

١ ـ الأحزاب: ١٩.

مُتْرفة عامرة باللذات ومتع الحياة، وفقدت كلَّ إمكاناتها على العمل والتغيير والحركة، كما حصل ذلك في عصر بني أُمية وبني العبّاس.

فلابدّ في هذه المسيرة بين حين وآخر من انتفاضة قوية تطرد فيها المنافقين وضعفاء النفوس عن موكب هذه الدعوة، وتستخلص المؤمنين الأقوياء الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأخلصوا لله في عملهم.

فليست مسيرة هذه الدعوة كسائر ما يألفه الناس من مسيرات الأنظمة والحكومات التي تطلب الحياة الوديعة المترفة والبعيدة عن المتاعب والمنغصات.. فإن هذه الحياة الوديعة والمترفة تجعل جوّ الدعوة مرتعاً للمنافقين وضعفاء النفوس، فإذا تعرضت هذه المسيرة للآلام والمحن والمصائب.. ومتاعب الطريق والدم والانتكاسات المرّة صفا جوّ الدعوة للمؤمنين.. وتخلصت هذه المسيرة للصفوة الصادقة من المؤمنين والمجاهدين، ويتميز المؤمنون عندها عن غيرهم ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾.

متى يتخذ الله الشهداء في هذه الأُمّة قيّمين على المسيرة؟

وليس هذا فقط فائدة تداول الأيّام، وتناوب النصر والهزيمة والشدّة والرخاء على المؤمنين.

وإنّما يفيدهم عندما يريد الله تعالى أن يتخذ منهم شهداء وقدوات وقيّمين على حياة البشرية.. فمن خلال الابتلاءات والمحن التي تتناوب عليهم يؤهلهم الله تعالى لموقع الشهادة والقيمومة على الناس، ويتخذ منهم شهداء وقيّمين.

ومن خلال هذه المعاناة، ومن خلال مرارة الانتكاسات، وقرح الحروب وآلام المواجهة تتكون في هذه الأُمّة شهداء على الناس وأئمّة وقدوات في المجتمع، وأمثلة في الصبر والثبات والمقاومة.

إن النماذج الإيمانية الفريدة في تاريخ البشرية لا تتكون في الحياة الهادئة الوديعة، المترفة.. وإنما تتكون في زحام متاعب الحياة، وفي وسط متاعب العمل، وبين الدماء والدموع. ولابدّ للمسيرة من هذه النماذج الفريدة في الإيمان والثبات.. وهذه النماذج يتخذها الله تعالى ويختارها في ظروف المحنة والتداول.. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء﴾.

التمحيص والتهذيب داخل النفوس:

ولهذا التداول فائدة ثالثة في تكوين هذه الأُمّة وتقويم شخصيتها وذلك هو تمحيص المؤمنين وتزكيتهم وتطهير قلوبهم من ريب الشك ومن سلطان الهوى وتخليص نفوسهم من نقاط الضعف.. فإن الشدّة والمعاناة، كما تنقّي صفوف المؤمنين من المنافقين على البعد العرضي.. كذلك تنقّي قلوب المؤمنين من نقاط الضعف والنفاق والوهن والشكّ، وتُمحّص المؤمنين على البعد العمودي.

أما بالنسبة إلى الكافرين فإن المعاناة والمحنة تمحقهم وتهلكم وتبيدهم.. فلا يستطيع أُولئك أن يقاوموا المعاناة والمحنة..

﴿وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

درجات المؤمنين في الجنّة على قدر معاناتهم في الدنيا:

فليس من الصحيح أن نتصور أن كلّ من شهد الشهادتين، وأسلم أو آمن

بالله ورسوله يدخل الجنّة بدرجة واحدة.

فإن في الناس منافقين لا تتجاوز الشهادتان ألسنتهم، ولا تستقر في قلوبهم..

والمؤمنون درجات ومراتب في إيمانهم، فليس كلّهم بمستوى واحد من الإيمان والعمل الصالح.

فهناك المؤمنون الذين يُؤثرون العافية على الجهاد والقتال في سبيل الله، وهناك المؤمنون المجاهدون الصابرون.. ومن الخطأ أن نتصور أن هؤلاء جميعاً في الجنّة في درجة واحدة.. فلكلّ درجته ومرتبته ومكانته عند الله.

وهذه المرتبة والمكانة تتحدّد في ظروف المحنة فقط، حيث يتميز المؤمن من المنافق، ويتميز الصابرون عن غيرهم من المجاهدين..

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

دولة الموطئين:

وهذه الثورة المباركة بداية انعطاف كبير في تاريخ وحضارة الإنسان، وأمر ذو وبال وذو خطر كبير في حياة الإنسان ومستقبله..

والذي يستقرأ الروايات الواردة عن رسول الله ﷺ وعن أهل بيته، لا يشك أن هذه الثورة بخصائصها البارزة وقيادتها سوف تمهد للانقلاب الكبير في تاريخ الإنسان وهو ظهور الإمام المهدي من آل محمّد ﷺ.

وأن اليوم الموعود الذي وعدنا الله به ورسوله بقيام دولة الإسلام الكبرى.. وتمكين المستضعفين من الأرض.. وقيام الإمام المهدي بثورته الكبرى في الأرض.. لقريب أن شاء الله..

وأن هذه الثورة توطيء الأرض لتلك الثورة الكبرى وتمهد الأُمّة لظهور وقيام القائم من آل محمّدعليهم السلام.

وفيما يلي ننقل اضمامة من هذه الروايات:

عن عبد الله بن مسعود قال: أتينا رسول اللهصلى الله عليه وآله فخرج إلينا مستبشراً يُعرف السرور في وجهه، فما سألناه عن شيء إلاّ أخبرنا به، ولا سكتنا إلاّ إبتدأنا.. حتّى مرت فتية من بني هاشم فيهم الحسن والحسين فلما رآهم التزمهم وانهملت عيناه.. فقلنا: يا رسول الله ما نزال نرى في وجهك شيئاً تكرهه؟

فقال: إنّا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وأنه سيلقى أهل بيتي من بعدي تطريداً وتشريداً في البلاد حتّى ترتفع رايات سود من المشرق فيسألون الحقّ فلا يعطونه، ثمّ يسألونه فلا يعطونه، ثمّ يسألونه فلا يعطونه، فيقاتلون فينصرون.. فمن أدركهم منكم ومن أعقابكم فليأت إمام أهل بيتي ولو حبواً على الثلج، فإنها رايات هدى يدفعونها إلى رجل من أهل بيتي يواطيء اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي فيملك الأرض فيملؤها قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً»[1].

وروى المجلسي في بحار الأنوار عن الإمام الباقرعليه السلام قال:

(كأني بقوم قد خرجوا بالمشرق يطلبون الحقّ فلا يعطونه ثم يطلبونه، فإذا رأوا ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم.. فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتّى يقوموا، ولا يدفعونها إلاّ إلى صاحبكم (أي المهديعليه السلام)

١ ـ أخرجه الحاكم في المستدرك ٤: ٤٦٤ و٥٥٣، والمتقي في كنز العمال ٧: ١٨٧، وابن ماجة في سننه ٢: ٥١٨ و ٢٦٩، وابن حجر في الصواعق المحرقة: ١٠٠ هذا الحديث.

قتلاهم شهداء، أما إني لو أدركت ذلك لأبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر)[١].

وروي في البحار عن بعض أصحابنا قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام جالساً إذ قرأ هذه الآية: ﴿فَإِذَا جَاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ فقلنا جُعلنا فداك من هؤلاء؟ فقال ثلاث مرّات: (هم والله أهل قم، هم والله أهل قم، هم والله أهل قم)[٢].

وروي في البحار عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: (رجل من أهل قم يدعو الناس إلى الحقّ يجتمع معه قوم كزبر الحديد لا تُزلهم الرياح العواصف، ولا يملّون من الحرب ولا يجبنون، وعلى الله يتوكلون، والعاقبة للمتقين)[٣].

وروي في البحار عن علي بن ميمون الصائغ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: (وسيأتي زمان تكون بلدة قم وأهلها حجّة على أهل الخلائق وذلك في زمان غيبة قائمنا إلى ظهوره، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها)[٤].

وروي بأسانيد أُخرى أيضاً عن الإمام الصادق عليه السلام أنه ذكر الكوفة وقال: (ستخلو الكوفة من المؤمنين ويأزر عنها العلم كما تأزر الحية، يظهر العلم ببلدة يقال لها قم وتصير معدناً للعلم والفضل حتّى لا يبقى في الأرض

---

١ ـ بحار الأنوار ٥١: ٨٣ و ٥٢: ٢٤٣.

٢ ـ بحار الأنوار ٦٠: ٢١٦.

٣ ـ البحار ٦٠: ٢١٦ و ٤٤٦.

٤ ـ بحار الأنوار ٥٧: ٢١٣.

مستضعف في الدين حتّى المخدرات في الحجال، وذلك عند قرب ظهور قائمنا، فيجعل الله قم وأهله قائمين مقام الحجّة، ولولا ذلك لساخت الأرض بأهلها ولم يبق في الأرض حجّة فيفيض العلم منه إلى سائر البلاد في المشرق والمغرب فتتم حجّة الله على الخلق حتّى لا يبقى أحد على الأرض لم يبلغ إليه الدين والعلم. ثمّ يظهر القائم ويصير سبباً لنقمة الله وسخطه على العباد لأن الله لا ينتقم من العباد إلاّ بعد إنكارهم حجته)[1].

وقال صاحب تفسير الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[2].

قال: وسئل رسول الله ﷺ عن القوم وكان سلمان إلى جنبه فضرب على فخذه وقال: هذا وقومه[3].

هذه اضمامة من الروايات التي تشير إلى استمرارية هذه الثورة المباركة حتّى ظهور الإمام المهدي من آل محمّد ﷺ وأن هذه الثورة المباركة سوف تمهد لظهور وقيام الإمام المهدي عجّل الله فرجه إن شاء الله.

١ ـ بحار الأنوار ٦٠: ٢١٣.

٢ ـ محمّد: ٣٨.

٣ ـ تفسير الكشاف: ٤: ٣٣١.

المتخلفون عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام
(الضحاك بن عبد الله المشرقي)

﴿وَعَلَى الثَّلاَثَة الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

الصراع في مرحلتي التنزيل والتأويل:

مرت هذه الدعوة خلال مسيرتها بمرحلتين من الصراع: مرحلة التنزيل ومرحلة التأويل.

الأولى: في حياة رسول الله ﷺ.

والثانية: تبدأ بخلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

في المرحلة الأولى: كان الصراع يدور حول محور «التنزيل». وكانت الجاهليّة المتمثلة يومذاك في مشركي قريش وحلفائها واليهود وحلفاؤهم يتصدّون لنفي «التنزيل» وإنكار علاقة هذا الدين بالله تعالى ونزول القرآن من لدن الله تعالى.

واستمر هذا الصراع قائماً في حياة رسول الله ﷺ كلّها. وانجلى هذا الصراع عن هزيمة قريش واليهود أمام الدعوة وانتصارها.

ويبدو لأول وهلة أن الجاهلية انسحبت عن مواقعها الهجومية أمام حركة الدعوة، واستسلمت وانقادت.. إلاّ أننا عندما نمعن النظر في تأريخ الإسلام نجد أن الجاهلية بدأت تخطط بعد وفاة رسول الله ﷺ للالتفاف على هذه

---

١ ـ التوبة: ١١٨.

الدعوة وتحريفها والدسّ فيها وتشويه مفاهيمها.

وأحسّ ورثة الثورة بهذه المؤامرة الجديدة، وعرفوا قادة المؤامرة، وبدأت المرحلة الثانية من الصراع حول محور «التأويل» وأبرز المعارك في هذه المرحلة من الصراع: «صفّين» و «الطف».

والذي ينعم النظر في التأريخ الإسلامي يجد أنّ «صفّين» و «الطف» إمتداد لـ «بدر» و«أُحد» وأنّ الذين حاربوا عليّاً والحسن والحسين عليهم السلام في صفّين والطف هم الذين قاتلوا رسول الله صلى الله عليه وآله من قبل في بدر وأُحد.

ورحم الله عمّار بن ياسر فقد كان يقول في صفّين لبعض من أنكر عليه محاربة معاوية وعمرو بن العاص: «هل تعرف صاحب الراية السوداء المقابلة لي؟ فإنها راية عمرو بن العاص قاتلتها مع رسول الله ثلاث مرات، وهذه الرابعة، ما هي بخيرهن ولا أبرهن، بل هي شرّهن وأفجرهن».

وقال لمن تردد يومئذ في قتال معاوية مع الإمام علي عليه السلام:

«أشهدت بدراً وأُحُداً وحُنيناً، أو شهدها لك أب فيخبرك عنها؟

قال: لا، قال فإنّ مراكزنا على مراكز رايات رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ويوم أُحد ويوم حنين، وإن هؤلاء على مراكز رايات المشركين من الأحزاب».

«هل ترى هذا المعسكر ومن فيه؟ فوالله لوددت أنّ جميع من أقبل مع معاوية ممن يرى قتالنا مفارقاً للذي نحن عليه، كانوا خلقاً واحداً فقطعته وذبحته، والله لدماؤهم جميعاً أحلّ من دم عصفور، أفترى دم عصفور حراماً؟»[1].

---

١ ـ وقعة صفّين لنصر بن مزاحم، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٣٢١ ـ ٣٢٢.

شريحة المتخلفين عن الصراع:

وفي كل صراع ثلاثة أطراف، الطرفان المتصارعان والطرف المتفرج المتخلّف، والطرف الثالث أكثر تعقيداً من الطرفين الآخرين المتقاتلين في ساحة الصرع والقتال، وفهم هذا الطرف «المتفرّج» على الساحة أشقّ من فهم الطرفين الآخرين.

وقد أعطى القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بتحليل هذا الطرف بالذات، والآية المباركة التي صدّرنا بها الحديث من سورة التوبة المباركة واحدة من الآيات القرآنية في استعراض وتحليل هذه الشريحة المتخلفة من المجتمع الإسلامي يومذاك.

ونحن في هذه الدراسة نحاول أن نستعرض نموذجاً من المتخلّفين عن ثورة الحسين عليه السلام ندرس ونحلل مواقفهم.

ولا يكاد يختلف المتخلّفون عن معركة «الطف» عن المتخلّفين عن معركة «تبوك» في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله إلاّ أن تبوك تدور حول محور «التنزيل»والطف تدور حول محور «التأويل».

والصراع هو الصراع، ليس على أرض، ولا على مال، وإنّما هو صراع حضاري حول الإسلام والجاهلية، وتعود الجاهلية هذه المرة بعد أن انكسرت شوكته، في بدر، وأُحد، والأحزاب، وحنين، من داخل صفوف المسلمين لتعاود الصراع مع الإسلام بتحريف الإسلام عن مسيره الصحيح وتشويه مفاهيمه وأفكاره وأُصوله والدسّ فيه.

والصراع هذه المرّة كأي صراع حضاري يحمل نفس الضراوة والعنف ولا يقبل الهدنة ولا الصلح.

ولما كان الصراع في الطف نفس الصراع في تبوك فإن المتخلّفين هنا هم من شريحة المتخلّفين هناك، والمواقف نفس المواقف، والقوانين والسنن في هؤلاء وأولئك نفسها، ولنتأمّل في نموذج من هؤلاء المتخلّفين عن الحسين عليه السلام.

خبر الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي

وهذا نموذج من المتخلّفين عن الحسين عليه السلام وقصته معروفة في كتب السيرة.

رافق الإمام الحسين عليه السلام إلى ساحة المعركة ودخل المعركة معه وقاتل قتال الأبطال وأبلى بلاءً حسناً في القتال، استحسنه الإمام ولكنّه اشترط على الإمام عليه السلام منذ أن التحق به أن يجعله في حلّ منه إذا دارت دائرة الحرب عليه، ولم يعد ينفعه قتاله ودفاعه عنه.

فلّما رأى أن المعركة قد دارت على الحسين عليه السلام ووجد أنّ الحسين وأهل بيته وأصحابه عليهم السلام لا محالة مقتولين، ولم يعد ينفع الحسين قتاله ودفاعه، استأذن الحسين عليه السلام أن يترك ساحة القتال وينجو بنفسه، فأذن له الحسين كما وعده من قبل، فهرب الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي بنفسه من ساحة المعركة وترك الإمام ومن معه من أهل بيته وأصحابه للقتل في ساحة المعركة ونجا بنفسه.

فلنقرأ أولاً خبر الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي برواية الطبري من أبي مخنف، ثمّ نحاول أن نحلل هذا الخبر.

روى أبو مخنف عن الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي، قال: قدمت ومالك

بن النضر الأرحبي على الحسين، ثمّ جلسنا إليه، فردّ علينا، ورحّب بنا، وسألنا عمّا جئنا له؟

فقلنا: جئنا لنسلّم عليك، وندعو الله لك بالعافية، ونُحدث بك عهداً، ونخبرك خبر الناس وإنّا نحدّثك أنّهم قد أجمعوا على حربك، فَرِ رأيك.

فقال الحسين عليه السلام: «حسبي الله ونعم الوكيل».

قال: فتذمّمنا، وسلّمنا عليه، ودعونا الله له، قال: «فما يمنعكما من نصرتي؟».

فقال مالك بن النضر: عليّ دين ولي عيال، فقلت له: إنّ عليّ ديناً وإنّ لي لعيالاً، ولكنّك إن جعلتني في حلّ من الانصراف إذا لم أجد مقاتلاً، قاتلت عنك ما كان لك نافعاً وعنك دافعاً، قال: «فأنت في حلّ»[1].

قال أبو مخنف: «حدّثني عبد الله بن عاصم عن الضحّاك بن عبد الله المشْرقي قال: لمّا رأيت أصحاب الحسين قد أصيبوا وقد خلُص إليه وإلى أهل بيته ولم يبق معه غير سويد بن عمرو بن أبي المطاع الخثعمي وبشير بن عمرو الحضرمي قلت له: يا بن رسول الله قد علمت ما كان بيني وبينك، قلت لك: أقاتل عنك ما رأيت مقاتلاً، فإذا لم أرَ مقاتلاً فأنا في حلّ من الانصراف، فقلت لي: «نعم»، قال: صدقت، وكيف لك بالنجاة؟ إن قدرت على ذلك فأنت في حلّ»، قال: فأقبلت إلى فرسي، وقد كنت حيث رأيت خيل أصحابنا تعقر أقبلت بها حتّى أدخلتها فسطاطاً لأصحابنا بين البيوت، وأقبلت أقاتل معهم راجلاً، فقتلت يومئذ بين يدي الحسين رجلين، وقطعت يد آخر وقال لي الحسين يومئذٍ مراراً: «لا تشلل، لا يقطع الله يدك، جزاك

١ ـ تأريخ الطبري، طبعة ليدن ٧: ٣٢١.

الله خيراً عن أهل بيت نبيّك»، فلمّا أذن لي استخرجت الفرس من الفسطاط ثمّ استويت على متنها ثمّ ضربتها حتّى إذا قامت على السنابك رميت بها عرض القوم، فأفرجوا لي وأتبعني منهم خمسة عشر رجلاً حتّى انتهيت إلى «شفيّة» قرية قريبة من شاطئ الفرات، فلمّا لحقوني عطفت عليهم فعرفني كثير بن عبد الله الشعبي وأيّوب بن مشرح الخيواني وقيس بن عبد الله الصائدي، فقالوا: هذا الضحّاك بن عبد الله المشرقي هذا ابن عمّنا ننشدكم الله لمّا كففتم عنه، فقال ثلاثة نفر من بني تميم كانوا معهم: بلى والله لنجيبن إخواننا وأهل دعوتنا إلى ما أحبّوا من الكف عن صاحبهم، قال: فلمّا تابع التميميّون أصحابي كفّ الآخرون، قال: فنجّاني الله»[1].

وقال السماوي في «إبصار العين»:

«بقي الضحّاك بن عبد الله المشرقي مع الحسين عليه السلام حتّى إذا أمر ابن سعد بالرماة فرموا أصحاب الحسين وعقروا خيولهم أخفى فرسه في فسطاط، ثمّ نظر فإذا لم يبق مع الحسين إلاّ سويد «بن عمر» وبشر بن عمرو الحضرمي فاستأذن الحسين، فقال له: «كيف لك النجاة؟، قال: إنّ فرسي قد أخفيته فلم يصب فأركبه وأنجو، فقال له: شأنك، فركب ونجا بعد لأي»[2].

تأمّلات في خبر الضحّاك:

أقبل الضحّاك بن عبد الله المشْرقي، ومالك بن النضر الأرحبي على الحسين عليه السلام ليسلّما عليه، وليجددا به العهد، كما في رواية أبي مخنف، ويظهر أنّ هذا اللقاء تمّ في موقع كربلاء «الطف» بعدما استقرّ الحسين عليه السلام

١ ـ تأريخ الطبري، الطبعة الاوربية ٧: ٣٥٥ ـ ٣٥٤. ونفس المهموم للشيخ عباس القمي: ٢٩٨ ـ ٣٠٠.

٢ ـ إبصار العين: ١٠١.

بأهله وأصحابه فيه، ولم يكن في الطريق، وقبل أن يحاصر الحسين عليه السلام، فقد استأذن مالك بن النضر الأرحبي الحسين عليه السلام في الانصراف، وانصرف من دون أن يواجه مشكلة من قبل الجيش الأُموي.

ويظهر من الرواية أنهما كانا عارفين بموقع الحسين عليه السلام وحقّه وذمّته وحرمته في الإسلام وموقعه من رسول الله صلى الله عليه وآله.

ففي رواية أبي مخنف: «فتذممنا، وسلّمنا عليه، ودعونا الله له».

والتذمّم بمعنى حفظ الذمام، وحفظ العهد والحقّ والحرمة، كما في المدوّنات اللغوية.

إذن، فهما قد عظما وأكبرا ما على ذمّتهما من حقّ الحسين وحرمته وعهده، فلمّا أرادا الانصراف استوقفهما الحسين عليه السلام وقال لهما: «فما يمنعكما من نصرتي؟».

ويلفت نظرنا أنّ الإمام يسألهما عمّا يمنعهما من نصرته قبل أن يسألهما النصرة ويدعوهما إليها.

وكأن في خروج الحسين عليه السلام على يزيد بتلك العصابة القليلة إلى العراق ما يغني عن الدعوة والاستنصار، فلا حاجة مع ذلك إلى أن يستنصر أحداً أو يدعوه، ففي خروج الحسين عليه السلام إلى العراق دعوة واستنصار لكلّ المسلمين، وللحسين عليه السلام حقّ وحرمة على ذمّة كلّ المسلمين.

إذن يسأل الضحّاك وصاحبه: «فما يمنعكما من نصرتي؟».

أمّا مالك بن النضر الأرحبي فقد أراح نفسه وأراحنا بوضوحه وصراحته في الاعتذار عن الاستجابة للحسين والتخلّف عنه، فقال: «عليّ دين ولي عيال» فأعرض عنه الحسين عليه السلام، وانصرف هو لشأنه، وقد أقبلت السعادة

والتوفيق عليه فأعرض عنها.

وأمّا الضحّاك بن عبد الله المِشْرقي، فأجاب الحسين عليه السلام بجواب معقّد، شديد الالتواء والتعقيد، فلا هو رفض دعوة الحسين، وأعرض عنها، كما رفضها صاحبه وأعرض عنه، ولا هو استجاب للحسين عليه السلام وقبل عنه، كما استجاب له أهل بيته وأصحابه.

ولنتأمّل في جواب الضحّاك، فإنه يمثّل شريحة واسعة من النفوس والمواقف إزاء «الدعوة».

وإننا ندرس من خلال الضحّاك بن عبد الله في موقع الطف، ومن خلال المتخلّفين في موقع تبوك شريحة كبيرة في التأريخ الإسلامي، وشريحة كبيرة في تأريخنا المعاصر، ونحاول أن نرسم أبعاد هذه الشريحة في حياتنا المعاصرة، ونشخّص نقاط الضعف في شخصيتها عسى أن نُقَوِّم من سلوكها ما يمكن تقويمه.

وسوف نجعل جواب الضحّاك للحسين عليه السلام موضع التأمّل والدراسة ضمن مجموعة من النقاط:

النقطة الأولى (الاعتذار):

قدّم الضحّاك أول ما قدّم الاعتذار للإمام عليه السلام بما عليه من ديون ومال، شأنه في ذلك شأن صاحبه، فقال: «إنّ عليّ ديناً وإنّ لي لعيالاً».

وأول ما يلفت نظرنا في هذا الجواب، أنّ الضحّاك ومالك بن النضر لم يختلفا في الجواب، فكلّ منهما اعتذر عن تلبية دعوة الحسين عليه السلام بالعيال والدين، غير أنّ الضحّاك استجاب لدعوة الحسين استجابةً محدودة ومقيّدة ومشروطة بعد أن اعتذر أولاً، وأمّا صاحبه الأرحبي فلم يستجب مطلقاً لدعوته.

وفـي هـذا الاعـتذار والاستجابة المشروطة من التعقيد ما ليس في موقف صـاحبه، وقـد كان أحرى به أن يستجيب استجابة محدودة ثمّ يعتذر، فلماذا قـدّم الاعـتذار على الاستجابة؟ إنّ فـي الأمـر لسـرّاً كامـناً فـي أعماق نفس الضـحّاك، فعـندما طلـب الحسين عليه السلام مـنه النصـرة تزاحمـت في نفسه حالة الشـح وحالـة الإنفـاق، فغلبـت حالـة الشح حالة الإنفاق وسبقتها إلى البروز، ولكـن لـم تصادر الحالة الأُخرى تماماً، كما كان في موقف مالك بن النضر الأرحبي.

ولنتأمّل إذن في اعتذار الضحّاك بعياله وديونه:

إنّ الابـتلاء بالديـن والعـيال من سنن الله في حياة الإنسان، وقلّما يشذّ عنه إنسان، شأنهما في ذلك شأن غيرهما من سنن الله تعالى في حياة الإنسان.

فلابدّ للإنسان من عيال، ولابدّ أن يدخل مع الناس في بيع وشراء، فيكون دائناً ومديناً، يطلب الناس ويطلبونه.

وجها الحياة الدنيا:

والديـن والعـيال همـا وجهـان مخـتلفان للدنـيا، فالعـيال تعبـير عـن تعلّـق الإنسـان بالدنـيا وهـو أحـد وجهـي الدنـيا، وهـو مـا يسـمّيه القرآن الكريم بـ «الشهوات» وتجمع هذه الآية الكريمة طائفة من هذه التعلّقات:

﴿زُيِّـنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَـبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[1].

---

١ ـ آل عمران: ١٤.

والديـن هـو الوجه الآخر للدنيا، وهو وجه التبعات والمسؤوليات، والدنيا هـي عـبارة عـن تعلّقـات وتـبعات، ومـن أجـل لذّة التعلّقات يتحمّل الإنسان مـرارة التـبعات، ولابـدّ لكـلّ إنسـان من هذه التعلّقات ومن هذه التبعات ولا يشذّ عن هذه السنّة الإلهية في الحياة إلاّ القليل.

وهـذه (الـتعلّقات) و(التبعات) بمجموعهـا هي العوائق في طريق الإنسان وحركـته إلـى الله تعـالى، تعـيق الإنسـان عن الله سبحانه، وقد أعاقتا في هذه القضـيّة مـالك بـن النضـر الأرحبي إعاقة كاملة، وأعاقتا الضحّاك بن عبد الله المشرقي إعاقة ناقصة.

فكـيف نـتعامل نحـن فـي الدنـيا مع هذه العوائق؟ وما هو موقف الإسلام منها؟

إنّ الحـلّ الـذي يعطـيه الإسـلام للـتعامل مـع هـذه العوائـق «الـتعلّقات والتـبعات»دقـيق فـي غاية الدقّة، وأكثر الذين شطّوا في فهم الحلّ الإسلامي لمسـألة الدنـيا بوجهـيها كـانوا ضـحيّة عدم الدقّة في تناول هذا الحلّ بأبعاده الكاملة.

فلـيس فـي الإسـلام أن يـتخلّى الإنسـان عـن عـيال أو ديـن، أو حـتّى أن يـتخفف عـنهما، والتخلّـي أو الـتخفف مـن العـيال والمـال من الرهبانيّة التي يرفضها الإسلام.

وقـد كـان رسول الله ﷺ يعيش مع الناس ويتزوّج ويتعامل مع الدنيا، كما يـتعامل غـيره، وكان له عيال، وعليه ديون وتبعات، كما كان لغيره، وكان له بيت يضمّ عياله، وكان يدخل السوق في حاجاته وشؤونه كما كان الآخرين يعملون.

وقوام الحلّ الإسلامي هو أن يتحرر الإنسان من أسر العيال والمال، وليس أن يتخلّى أو يتخفف منهما، وبين الأمرين بون بعيد، فليس من الإسلام أن يتخلّى الإنسان أو يتخفف من عياله وماله، ولكن من صلب الإسلام وتعليماته وتوجيهاته أن يتحرر الإنسان من سلطان عياله وماله.

فلا يرفض الإسلام البيت أو السوق في حياة الإنسان، ولا يأمره أن يعتزل هذا أو ذاك، ولكن يرفض أن يتحول البيت أو السوق إلى سجن في حياة الإنسان يقيّدان حركته ويمنعانه عن الانطلاق ويحجزانه ويعيقانه عن الله تعالى.

وبشكل أوضح وتعبير أدق أنّ الإسلام يرفض أن يتحولّ العيال والمال في حياة الإنسان إلى عوائق تعيق حركة الإنسان، كما عاقت حركة مالك بن النضر الأرحبي والضحّاك بن عبد الله المشْرِقي.

كيف تتحوّل العوائق إلى منطلقات؟:

ومن عجب أن الطريقة الإسلامية الصحيحة للتعامل مع وجهي الحياة الدنيا تحوّل هذين الوجهين من الدنيا «التبعات والتعلّقات» من عوائق إلى منطلقات، فتكون الدنيا للإنسان منطلقاً إلى الله سبحانه وليست عائقاً، ويكون ماله وعياله مادة لحركته إلى الله تعالى ومنطلقاً لعروجه إليه عزّ وجلّ.

وإلى هذه الحقيقة يشير الإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام في كلمته، وقد سمع رجلاً يذمّ الدنيا، فقال له فيما قال:

«إنّ الدنيا دار صدق لمن صدّقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتّعظ بها، مسجد أحبّاء الله، ومصلّى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله، اكتسبوا فيها الرحمة،

ورحبوا فيها الجنّة، فمن ذا يذمّها، وقد آذنت ببَيْنها[1]، ونادت بفراقها، ونعت نفسها وأهلها، فمثّلت لهم ببلائها البلاء، وشوقتهم بسرورها إلى السرور، راحت بعافية، وابتكرت[2] بفجيعة، ترغيباً وترهيباً، وتخويفاً وتحذيراً، فذمّها رجال غَداةَ الندامة، وحمدها آخرون يوم القيامة، ذكّرتهم الدنيا فتذكّروا، وحدّثتهم فصدقوا، ووعظتهم فاتّعظوا»[3]. ويقول عليه السلام في كلمة أُخرى:

«الدنيا دار ممر، لا دار مقر، والناس فيها رجلان رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل إبتاع نفسه فأعتقها»[4].

مقارنة بين زهير بن القين رضي الله عنه والضحّاك:

ولقد كان زهير بن القين رضي الله عنه يملك من المال والعيال ما كان يملكه الضحّاك ابن عبد الله، وكان يعيش في دنياه، كما كان يعيش الضحّاك في دنياه، بل قد يكون حظّ زهير من الدنيا أعظم من حظّ الضحّاك، فقد كان زهير بن القين رضي الله عنه زعيماً في قومه، وجيهاً في بلده، ولم يحفل المؤرّخون بأمر الضحّاك وصاحبه في شأن من شؤون الدنيا، وكان الضحّاك أقرب إلى الحسين عليه السلام وأكثر ميلاً إليه من زهير، فقد كان زهير رضي الله عنه عثمانيّ الهوى، كما يذكر أصحاب السير، وكان يحرص ألاّ يلتقي الحسين عليه السلام بمنزل في طريقه إلى العراق، فإذا وجد الحسين قد نزل منزلاً فيه ماء نزل غيره، وأمّا

١ ـ بَيْنها: بعدها وزوالها عنهم.

٢ ـ ابتكرت: اصبحت، تبتكر أي تصبح.

٣ ـ نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة ١٢٦.

٤ ـ نهج البلاغة، باب الحكم، الحكمة ١٢٨.

الضحّاك وصاحبه مالك بن النضر فقد قصدا الحسين في كربلاء، وجلسا إليه، ودعوا له، ولم يكن يحدث شيء من ذلك لو لم يكن الضحّاك ومالك بن النضر من شيعة الحسين عليه السلام وممن تميل إليه قلوبهم.

ومع ذلك كلّه فإن «العيال والمال» قد أعاقاهما عن الالتحاق به بشكل كامل أو بشكل ناقص.

وأمّا زهير بن القين رضي الله عنه فقد رجع من عند الحسين عليه السلام ولم يستغرق اجتماعه بالإمام في أغلب الظن بضع دقائق، وقد أعدّ نفسه للوفود على الله مع الحسين، والانصراف الكامل عن الدنيا، فأقبل إلى زوجته «دلهم» بنت عمرو(رحمها الله) وقال لها بقوّة وعزم وفي نفس الوقت بسهولة وراحة: «إلحقي بأهلك فإني لا أحبّ أن يصيبك بسببي إلاّ خيراً»، ثم قال لمن معه: «من أحبّ منكم نصرة ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وإلاّ فهو آخر العهد»[1]، ولم يعقه عن ذلك مال ولا عيال.

وقد كانت زوجته «دلهم» رحمها الله هي التي دفعته وشجعته على الاستجابة لدعوة الحسين عليه السلام، فقد أصابه وأصاب رفاقه ذعر غريب عندما جاء رسول الحسين، وهو على الطعام، يدعوه إلى زيارة الإمام، فصمت وصمتوا، وكأنّ على رؤوسهم الطير.

فاخترقت المرأة المؤمنة الشجاعة «دلهم بنت عمرو» (رحمها الله) هذا الصمت والذعر بقوّة، وقالت لزوجها ـ ورسول الحسين يسمعها ويشهد الموقف ـ: «سبحان الله أيبعث إليك ابن بنت رسول الله ثم لا تأتيه، لو أتيته

---

١ ـ مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبد الرزاق المقرّم: ١٨٨.

فسمعت كلامه؟!!»[١].

ومع ذلك فلم يتوان زهير عندما قرر الوفود على الله تعالى مع الحسين أن يقول لزوجته دلهم ـ هذه المرأة الشجاعة ـ «الحقي بأهلك».

إذن ليست المسألة مسألة المال والعيال، وإنّما المسألة في أمر آخر، في طريقة التعامل مع المال والعيال.

والفرق بين الضحّاك وزهير رضي الله عنه لم يكن في أنّ الأول كان يملك من المال والعيال ما لا يملكه الثاني، وإنّما كان في طريقة تعاملهما مع المال والعيال.

فقد كان الضحّاك وصاحبه الأرحبي أسيرين للمال والعيال، فأعاقهما عن الانطلاق مع الحسين، وكان زهير بن القين متحرراً من أسر المال والعيال، فلم يعيقاه عن الحركة مع الحسين عليه السلام للوفود على الله.

النقطة الثانية (الاستجابة المشروطة):

والنقطة الثانية في جواب الضحّاك أنه لم يرفض القتال إلى جانب الحسين عليه السلام، ولم يعتذر بصورة مطلقة، كما اعتذر صاحبه مالك بن النضر، بل قاتل مع الحسين وضرب الأعداء بين يديه، ودعا له الحسين عليه السلام.

وهذه نقطة مشرقة في موقف الضحّاك من الحسين، فهو ليس من الذين وصفهم الفرزدق الشاعر بقوله: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك»، وإنّما كان قلبه وسيفه مع الإمام الحسين، وهو صادق في هذا وذاك، إلاّ أنه لم يعط سيفه للحسين عليه السلام، ولم يضع سيفه تحت أمر الحسين إلاّ بمقدار، وحدّد

---

١ ـ حياة الإمام الحسين عليه السلام للشيخ القرشي ٣: ٦٧.

لذلك شرطين: «إذا لم أجد مقاتلاً قاتلت عنك ما كان لك نافعاً وعنك دافعاً»، وهذا شرط غريب.

إنّ الضحّاك يحصر نصرته للحسين عليه السلام بين شرطين:

١ ـ أن يكون الحسين عليه السلام بحاجة إليه ولا يغني عنه غيره.

٢ ـ وأن يكون قتاله دون الحسين عليه السلام نافعاً له فإن لم يكن هذا أو لم يكن ذلك فإنّ الضحّاك في حلّ من أمره.

ونحن لا يعجبنا أن نشكّك في صدق نيّة الضحّاك في موقفه من الإمام، رغم فراره من الزحف في اللحظات الأخيرة، وتركه للإمام عليه السلام في أحرج اللحظات، وإيثاره للعافية، فإنّ لدينا ـ مع كلّ ذلك ـ من الشواهد ما يكفي لإثبات حسن نيّة الضحّاك، وصدقه في الوقوف إلى جنب الإمام، والدفاع عنه، إلاّ أننا نجد عنده إحساساً محدوداً بالمسؤولية تجاه الموقف، وتقتيراً شديداً في العطاء، في إطار هذه المسؤولية، ومحاولة جادّة في إخضاع الإنفاق في سبيل الله لمعادلات دقيقة شديدة التعقيد.

فهو يعطي من نفسه لله تعالى ولكنّه عطاء مشروط، ومحدود، وبحساب، وضمن تقديرات دقيقة، وليس كما يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[1].

والدقّة في المحاسبة، والمحاسبة الدقيقة أمر جيّد لا نشكّ في حسنه وفائدته، ولكن عندما يكون طرف المحاسبة هو نفس الإنسان، وقد ورد في الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»، وأما عندما يكون طرف الحساب هو الله تعالى فإنّ المحاسبة بهذه الدقّة وضمن هذه الشروط

---

١ ـ التوبة: ١١١.

والقيود أمر قبيح مع الله سبحانه.

والضحّاك هنا يتعامل مع الله تعالى، وإن كان طرف التعامل في ظاهر الأمر هو الحسين‌عليه‌السلام.

ولا يطلب الحسين‌عليه‌السلام أمثال الضحّاك في حركته هذه، وإنما يطلب لنصرته أُولئك الذين يبذلون كلّ ما عندهم من الأنفس والأموال لله تعالى، من دون حساب وشروط وحدود وقيود، فقد خطب‌عليه‌السلام في الناس لمّا أراد الخروج من مكّة إلى العراق وقال:

«ألا ومن كان فينا باذلاً مهجته، موطّناً على لقاء الله نفسه، فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله»[١].

ولا شكّ إنّ هذا العطاء الشحيح خير من النضوب، على كلّ حال، ولكن أصحاب هذا العطاء المحدود لا يستطيعون أن يسايروا الحسين‌عليه‌السلام في مثل هذه الرحلة.

وأعتقد أنّ عبارة «لم يوافق» في هذا الموضوع تساوي عبارة «لم يستطع»، فإنّ الضحّاك «لم يوافق» أن يقاتل من دون الحسين بلا حدود وقيود وبنفس الملاك «لم يستطع» أن يساير الحسين إلى الشوط الأخير من رحلته.

العلاقة بين العمل والجزاء:

إنّ العمل والجزاء نوعان من العطاء، العمل هو ما يقدّمه الإنسان لله تعالى ﴿فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[٢] والجزاء عطاء الله للإنسان في مقابل عمله،

---

١ ـ مقتل الحسين‌عليه‌السلام للسيد المقرّم، منشورات مؤسسة البعثة ـ طهران ـ: ١٦٦. واللهوف على قتلى الطفوف للسيد ابن طاووس: ٣٣. وابن نما: ٢٠.

٢ ـ آل عمران: ٩٧.

العمل من الإنسان، والجزاء من الله سبحانه، وبين الجزاء والعمل صلة وعلاقة يستعرضها القرآن الكريم بدقّة وتفصيل، ولسنا الآن بصددها، وإنما نحن بصدد اختلاف الجزاء من عند الله باختلاف العمل من جانب الإنسان من حيث الحساب واللاحساب، وهي مسألة جديرة بالاهتمام وموضع الشاهد في حديثنا هذا، فإنّ عطاء الإنسان محدود على كل حال إلاّ أنه قد يعطى لله تعالى بحساب ومقدار، وقد يعطى من دون حساب وتقدير.

وهاتان طائفتان من الناس:

١ ـ طائفة تعطي لله بحساب وتقدير، كالضحّاك بن عبد الله المشرقي، يعطي لله شيئاً، ويحتفظ لنفسه بشيء، وإذا تواردت على شيء أراده الله تعالى وأراده هواه قدّم هواه على إرادة الله سبحانه.

٢ ـ وطائفة أُخرى تعطي لله ما آتاها الله تعالى من غير حساب ولا تقدير، وهؤلاء هم الذين تقول عنهم الآية الكريمة:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[1].

هؤلاء اشترى منهم الله أنفسهم وباعوها لله تعالى، وقطعوا علاقتهم بأنفسهم، فهي لله عزّ وجلّ اشتراها منهم، ولا شأن لهم بها بعد، يصنع بها ما يشاء، والثمن مقبوض ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾.

فقد تمّ البيع وتمّ الشراء، وتمّ استلام الثمن، فلا يملك المؤمن من نفسه وماله إذن شيئاً، ليملك التقدير والحساب في عطائه وبذله، فهي كلّها لله تعالى يأخذ منها ما يشاء، ويدع منها ما يشاء، والله تعالى يجزي هؤلاء وأُولئك على نحوين من الجزاء: جزاء محسوب ومحدود، وجزاء من غير

١ ـ التوبة: ١١١.

حساب، وها نحن نشرح تفصيل هذا الأمر:

إنّ الأجر الذي يعطيه الله لعباده في مقابل أعمالهم كريم، وعظيم، وكبير، وحسن، وغير ممنون. وهذه خمسة أوصاف للأجر الذي يرزق الله عباده على حسناتهم:

١ ـ فهو أجر كريم: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[١].

٢ ـ وهو أجر عظيم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

٣ ـ وهو أجر كبير: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٣].

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٤].

٤ ـ وهو أجر حسن: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾[٥].

٥ ـ وهو أجر غير ممنون: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[٦].

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[٧].

وهذه الأوصاف الخمسة عامّة شاملة لكلّ أجر يرزق الله عباده ممن

١ ـ الحديد: ١١.

٢ ـ آل عمران: ١٧٢و١٧٩.

٣ ـ فاطر: ٧.

٤ ـ الحديد: ٧.

٥ ـ الفتح: ١٦.

٦ ـ القلم: ٣.

٧ ـ التين: ٦.

يعطي لله بلا حساب أو بحساب، إلاّ أنّ الذين يعطون لله تعالى من دون حساب وتقدير يحاسبهم الله في السيئات حساباً يسيراً:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾[1].

هذا في حساب السيئات، أمّا في الحسنات فإنّ لله تعالى نوعين من الأجر أجر محدود وبحساب، وأجر غير محدود ومن دون حساب.

والأول منهما للذين يعطون لله تعالى بحساب وتقدير، والثاني منهما للذين يعطون لله تعالى من أموالهم وأنفسهم بلا حساب وتقدير.

وليس معنى الحساب والتقدير من جانب الله المساواة بين العمل والجزاء في الحجم والكم، وإنّما معناه وجود التناسب بين العمل والأجر.

وأمّا عندما يكون عطاء العبد لله من دون حساب فإنّ جزاء الله تعالى له يكون من غير حساب وتقدير، يقول سبحانه:

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2].

وتستوقفنا هذه الآية المباركة من سورة النور طويلاً في شأن الجزاء عندما يكون العمل من جانب الإنسان، من غير حساب:

﴿رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

وهذه ثلاث خصائص للجزاء الإلهي:

---

١ ـ الانشقاق: ٧ ـ ٨.

٢ ـ الزمر: ١٠.

٣ ـ النور: ٣٧ ـ ٣٨.

الخاصية الأُولى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾، فالجزاء من عند الله ليس بأسوأ ما يعمل العبد ولا بمتوسط ما يعمل العبد، وإنّما بأحسن ما يعمله.

ولابدّ من توضيح لهذه الفقرة من الآية الكريمة:

فإنّ للناس في الجزاء طريقين معروفين:

١ ـ الجزاء بأسوأ ما يعمل الطرف الآخر، فقد يحسن الإنسان إلى صاحبه عُمْراً طويلاً ثم يسيء إليه مرّة واحدة، فيجعل صاحبه هذه الإساءة ميزاناً لعلاقته به وينسى كلّما سبق له من فضل وإحسان إليه، وهذا هو الجزاء بالأسوأ.

٢ ـ وقد يكون الجزاء فيما بين الناس بأوسط ما يفعلون، كما يقدّر المدرّسون درجات طلاّبهم بأوسط إجاباتهم في الامتحانات وهو الحساب بالمعدلات.

والله تعالى لا يجزي عباده بأسوأ ما يعملون ولا يجزيهم بأوسط ما يعملون، وإنّما يجزيهم بأحسن ما عملوا، وله الحمد ربّ العالمين.

والخاصيّة الثانية: للجزاء في هذه الآية المباركة هي: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ ولا علاقة لهذا بأعمالهم إطلاقاً، فهو تعالى يزيدهم في الجزاء من فضله بما يشاء وكيفما يشاء.

والخاصيّة الثالثة: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهذا أعظم ما في هذه الآية، فإنّ رزق الله تعالى لعباده يوم القيامة في مقابل حسناتهم رزق من غير حساب ولا تقدير، فإنّ العبد لو كان يعطي لربّه مما آتاه من غير حدود ولا حساب، فإنّ الله تعالى أولى بأن يعطي عبده يوم القيامة من غير حدود ولا حساب.

النقطة الثالثة (التحلّل من الالتزام):

بعد أن يعتذر الضحّاك إلى الحسين عليه السلام بديونه وعياله، يطلب من الإمام أن يجعله في حلٍّ من الانصراف إذا شاء فيقول: «ولكنّك إن جعلتني في حلٍّ من الانصراف إذا لم أجد مقاتلاً قاتلت عنك»، والحلّ في مقابل الالتزام، ولا يمكن أن يرتبط الإنسان بالتزامين متعاكسين في وقت واحد، فإذا كان الضحّاك ملتزماً تجاه ديونه وعياله، فمن الطبيعي أنه لا يستطيع أن يكون ملتزماً تجاه الإمام، ولابدّ من أن يتحرّر من أحد الالتزامين، وقد آثر أن يتحرر من التزامه تجاه الحسين دون التزامه تجاه ديونه وعياله، والالتزام تجاه الحسين هو الالتزام تجاه الدعوة والجهاد.

(التزام) و(حِلّ):

والضحّاك يكشف لنا هنا عن موقف غريب في سلوكه وتعامله مع عياله وماله من طرف ومع الله تعالى من طرف آخر.

ولابدّ من أن نكشف في هذه الوقفة هذا الموقف لتكتمل عندنا الصورة التي نريد أن نرسمها للضحّاك من خلال جوابه للحسين عليه السلام فهو يطرح أولاً عذره من خلال التزامه بالنسبة إلى عياله وديونه، ثم يطلب ثانياً منه أن يكون في حِلٍّ من أمره عندما يريد الانصراف إذا لم يجد قتاله من دونه نافعاً له.

ثم يعرض على الحسين عليه السلام استعداده للقتال والدفاع عنه بصورة محدودة ومقيّدة، فهو حسب هذا التسلسل الذي نجده في جوابه للإمام يقدّم التزامه تجاه عياله وديونه أولاً، ثم يطلب من الحسين عليه السلام أن يكون في حلٍّ من أمره ثانياً.

وواضح أنّ هذا الالتزام الذي يحرص عليه الضحّاك تجاه الدنيا، وهذا الحلّ الذي يطلبه الضحّاك من الحسين تجاه الله أمر غريب في شخصيّة الضحّاك، وقد كان أحرى به وأجدر أن يكون حريصاً بهذا الالتزام تجاه الله، وبهذا الحلّ والتحلّل والتحرر تجاه الدنيا.

إنّ تفكير الضحّاك بن عبد الله في هذا الموقف تفكير محتاط ومتحفّظ بصورة غريبة، فهو في الوقت الذي يستجيب لدعوة الإمام يبقي الأبواب من خلفه مفتوحة ليتمكّن من العودة إلى الدنيا عندما يبلغ المفترق الذي لا يستطيع بعده أن يجمع بين الدنيا والآخرة، ولابدّ من أن يختار أحدهما، إمّا ديونه وعياله وإمّا الآخرة، فيبقي الأبواب من ورائه مفتوحة ليتمكّن من أن يرجع إلى الدنيا في اللحظة الحرجة من المسير.

ونحن إذا استثنينا أُولئك الذين يتحركون على غير صراط الله، ويصدّون الناس عن الحركة إلى الله تعالى، نجد أنّ سائر الناس في تحركهم إلى الله على طائفتين:

الطائفة الأُولى: تتحرّك إلى الله سبحانه في جدّ وعزم، وصدق، تهدم من ورائها جسور العودة إلى الدنيا، لا يطردون الدنيا ولا يهجرونها، ولكنّهم إذا بلغوا المفترق الذي لابدّ لهم من أن يختاروا عنده الدنيا أو الآخرة لا يؤثرون على الآخرة شيئاً.

وهؤلاء هم «الصادقون» في التحرّك إلى الله ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[1]، وموقعهم من الله عزّ وجلّ في الآخرة ﴿فِي

---

١ ـ الأحزاب: ٢٣.

مَقْعَد صدْق عندَ مَليك مُقْتَدر﴾[١].

وطائفة أُخرى من الناس يتحركون إلى الله في حذر واحتياط يحبّون الله ورسوله ولكن ما لم يزاحم دنياهم، وما لم يسلبهم دنياهم، فإذا بلغوا المفترق الذي لابدّ فيه من الاختيار الصعب آثروا الدنيا على الآخرة واختاروا شقّ الدنيا، وعادوا إليها، ولكيلا ينقطع طريق العودة عليهم في اللحظات الأخيرة لا يهدمون من ورائهم الجسور التي تنقلهم إلى الدنيا.

فهؤلاء يتحرّكون إلى الله سبحانه، ولا نشكّ في نيّتهم وصدقهم ـ في هذه الحدود ـ ولكن كلّما قطعوا شوطاً من الطريق، مدّوا من ورائهم بقدره جسراً ينقلهم إلى الدنيا.

وهكذا كان الضحّاك بن عبد الله اشترط على الحسين عليه السلام قبل كلّ شيء أن يكون في حلّ من الانصراف إلى دَيْنه وعياله، فدخل مع الحسين فيما دخل فيه من قتال جيش بني أُميّة، وقاتل بين يدي الحسين عليه السلام وقتل منهم وجرح عدداً ولكنّه قد تحوّط لنفسه منذ أول ساعة فأخفى فرسه داخل فسطاط بين البيوت، وقاتل راجلاً بين يدي الحسين لتسلم له فرسه وليركبها ويفرّ بها إلى خارج ساحة المعركة ويهرب عن جند ابن زياد في اللحظة الحرجة التي لابدّ له فيها من أن يختار أحد الأمرين.. فلمّا جدّ الجد ذكّر الإمام الحسين بإذنه له في الانصراف متى شاء ومتى لم ينفعه دفاعه عنه وقتاله من دونه، فصدّقه الحسين، فركب فرسه وهرب من الآخرة إلى الدنيا.

إنّ هذا الرجل دقيق في تقدير المسافة التي يستطيع أن يساير الحسين عليه السلام فيها، يضبط حساباته في هذه الحركة بشكل دقيق، ويتحوّط للعودة إلى

---

١ ـ القمر: ٥٥.

الدنيا عندما يصل إلى المفترق الذي يؤثر عنده الدنيا على الآخرة.

يشخّص المفترق بدقّة، ويحدد المسافة التي يساير فيها الحسين بدقّة، ويتحوّط للعودة من الله إلى الدنيا في اللحظة المناسبة، ويبقي من ورائه وهو يتحرّك مع الحسين عليه السلام إلى الله بابين مفتوحين يرجع من خلالهما إلى الدنيا عندما يريد:

أحدهما: موافقة الحسين عليه السلام أن يكون في حلٍّ من أمره عندما يريد الانصراف إلى الدنيا.

وثانيهما: فرسه التي احتفظ بها في فسطاط داخل البيوت عندما حاصر جيش بني أُميّة الحسين عليه السلام ليستطيع أن يركبها في اللحظة المناسبة من الآخرة إلى الدنيا.

ومرّة أُخرى نريد أن نقارن في هذه النقطة من البحث بين الضحّاك وزهير، كلٌّ منهما أقبل على الله تعالى مع الحسين عليه السلام.

الضحّاك دخل معركة الطف إلى جنب الإمام وقاتل وجاهد بين يديه، وزهير رضي الله عنه أقبل مع الحسين عليه السلام وجاهد وقاتل، ولكنّ الفرق بين هذا وذاك إنّ الضحّاك أقبل على الله وأبقى الأبواب مفتوحة من خلفه، بكلّ دقّة واحتياط، وأبقى الجسور قائمة من ورائه إلى الدنيا ليعود إليها في اللحظة التي يريد، وأمّا زهير فعندما قرّر الوفود على الله تعالى مع الحسين عليه السلام قطع كلّما كان بينه وبين الدنيا من جسور، وأغلق كلّ باب بينه وبين الدنيا، وقال لزوجته «دلهم» في عزم وقوّة ويُسر: «الحقي بأهلك».

وإننا نتابع تفكير الضحّاك وما أخذه الضحّاك من احتياط لنفسه في مثل تلك الساعة وتلك المعركة فنرى أنّ هذه الدقّة في التقدير والضبط في

الحساب، والتحفظ والاحتياط الشديدين جدير بالاحترام لو كان في علاقة الإنسان بنفسه ومحاسبته لها.

أمّا عندما يكون التعامل مع الله تعالى فمثل هذا التقدير والدقّة والاحتياط للعودة إلى الدنيا هو من الشح في العطاء، ومن التردد في العمل وفقدان العزم.

الجسر الذي مدّه الضحّاك إلى الدنيا من عمق (الطف):

ولنستمع إليه مرّة أُخرى:

(لمّا رأيت أصحاب الحسين قد أُصيبوا، وقد خَلُصَ إليه وإلى أهل بيته، ولم يبق معه غير سويد بن عمر الحنفي وبشير بن عمرو الحضرمي قلت له: يا بن رسول الله قد علمت ما كان بيني وبينك قلت لك: أُقاتل عنك ما رأيت مقاتلاً، فإذا لم أرَ مقاتلاً فأنا في حلّ من الانصراف فقلت لي: «نعم»، فقال: «صدقت»وكيف لك النجاة؟ إن قدرت على ذلك فأنت في حلّ، قال: فأقبلت إلى فرسي، وقد كنت حيث رأيت خيل «أصحابنا»[1] تعقر أقبلت بها حتّى أدخلتها فسطاطاً لأصحابنا بين البيوت وأقبلت أُقاتل معهم راجلاً.. فلمّا أذن لي استخرجت الفرس من الفسطاط ثم استويت على متنها، ثمّ ضربتها حتّى إذا قامت على السنابك رميت بها عرض القوم، فأفرجوا لي..)[2].

إنّ أمر الضحّاك لغريب في نوعه، فهو يمدّ جسور الدنيا إلى عمق معركة الطف وإلى داخل خيام الحسين عليه السلام حيث لا يوجد فيها غير الآخرة، فهذه

---

١ ـ يقول الضحّاك: خيل «أصحابنا» وهو عازم على مفارقتهم والانفلات من مصيرهم، وأيّ صحبة يا ترى بعد أن فارقهم وهجرهم إلى دينه وعياله ولحق بصاحبه مالك بن النضر الأرحبي؟؟!!

٢ ـ تأريخ الطبري، الطبعة الاوربية ٧: ٣٥٥ ـ ٣٥٤. ونفس المهموم للشيخ عباس القمي: ٢٩٨ ـ ٣٠٠.

الفرس التي أخفاها الضحّاك في فسطاط لأصحاب الحسين عليه السلام بين البيوت يوم عاشوراء هو الجسر الذي مدّه الضحّاك لينقله إلى الدنيا.

وقد رأينا وسمعنا كثيراً عن امتداد الدنيا إلى أعماق النفس في مختلف مراحل الطريق إلى الله سبحانه، ولكننا لم نَرَ فيما رأينا ولم نسمع فيما سمعنا أنّ الدنيا تنفذ وتمتدّ وتكمن في نفس الإنسان إلى هذا الحد، فيدخل الإنسان معركة الطف مع الإمام ويسقط أهل بيت الحسين عليه السلام وأصحابه صرعى بين يديه، ويقاتل بين يديه عليه السلام، ويدعو له الحسين، وهو يرى الإمام واقفاً وحده بين يدي الأعداء ثمّ لم يفارقه حبّ الدنيا، ونفوذ الدنيا وسلطانها على نفسه في هذه المراحل جميعاً.

إنّ التصاق الدنيا بنفس الإنسان لغريب، ومن الخطأ أن يغترّ الإنسان بنفسه فيتصوّر أنه قد تحرر من سلطان الدنيا، ونفوذها، ولم يعد بحاجة إلى معاناة وتزكية وجهاد للنفس.

إنّ في نفس الإنسان خبايا عميقة، وأعماقاً مجهولة يكمن فيها حبّ الدنيا، ويبقى هذا التعلّق يطارد الإنسان في حركته إلى الله تعالى من حيث يعلم الإنسان أو لا يعلم، حتّى إذا بلغ الإنسان نقطة الاختيار الصعب برز حبّ الدنيا من أعماق النفس المجهولة إلى السطح البارز للنفس، وغيّر وجهة الإنسان وحركته من الله تعالى إلى الدنيا.

إنّ حبّ الدنيا يلاحق الإنسان إلى هذه النقطة التي لا يكاد أن يبلغها الإنسان إلاّ بعد أن يخرج من مصفاة الابتلاء عشرات المرّات، ومع ذلك كلّه يبقى هذا الحبّ كامناً في نفسه.

إننا لا نريد أن نتّهم الضحّاك في صدقه وحبّه للحسين عليه السلام، وليس من

سبب يدعونا أن نتّهم هذا الرجل الذي وقف هذا الموقف يوم عاشوراء من الحسين عليه السلام في نيّته وصدقه، فلم يطلب الضحّاك من الدفاع عن الحسين عليه السلام ومن القتال بين يديه دنيا، وهذا حقّ يجب أن نقول به ونعترف له به، لكنه مع ذلك كلّه لم يتحرر من حبّ الدنيا ومن التعلّق بالدنيا ومن تبعات الدنيا، حتّى عندما ساقه التوفيق والسعادة الإلهية إلى هذه المعركة الحاسمة بين الحقّ والباطل في التأريخ، ووضعه الله تعالى في أشرف موقع يتصوّره الإنسان، وهو موقع الدفاع عن الإسلام إلى جنب ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله.

والآن بعد هذا التحليل النفسي لموقف الضحّاك بن عبد الله المشرقي يجب أن نوجز مرّة أُخرى العناصر التي تدخل في تكوين هذا الموقف الغريب، وأهم هذه العناصر هي:

١ ـ حبّ الدنيا والتعلّق بها، وهو رأس هذه العناصر جميعاً، وهو أول شيء اعتذر به الضحّاك إلى الحسين عليه السلام عن مسايرته ونصرته، فلم يتخفف ولم يتحرّر الضحّاك من الدنيا وهو في وسط هذه المعركة المصيريّة، كما تخفّف وتحرر عنها «زهير» من قبل.

٢ ـ شحّة العطاء، وهي غير نضوب النفس، ففي حالة النضوب والجفاف ينقطع كلّ خير عن نفس الإنسان، أمّا في حالة «الشحّ» فيبقى للإنسان عطاء محدود وشحيح، وقد رأينا كيف وضع الضحّاك نصرته للحسين عليه السلام ضمن مجموعة من الشروط، ولم يبذل نصرته بذلاً، كما صنع سائر أصحاب الحسين عليه السلام، ولم يوطّن نفسه للقاء الله كما طلب الإمام الحسين من المسلمين في مكّة المكرمة.

٣ ـ التحرّر عن الالتزامات التي تفرضها الدعوة والجهاد، والتحلّل عن القيود والعهود التي يفرضها الولاء لله تعالى ولرسوله وللأئمّة المسلمين.

وهذه العناصر الثلاثة تؤدي إلى ظواهر سلبيّة كثيرة في شخصية الإنسان من قبيل:

الخوف، والجبن، والخضوع، والانقياد للطاغوت، وانحسار سلطان الضمير عن حياة الإنسان وسلوكه.

ولسنا نريد أن نقول: إنّ هذه العناصر كانت موجودة مجتمعة في موقف الضحّاك بن عبد الله، ولكننا نريد أن نقول إنّ أمثال هذه المواقف يمكن أن تنحلّ إلى هذه المجموعة من العناصر السلبيّة.

وفي ختام هذه التأملات نعتذر من الضحّاك بن عبد الله المشْرِقي إذا كنّا قد أسأنا إليه، وتناولنا موقفه من الحسين عليه السلام بالتحليل والنقد بهذه الصورة، ولا نريد أن نبخسه حقّه، فقد نال ما حُرِمنا منه نحن من شرف القتال بين يدي الحسين عليه السلام، ومن دعاء الحسين عليه السلام له.. وإنّما كنّا نريد أن نجعل من نقاط الضعف في موقفه وسيلة لتقويم نقاط الضعف في مواقفنا وسلوكنا.

قيمة الوراثة في حياة الإنسان

تـأملات في زيـارة وارث

تمهيد

للوراثـة فـي حـياة الإنسـان نوعـان مـن التأثـير لهمـا قـيمة وفاعلية كبيرة، وهاتان القيمتان هما:

١ ـ القيمة التكوينية للوراثة.

٢ ـ القيمة الإيحائية والتربويّة للوراثة.

وسـوف نسـتعرض هذيـن النوعيـن مـن التأثـير، ومـا لهمـا من دور فاعل ومؤثر في حياة الإنسان.

فنتحدّث أوّلاً عـن القـيمة التكوينـية للوراثـة، ونقصد بها التأثير الطبيعي والتكوينـي الـذي تـتركه الوراثـة فـي حياة الإنسان في مقابل التأثير التربوي والإيحائـي للوراثـة، ونـتحدّث ثانـياً عـن الإيحـاءات الـتربوية الـتي تتركها الوراثـة فـي حياة الإنسان وما لهذه الإيحاءات التربويّة من أثر فعّال في حياة الإنسان.

١ـ القيمة التكوينية للوراثة

في ضوء دراسة النظرية الإسلامية من التاريخ والارتباط السببي بين مراحل التاريخ المختلفة نقول: إنّ الحضارة الواحدة امتداد واحد على مراحل زمنية مختلفة، وكلّ مرحلة من هذه المراحل ترتبط بالمراحل السابقة تحكيها وترثها.

ولا يمكن من الناحية العلمية تفكيك المراحل المختلفة للحضارة الواحدة، واعتبار كلّ شطر منها وحدة قائمة بالذات.

إنّ اليوم الحاضر مرآة للأمس الماضي، وجزء لا يتجزّأ منه، ولا نستطيع أن نفهم اليوم إن لم نربطه بالأمس، ولا نستطيع أن نفهم الشطر المعاصر من أيّة حضارة إذا لم نبحث عن جذورها ومكوّناتها في المراحل السابقة من التاريخ.

دراسة في الشريحة الحضارية:

إنّ كلّ شريحة حضارية تعتبر حصيلة جهود طويلة لأجيال من أبناء هذه الحضارة في مراحل مختلفة من التاريخ، ووراثة لميراث الأجيال السابقة في العادات والتقاليد والأعراف والثقافة والتصوّرات والحبّ والبغض.. وعندما نقتطع نحن هذه الشريحة المعاصرة أو هذا الجيل المعاصر من الحضارة عن جذوره وأُصوله لا نكاد نستطيع أن نفهمه حقّ الفهم.

ومن السذاجة أن نتصوّر أنّ هذه الشريحة أو تلك من الشرائح الحضارية قد تكوّنت بصورة عفويّة وبمعزل عن التاريخ الذي ترتبط به.

يقول الدكتور محمّد زكي العشماوي في بحث له في مجلة «عالم الفكر»:

«ونحن مع إيماننا المطلق بحركة التطوّر التي لا تعرف النكوص أو الرجوع إلى الخلف، فإنّنا نؤمن في الوقت ذاته بأن كلّ ما يدخره الإنسان ويختزنه من ماضي الحياة البشرية ليس حياة ميّتة، بل لا يمكن أن تموت، لأنها جزء لا يتجزّأ من الحياة الكبرى التي لا تفنى والتي لا تهرم ولا تدركها الشيخوخة»[١].

البُعد الأُفقي والبُعد العمودي لكلّ حضارة:

إنّ من الخطأ أن نفهم المجتمع والحضارة الإنسانية في البُعد السطحي فقط، وأن يغيب عنّا البُعد العمودي الذي يعتبر المصدر والأساس لأيّة حضارة.

فليست الحضارة ـ بالتأكيد ـ هي مجموعة التفاعلات الاجتماعية التي تحدث على مقطع زمني خاصّ وعلى السطح المرئي من الحضارة فقط.. وإنّما هناك من وراء هذا السطح المرئي من الحضارة الأعماق غير المرئية للحضارة.

وفي ضوء هذا الارتباط السببي بين الماضي والحاضر في المقاطع الزمنية المتعدّدة والتفاعل بين عناصر الحضارة الواحدة في المقطع الزمني الواحد نستطيع أن نفهم الحضارة.

التبادل والتفاعل بين عناصر الحضارة الواحدة:

ففي المقطع الزمني الواحد نجد أن عناصر المجتمع الواحد تتفاعل مع

---

١ ـ مجلّة «عالم الفكر» المجلّد الرابع، العدد الأول، ص ١٣: الحاضر ضمير المستقبل، للدكتور العشماوي.

بعض في تأثير وحركة متبادلة. فالمدرسة تؤثر في العائلة تأثيراً قوياً، كما أن العائلة تؤثر في المدرسة، ولا نستطيع أن نفهم عناصر الحضارة الواحدة إذا لم نفهم هذا التأثير المتبادل والمتقابل بين عناصر الحضارة الواحدة وفي مقطع زمني واحد.

الأعماق الحضارية:

وبمقياس أقوى وأبلغ يكون تأثير الماضي في الحاضر في سلسلة مترابطة من الحلقات من الأسباب والعلل.

فمبعث رسول الله ﷺ مثلاً في القرن السادس الميلادي له تأثير بليغ، وفوق حدود التصوّر في كلّ مراحل حضارتنا خلال القرون الأربعة عشر التي مرّت على هذه الأُمّة.

ولا يمكن عزل هذا الحادث الكوني الكبير عن كلّ مراحل تاريخنا وحضارتنا، وليس من الممكن أن تكون أيّة شريحة من شرائح هذه الحضارة معزولة عن هذا السبب، أو نفهم أية شريحة من حضارتنا بمعزل عنه.

والكلام نفسه يصدق في معركة بدر (يوم الفرقان) ويوم الأحزاب وفتح مكّة ووقعة الطّف، وهكذا..

إنّ لكلّ واحد من هذه الأحداث وغيرها دوراً تأسيسياً في بناء هذه الحضارة، وليس في الإمكان أن تتكوّن هذه الحضارة بكلّ خصائصها القائمة فعلاً، بمعزل عن العوامل التاريخية التي ساهمت في بناء وتكوين تاريخنا ومجتمعنا.

وكلّما يزداد هذا العمق كلّما تزداد قيمته الحضارية في بناء المجتمع، فالمجتمع الذي تمتد جذوره آلاف السنين يتمتّع بقوّة وصلابة أكثر من المجتمع والحضارة التي تكوّنت في عدّة مئات من السنين فقط.

ذلك أن العمق التاريخي البعيد يعتبر تراكماً كبيراً من الأسباب والعلل من وراء المقطع الحضاري الذي نعاصره.

فقد يكون من السهل أن يتجاوز الإنسان الظروف السياسية التي تكوّنت في عصره من الحبّ والبغض والولاء والبراءة والأخلاق والسلوك والتصوّرات، ولكن من الصعب جداً ـ ولا أقول من المستحيل ـ أن يتجاوز الإنسان الحبّ والبغض الذي تكوّن خلال ألف سنة من الزمان.

فإنّ مرور هذه الحقبة التاريخية الطويلة على هذه الحضارة يكسبها الكثير من الصلابة والثبات، ممّا يجعل من الصعب جداً أن يتجاوزها الإنسان، وهذا هو (الميراث الحضاري) الذي نتحدّث نحن عنه في هذه الدراسة.

عراقة الميراث الحضاري:

كلّما يطول الزمن فالظاهرة الحضارية تزداد تأصّلاً وعراقة وعمقاً في وجود الأُمّة، وتتمتّع بقوّة وأصالة وقدرة أكثر على مواجهة التحدّيات.. ولذلك فإنّ التاريخ تراكم من العمل والجهد والتبنّي، وكلّما يكون التاريخ أطول يكون الجهد والعمل المبذول في تبنّي أيّة ظاهرة اجتماعية أكثر.. ونتيجة لذلك تكون الظاهرة الاجتماعية أقوى وأثبت وأكثر أصالة وعقماً ومتانة، وأقوى على مواجهة التحدّيات.

فـ(الصلاة) مثلاً ظاهرة حضارية عميقة الجذور في التاريخ، وميراث

حضاري عريق في الأجيال تنتقل من جيل إلى جيل، وكلّما يمرّ علينا زمن أطول تزداد أصالة وثباتاً وعمقاً في حياة الإنسان.

والعراقة التي نجدها نحن في حياتنا اليومية للصّلاة، ليست حصيلة جهد وعمل فردي، وفي مقطع زمني خاصّ، وإنّما هي حصيلة جهود وأعمال كبيرة وكثيرة عبر التاريخ في تبنّي الصلاة وإقامتها والدعوة إليها وتأكيدها وترسيخها، وهذه الجهود جميعاً تتمثّل اليوم في (الصلاة) التي نقيمها نحن في بيوتنا ومساجدنا.

(والحج) ظاهرة حضارية وميراث حضاري، ورثناه نحن من أبي الأنبياء إبراهيم خليل الرّحمن عليه السلام.

ولهذه الظاهرة الحضارية عراقة، وعمق خاصّ، وأصالة في حياتنا، وجاذبيه خاصّة في نفوسنا، فإذا حان وقت الحجّ توجّه مئات الآلاف من المسلمين، من كلّ فجّ عميق، رجالاً وعلى كلّ ضامر إلى البيت العتيق لأداء فريضة الحجّ.

يقول تعالى لعبده وخليله إبراهيم عليه السلام:

﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[١].

التبنّي الجمعي والعمق الحضاري لفريضتي الصلاة والحجّ:

وما دمنا نتحدّث عن (الصلاة) و(الحجّ) كمثالين للظواهر والمواريث الحضارية.. فلا بأس أن نقف وقفة قصيرة عند هاتين الظاهرتين الربّانيّتين في حياة الإنسان، فنقول:

١ ـ الحجّ: ٢٧.

إنّ القيمة والفاعلية والجاذبية التي تملكها هاتان الفريضتان في حياتنا تعود إلى أمرين اثنين:

الجهد الجمعي الكبير المبذول في إقامة هاتين الفريضتين في المقطع الزماني الواحد، في اجتماعات كبيره وحاشدة، ولا شكّ أن هذا الجهد والاهتمام الجمعي بهاتين الفريضتين من قِبَل الملايين من المسلمين ينعكس في الصلاة والحجّ بشكل واضح، ويكسب هاتين الفريضتين هذه الجاذبية والتعاطف والقيمة والفاعلية في نفوس جماهير المؤمنين، وإلى جنب هذا البُعد، هناك بعد آخر للصلاة والحجّ، وهو البُعد التاريخي الذي تحدّثنا عنه.. فإنّ الإقامة الطويلة للصلاة والحجّ والممارسة التاريخية الطويلة لهاتين الفريضتين عبر القرون، تمنح هاتين الفريضتين قيمة كبيرة وفاعلية وجاذبية خاصّة، وهذا هو الذي نقصده من كلمة (الميراث).

ولهذا السبب يؤكد الإسلام تأكيداً كبيراً على الاهتمام بالإطار الاجتماعي (البُعد الأوّل) وبالإطار التاريخي (البُعد الثاني) للفرائض.

الإطار الاجتماعي للشعائر الإسلامية:

ففي الإطار الاجتماعي وهو الإطار الأوّل يتفاعل الفرد ـ تفاعلاً قويّاً ـ مع الجوّ الاجتماعي الذي تقام فيه الفريضة.. فأن الصلاة جماعة وجمعة لها تأثير متقابل في نفوس المصلِّين. والفرد الذي يقيم الصلاة في وسط حاشد من جماعة المسلمين يكتسب من حضور الآخرين اندفاعاً وقوّة وإقبالاً على فريضة الصلاة وتفاعلاً معها، في الوقت الذي يكسب الآخرين بحضوره نفس الاندفاع والقوّة والتفاعل والإقبال.

وهذا التعاطي والتبادل المتقابل من قبل المصلِّين يكسب الصلاة في

نفوس الجميع أصالة وثباتاً وقوّة وجاذبية.

ولعلّ الاهتمام بالجمعة والجماعة في الإسلام من هذا المنطلق، ورغم أن الانفراد والخلوة في ذكر الله تفيد الإنسان في الإقبال على الذكر كثيراً.. رغم ذلك تفضّل الشريعة إقامة الصلاة جماعة على الصلاة فرادى وتؤكدها، حتى روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا صلاة لمن لا يصلّي في المسجد مع المسلمين إلاّ من علّة**»[1].

وروي عن الصادق عليه السلام: «**إنّ أُناساً كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أبطأوا عن الصلاة في المسجد، فقال رسول الله: ليوشك قوم يدعون للصلاة في المسجد أن نأمر بحطب ليوضع على أبوابهم، فتوقد عليهم نار، فتحرق عليهم بيوتهم**»[2].

والجماعة بحكم هذا التأثير المتبادل الذي يتركه كلّ واحد من الجماعة في الآخرين ليس كمية عددية فقط تساوي مجموعة الأفراد، وإنّما يتحوّل هذا الكم إلى كيف خاصّ تعبّر عنه الروايات بـ(يد الله)، فالجماعة ليست فقط مجموعة الأفراد وإنّما تساوي (مجموعة الأفراد + يد الله).

يد الله على جماعة المسلمين:

وقد روي عن رسول الله ﷺ: «**يد الله على الجماعة، والشيطان مع من خالف الجماعة**»[3].

ويد الله هنا هي القوّة والبركة والرحمة، فعندما يجتمع جمع من المؤمنين

---

١ ـ علل الشرائع للصدوق: ٣٢٥، وسائل الشيعة ٥: ٣٧٧.

٢ ـ التهذيب للشيخ الطوسي ٣: ٢٥.

٣ ـ كنز العمّال: الحديث ١٠٣١.

تنزل عليهم رحمة الله وبركاته، ويمنحهم الله القوّة والرحمة.

وهذا هو ما ذكرناه من أن الممارسة الاجتماعية للفرائض الإسلامية تمنح الفرائض الإسلامية كثيراً من الجاذبية والقوّة والصلابة والأصالة، وتشدّ الناس إلى هذه الفرائض شدّاً نفسياً وعاطفياً قوياً.. وهذا هو بعض السرّ في قوّة وجاذبية فريضة الحجّ التي تجتذب الناس من كلّ فجّ عميق إلى هذا الوادي غير ذي زرع حول بيت الله الحرام.

وبنفس الملاك يصحّ أن نقول أن هذه التجمّعات القائمة على ذكر الله تعالى وتقوى الله تمنح الإنسان تقوى وعصمة، وتعصم عن الشطط والزيغ والضّلال، وتعتبر الحصن الذي يحصّن المؤمن من عدوان الهوى والشيطان.

فقد روي عن رسول الله ﷺ: «يد الله على الجماعة، فإذا اشتذّ الشاذّ منهم اختطفه الشيطان كما يختطف الذئب الشاة الشاذّة من الغنم»[١].

وهذا هو الإطار الأوّل (الاجتماعي) (الأُفقي) للصلاة والحجّ.

الإطار التاريخي للشعائر الإسلامية:

والبُعد الآخر للشعائر والفرائض الإسلامية هو البُعد التاريخي (العمودي)، ولهذا البُعد تأثير كبير في تعميق مشاعر العبودية والإقبال على ذكر الله تعالى في حياة الناس.

ولهذا الأمر يهتم القرآن كثيراً بالبُعد التاريخي للصلاة والإيمان والدين، يقول تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾[٢].

---

١ ـ كنز العمّال: الحديث ١٠٣٢.

٢ ـ الشورى: ١٣.

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾[١].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ ❁ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[٢].

وانطلاقاً من هذا التصوّر للتاريخ والميراث، نقول: إنّ حجّ إبراهيمعليه السلام له تأثير في حجّنا، وصلاة موسى وعيسىعليهما السلام لها تأثير في صلاتنا، ودعوة نوحعليه السلام لها تأثير مباشر وغير مباشر على دعوتنا إلى الله تعالى، وأنّ جهاد الحسينعليه السلام في كربلاء ووقعة الطّف له تأثير مباشر على مسيرتنا ودعوتنا ومواجهتنا اليوم لطواغيت عصرنا، وأنّ أجزاء هذه المسيرة الواحدة من آدم ونوحعليهما السلام إلى اليوم الحاضر أجزاء مترابطة متماسكة، السابق منه يدعم اللاّحق، واللاّحق منه يرث السابق.

وعلى هذه المسيرة، تنتقل القيم والتراث، والولاء والبراءة، والحبّ والبغض، والتصوّرات والأخلاق من جيل إلى جيل.

وحدة المسيرة ووحدة المعاناة ووحدة الثواب:

ومن أروع ما في هذا التصوّر الإسلامي للميراث: أنّ الأجيال اللاّحقة لا ترث فقط المواريث الحضارية من الأجيال السابقة، وإنّما تشاركها أيضاً في ثواب معاناتها وعنائها الطويل في صراعها مع الكفر والنفاق لإقامة هذه

---

١ ـ البقرة: ١٣٦.

٢ ـ الأنبياء: ٧٢ ـ ٧٣.

الفرائض الإسلامية وتثبيتها.

فقد تحمّل سلفنا الصالح على هذا الطريق الكثير من العناء والمعاناة في الصراع مع الطاغوت لإقامة هذه الفرائض وتثبيتها وتعبيد الإنسان لله.

ونحن (الوارثون) لا تنتقل إلينا فقط هذه القيَم والمواريث (العبودية والإيمان والصلاة) من سلفنا، وإنّما ينتقل إلينا أيضاً ثواب معاناتهم وصبرهم وعنائهم دون أن يكون لنا فعل وتحمّل في هذه المعاناة والعناء.

والجسر العجيب الذي ينتقل عليه هذا الثواب والأجر من دون معاناة وعناء، ويشرك أُناساً في ثواب أُناس آخرين سبقوهم هو الولاء والحبّ.

وعجيب أمر الولاء والحبّ، فهو يوحّد أطراف هذه المسيرة المتباعدة، ويجعلها قطعة واحدة، ويشرك اللاّحق في ثواب السابق، ويجعل السابق مورداً ومعيناً للاّحق. وهذا هو البُعد الثالث (المستقبليّ) لمسيرة الدعوة إلى الله.

روى الحكم بن عيينة، قال: لمّا قتل أمير المؤمنين عليه السلام الخوارج يوم النهروان، قام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين: طوبى لنا إذ شهدنا معك هذا الموقف، وقتلنا معك هؤلاء الخوارج، فقال أمير المؤمنين عليه السلام[1] «والذي فلق الحبّ وبرأ النسمة، لقد شَهِدنا في هذا الموقف أُناس لم يخلق الله آباءهم، ولا أجدادهم بعد، فقال الرجل: وكيف يشهدنا قوم لم يخلقوا؟ قال: بلى قوم يكونون في آخر الزمان، يشركوننا فيما نحن فيه، ويسلّمون لنا، فأُولئك شركائنا فيما كنّا فيه حقّاً حقّاً»[2].

١ ـ ما بين المعقوفتين زيادة من المصدر.

٢ ـ المحاسن: ٢٦٢.

وروى محمّد بن سلمة، رفعه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّما يجمع الناس الرضا والسخط، فمن رضي أمراً فقد دخل فيه ومن سخطه فقد خرج منه»[١].

وعن سليمان بن خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لو أنّ أهل السماوات والأرض لم يحبّوا أن يكونوا شهداء مع رسول الله صلى الله عليه وآله لكانوا من أهل النار[٢].

وروى أبو جعفر محمّد بن أبي القاسم الطبري في كتابه (بشارة المصطفى)، عن عطيّة العوفي، قال: خرجتُ مع جابر بن عبد الله الأنصاري زائرين قبر الحسين عليه السلام، فلمّا وردنا كربلاء دنا جابر من شاطئ الفرات، فاغتسل ثمّ ائتزر بأزار وارتدى بآخر، ثمّ فتح صرّة فيها سعد، فنشرها على بدنه، ثمّ لم يخط خطوة إلاّ ذكر الله تعالى، حتّى دنا من القبر. قال: ألمسنيه، فألمسته، فخرّ على القبر مغشيّاً عليه، فرششت عليه شيئاً من الماء، فلمّا أفاق، قال: يا حسين ثلاثاً. ثمّ قال: حبيب لا يجيب حبيبه، ثمّ قال: وأنّى لك بالجواب وقد شُخبت أوداجك على أثباجك، وفُرّق بين بدنك ورأسك، فأشهد أنك ابن خاتم النبيين، وابن سيّد المؤمنين، وابن حليف التقوى، وسليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء، وابن سيّد النقباء، وابن فاطمة سيّدة النساء، وما لك لا تكون هكذا، وقد غذَتّك كفّ سيّد المرسلين، وربّيت في حجر المتّقين، ورضعت من ثدي الإيمان، وفطمت بالإسلام. فطبت حيّاً وطبت ميّتاً، غير أنّ قلوب المؤمنين غير طيّبة لفراقك، ولا شاكّة

---

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ المصدر السابق.

في الخيرة لك، فعليك سلام الله ورضوانه، وأشهد أنك مضيت على ما مضى عليه أخوك يحيى بن زكريّا. ثمّ جال بصره حول القبر للسلام على أنصار الحسين عليه السلام وقال:

السّلام عليكم أيتها الأرواح التي حلّت بفناء الحسين، وأناخت برحله، وأشهد أنكم أقمتم الصلاة، وآتيتم الزّكاة، وأمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر، وجاهدتم الملحدين، وعبدتم الله حتّى أتاكم اليقين، والّذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً لقد شاركناكم فيما دخلتم فيه.

قال عطيّة: فقلت له يا جابر، كيف ولم نهبط وادياً، ولم نعل جبلاً، ولم نضرب بسيف، والقوم قد فُرّق بين رؤوسهم وأبدانهم، وأُوتمت أولادهم، وأُرملت أزواجهم.

فقال: يا عطيّة، سمعتُ حبيبي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول. : من أحبّ قوماً حُشِرَ معهم، ومن أحبّ عمل قوم أُشرك في عملهم، والذي بعث محمّداً صلى الله عليه وآله بالحقّ أنّ نيّتي ونيّة أصحابي على ما مضى عليه الحسين وأصحابه عليهم السلام[1].

المواريث الحضارية والمواريث المدنية:

إنّ ما يقال عن الظواهر الحضارية كـ(الصلاة) و(الحجّ) و(التقوى) و(الإيمان) و(العفاف).. يقال عن الظواهر المادية للحضارة كـ(المسجد) و(المنبر) و(المدرسة) وغير ذلك من الظواهر والأدوات المادية للحضارة، أو ما يطلق عليها أحياناً بـ(المدنيّة) في مقابل (الحضارة).

فانّ لهذه الظواهر المادية أيضاً أبعاداً اجتماعية وتاريخية، كما للظواهر

١ ـ بشارة المصطفى لشيعة المرتضى: ٧٤ ـ ٧٥، ط. النجف ١٣٨٣هـ

الحضارية، وكلّما تتّسع أبعادها الاجتماعية، وتتعمّق أبعادها التاريخية، تزداد أصالة وعمقاً ورسوخاً في ضمير الأُمّة.

فـ(المساجد) مثلاً تمتلك عمقاً قيميّاً تاريخياً في حياة هذه الأُمّة، وهذا العمق التاريخي يمنح (المسجد) قيمة خاصّة في حياتنا الاجتماعية ومركزاً حسّاساً يجعل من الصعب تجاوزه أو تحدّيه من قِبَل أعداء الإسلام.

وهذه القيمة والأصالة والرسوخ في ضمير الأُمّة هي التي حفظت المساجد في تاريخ العدوان على الأُمّة وتراثها من اعتداء المعتدين.

وهكذا (الحجاب) للمرأة المسلمة، يمتلك بفضل هذا العمق التاريخي قيمة كبيرة واحتراماً في ضمير الأُمّة، كما يضفي احتراماً خاصّاً على شخصية المرأة.

وسوف نرى أن العمق التاريخي لهذه الظواهر المادية تجعل منها قلاعاً تحمى وتحصّن الكثير من القيم الحضارية في الأُمّة وتحميها من الاعتداء.

فالحجاب يحمي العفاف عند المرأة المسلمة..

والمسجد والمنبر يحميان الصلاة.. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يحميان الفرائض والحدود الإلهية، والحركة والثورة تحميان النظام الإسلامي وسيادته.

وللمحافظة على هذه القيم الحضارية ينبغي أن نحافظ على الأدوات المادية لهذه الظواهر، وأحياناً نحرص على إبقائها على شكلها وهندستها الخاصّة.

فنحافظ على العمارة التقليدية للمساجد، وعلى التصميم التقليدي للمنابر، وعلى الصورة التقليدية المعروفة للمصاحف في طباعة المصاحف.

وبهذا الترتيب، نحرص على المحافظة حتّى على الوسائل المادية للحضارة الإسلامية ـ قدر الإمكان ـ على صورتها التاريخية التي تتمتّع باحترام وتقدير خاصّ في ضمير الأُمّة[١].

وهذا بعض سرّ قوّة المواريث الحضارية في حياتنا، وفشل أعداء الإسلام في إزالة هذه المواريث من الحياة.

فليس الجهد الذي يبذله أعداء الإسلام في القضاء على الفرائض الإسلامية كالصلاة والحجّ باليسير، وليس الجهد الذي بذلوه للقضاء على الشعائر والشعارات والأعراف الإسلامية كالحجاب ومجالس عزاء الحسين والتحيّة والسّلام بالشيء الهيّن.

فقد استخدم أعداء الإسلام كلّ الوسائل الممكنة من إغراء وإرهاب وترغيب في اجتثاث هذه الأُمّة من جذورها وتمييع أصالتها ومسخ شخصيتها الحقيقية واستيراد الأفكار والتصوّرات والظواهر الحضارية الشرقية والغربية من هنا وهناك.. ولكنّ هذه الأعمال كانت تبوء غالباً بالفشل، ولا يجني منها أصحابها إلاّ القليل.

لقد بذل رضا خان بهلوي في إيران، ومصطفى كمال أتاتورك في تركيا جهداً ليس بالقليل في مكافحة المواريث الإسلامية كالصلاة والحجّ والحجاب، وحتّى أنّ رضا بهلوي منع الحجّ بحجّة أو بأُخرى لعدّة سنوات وحارب الحجاب وألزم النساء المؤمنات بالسفور، وحارب شعائر العزاء

---

١ ـ ينبغي ألاّ نسيء فهم هذه الجملة ونفسّرها بما لا يريد الكاتب، فإنّني أقصد بهذا الكلام المحافظة على الصور التي تختزنها ذاكرة الأُمّة، وتتمتّع باحترام وتقدير خاصّ في ضمير الأُمّة، والاستفادة من هذه الصورة في تحصين وحماية القيم الحضارية الإسلامية.

الحسيني الذي يمارسه المسلمون الشيعة في كلّ أقطار العالم الإسلامي. لكنّ بهلوي أخفق في تحقيق أكثر طموحاته، واستعادت الأُمّة رشدها ووعيها وارتباطها الرسالي التاريخي بالإسلام، وسرعان ما طَهُرَت ساحة البلاد من مخلّفات بهلوي ونظامه. ومن أسباب ذلك عراقة هذه الظواهر الحضارية في تاريخ الأُمّة.

مواقع الثورة والمناعة في حياة الأُمّة:

إنّ هذه النقاط (المواريث الحضارية)، تعتبر نقاط القوّة ومراكز المناعة في حياة الأُمّة، وتشبه تماماً الجذور العميقة التي تحفظ الشجرة الباسقة من السقوط.

إنّ هذه الجذور هي التي تمد الشجرة بالغذاء والماء، وتحفظ الشجرة من السقوط، كذلك المواريث الحضارية تعتبر الجذور والامتدادات العميقة التي تحفظ الأُمّة وتمنحها المناعة وتحصنها ضدّ الغزو الأجنبي[1].

وفي تأريخنا السياسي المعاصر، كلّما تحرّك أعداء الإسلام لغزو المنطقة

---

١ ـ روى أحد العلماء، عن بعض السياسيين، أنّ الانجليز كانوا مندفعين بقوّة للقضاء على الإسلام في إيران، وكانوا يعملون لاستبدال الحضارة الإسلامية في إيران في عهد بهلوي بالحضارة الغربية وربط البلد بعجلة الحضارة الغربية بشكل كامل.. ولمّا توفّي السيد أبو الحسن الاصفهاني ـ أحد كبار مراجع التقليد في النجف الأشرف ـ أحدثت وفاته هزّة عميقة في كلّ إيران، ولبست إيران الحداد أربعين يوماً لوفاة هذا العالم الجليل، وأُقيمت له مجالس العزاء على مساحة واسعة جدّاً في إيران.. فبدأ الانجليز يراجعون حساباتهم من جديد في إمكان القضاء على الإسلام بشكل كامل، في بلد يهتزّ من أقصاه بهذا الشكل القوي العنيف لوفاة عالم من علماء الإسلام، فكيف يمكن القضاء على الإسلام، واجتثاث جذوره من قلوب وصدور هذه الأُمّة.

يقول هذا السياسي، وهو كان من المرتبطين بعجلة الاستكبار الغربي: أنّ حادث وفاة السيّد أبو الحسن الأصفهاني أثر في تخفيف الضغط المناوىء للإسلام من قبل الانجليز على إيران لفترة من الوقت.

الإسلامية فكرياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً، اصطدموا بواحد من هذه المراكز (مراكز القوّة والمناعة في حياة الأُمّة)، وتراجعوا أمامه.

فقد احتلّ العدو القلاع والحصون والقواعد العسكرية الضخمة.. ولكنّه عندما اصطدم بالمسجد اضطرّ للتراجع والانسحاب. وقد احتلّ العدو الإذاعة والتلفزيون والصحافة والمدارس والجامعات الأكاديمية، والإعلام والسينما والوزارات والجيش والشرطة والأحزاب... ، وأخضعها جميعاً لحركة التغريب، ولكنه عندما اصطدم بصخرة المنبر والحوزات والمدارس الدينية والمساجد والأذان والصلاة ومجالس العزاء الحسيني، اضطرّ للتراجع والانسحاب، والسرّ كلّ السرّ في هذه القوّة هو الامتداد التاريخي العميق لهذه المواريث الحضارية والمدنيّة في ضمير الأُمّة، ممّا يجعل من الصعب جدّاً مداهمة هذه المراكز من قِبَل الأعداء واحتلالها والقضاء عليها... لقد سقطت قلاعنا الثقافية والحضارية قلعة قلعة ولكن قلعة المسجد والحوزات العلمية والحج ومجالس عزاء الحسين عليه السلام والمنبر، بقيت شامخة ازاء تحديات الغرب.

المحافظة على المواريث الحضارية:

ومن هذا المنظور، يجب علينا نحن الدّعاة إلى الله تعالى، المحافظة على هذه المواريث الحضارية في حياة الأُمّة، وحمايتها وتبنّيها لتحصين شخصية الأُمّة وتثبيتها، والمحافظة على أصالتها وعراقتها.

وبعكس ذلك: فإنّ تعريض المواريث الحضارية العريقة للإهدار والضياع، يعرّض شخصية الأُمّة للمسخ والضّياع.

ففي سورة مريم، بعدما يستعرض القرآن الكريم شطراً من قصّة إبراهيم

وإسحاق ويعقوب وموسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام، يقول تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله:

﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۞ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1].

هذا الخلف الذين يذمّهم القرآن الكريم، هم الذين أضاعوا الصلاة ـ ميراث الآباء والسّلف ـ واتّبعوا الشهوات، وينذرهم القرآن الكريم بأنّهم سوف يلقون غيّاً.

إنّ من الناس من يحفظ الأمانة من مواريث السلف، ويستلمها ويحافظ عليها من الضياع والدّس والانحراف، ثمّ يسلّمها إلى (الخَلْف) الذين يلونهم من الجيل الجديد، وهؤلاء هم الخَلْف الصالح للسلف الصالح وحملة الأمانة، الذين يصلون الرّحم، ولا يقطعونه. ومن الناس من لا يحفظون الأمانة والعهد، وتضيع على أيديهم مواريث السلف، هؤلاء هم الذين تعنيهم الآية الكريمة: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ﴾.

إنّ من الناس من يكون جسراً بين جيلين، جيل سابق عليه وجيل يلحقه، ينقل مواريث الصالحين من الآباء والأسلاف إلى الجيل الذي يلي جيله، وهؤلاء هم الأُمناء.

ومن الناس من يشكّل فجوة وقطيعة وحاجزاً بين جيلين، الجيل السابق والجيل اللاّحق، فيفصل هذا الجيل عن ذلك الجيل، ويقطع الخلف عن السلف، وهذه القطيعة هي أبرز صور الخيانة والعقوق وقطيعة الرّحم.

---

١ ـ مريم: ٥٨ ـ ٥٩.

السنّة والبِدعة:

وقد ورد التعبير في النصوص الإسلامية عن حالتي الارتباط بالسّلف والقطيعة اللّتين تحدّثنا عنهما بالعمل بـ(السنّة) و(البِدعة).

فالعمل بالسنّة هو الارتباط السلوكي بالسّلف الصالح وحالة الإقتداء والتبعيّة الواعية.. في مقابل (البِدعة) وهي حالة القطيعة عن السّلف وقطع الجسور، والانحراف عن مسيرة السّلف الصالح إلى الأنماط الجاهلية المستحدثة والقديمة.

إنّ الاهتمام الكبير في النصوص الإسلامية بمسألة السنّة قد ينشأ من هذه النظرة، ويعبّر عن اهتمام الإسلام بربط الأجيال المتعاقبة بميراث الأنبياء والمرسلين من السّلف الصالح، وشدّهم بالأنبياء والأولياء والصالحين من سلفنا.

والقرآن الكريم يدعو المسلمين إلى التأسّي بالأنبياء والمرسلين بشكل عام، وبأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وبخاتم الأنبياء رسول الله صلى الله عليه وآله بشكل خاص:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ﴾[1].

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾[2].

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾[3].

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

---

١ ـ الممتحنة: ٦.

٢ ـ الممتحنة: ٤.

٣ ـ الأحزاب: ٢١.

«عمل قليل في سُنَّة خير من عمل كثير في بِدعة»[١].

وعن رسول الله ﷺ قال:

«لا يقبل قول إلاّ بعمل، ولا يقبل قول وعمل ونيّة إلاّ بإصابة السنّة»[٢].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «عليكم بالسنّة، فعمل قليل في سنّة خير من عمل كثير في بُدعة»[٣].

وعن رسول الله ﷺ قال: «من تمسّك بسنّتي في اختلاف أُمّتي كان له أجر مائة شهيد»[٤].

وعن عليّ بن مهزيار، عن منصور بن أبي يحيى، قال: سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: صعد رسول الله صلى الله عليه وآله المنبر فتغيّرت وجنتاه والتمع لونه، ثمّ أقبل بوجهه فقال:« يا معشر المسلمين، إنّما بُعثتُ أنا والسّاعة كهاتين، ثمّ ضمّ السبّاحتين[٥].

ثمّ قال: يا معشر المسلمين، أنّ أفضل الهدى هدى محمّد، وخير الحديث كتاب الله، وشرّ الأُمور محدثاتها. ألا وكلّ بِدعة ضلالة، ألا وكلّ ضلالة في النار»[٦].

وعن رسول الله ﷺ قال:

«في القلب نور لا يضيء إلاّ من إتباع الحقّ وقصد السبيل، وهو نور

---

١ ـ بحار الأنوار ٢: ٢٦١.

٢ ـ المصدر السابق.

٣ ـ بحار الأنوار ٢: ٢٦٢.

٤ ـ المصدر السابق.

٥ ـ السبّاحة: الإصبع التي تلي الإبهام.

٦ ـ بحار الأنوار ٢: ٢٦٣.

من المرسلين الأنبياء يودع في قلوب المؤمنين»[١].

وعن ابن حميد، رفعه قال: جاء رجل إلى أمير المؤمنين فقال: أخبرني عن (السنّة) و(البدعة) وعن (الجماعة) وعن (الفرقة):

فقال أمير المؤمنين عليه السلام:

« (السنّة) ما سنّ رسول الله، و(البدعة) ما أُحدث من بعده، و(الجماعة) أهل الحقّ وإن كانوا قليلاً، و(الفرقة) أهل الباطل وإن كانوا كثيراً»[٢].

وعن موسى الكاظم عليه السلام قال:

«ثلاث موبقات: نكث الصفقة، وترك السنّة، وفراق الجماعة»[٣].

وفي النصّين الأخيرين تتبيّن أبعاد التلاحم العضوي الوثيق في بناء الأُمّة في الارتباط بمنابع التشريع (السنّة) والارتباط بالقيادة (البيعة) والارتباط العضوي بالأُمّة (الجماعة).

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«رحم الله خلفائي، فقيل يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يحيون سنّتي ويعلّمونها عباد الله»[٤].

والارتباط بين الخلافة والسنّة يلفت النظر في هذا الحديث، فالخلافة تتحقّق باتّباع سنّة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأيضاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«أمّا بعد فإنّ خير الأُمور كتاب الله، وخير الهدى هدى محمّد صلى الله

---

١ ـ بحار الأنوار ٢: ٢٦٥.

٢ ـ بحار الأنوار ٢: ٢٦٦.

٣ ـ بحار الأنوار ٢: ٢٦٦.

٤ ـ بحار الأنوار ٢: ٢٥.

عليه وآله، وشرّ الأُمور محدثاتها، وكلّ بدعة ضلالة»[١].

وعنه ﷺ قال:

«من أحيا سنّة من سنّتي فعمل بها الناس كان له مثل أجر من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئاً، ومن ابتدع بدعة فعمل بها كان عليه أوزار من عمل بها، لا ينقص من أوزار من عمل بها شيئاً»[٢].

وكأنّ الذي يبتدع في الدين ويقطع الأجيال اللاّحقة عن اتّباع السنّة يتحمّل وزر كلّ الذين ينقطعون عن المسيرة والخط، دون أن ينقص من أوزارهم شيء.

بين التقليد والثوابت:

يلاحظ كثيراً: أنّ بعض علماء الاجتماع يضعون علامة الاستفهام أمام حالة النزوع إلى السنّة ورفض البدع في الأديان، وبشكل خاصّ في الإسلام، ويفسّرون هذه الحالة بالنزوع إلى القديم والميل إلى التقليد، ورفض التجديد والتحرّك.

ومن هذه الزاوية يدرجون المجتمعات الدينية في قائمة المجتمعات المحافظة التي ترفض التحرّك والتجديد والتطوّر، في قبال النوع الآخر من المجتمعات، وهي المجتمعات التي تتّسم بالحركيّة وترفض الجمود على القديم والركود والتقليد.

يقول الباحثان الاجتماعيان (W.F.Ogburn) و(M.F.Nimkoff):

المجتمعات الجامدة ـ بعكس المجتمعات الحركية ـ لا تستجيب

---

١ ـ سنن ابن ماجة ١: ١٧ح٤٥.

٢ ـ سنن ابن ماجة ١: ٧٦.

للتحوّلات الاقتصادية. وترفض التجديد، وتخضع الحياة في هذه المجتمعات لنظام ثابت تقريباً. والسنن والأعراف تتحكّم في حياة الناس بصورة قاهرة. والإنتاج الاقتصادي يجري بصورة تقليدية. ولا تتبدّل التصورّات والأفكار الدينية والسياسية والاجتماعية. والموقع العائلي والطَبقي والاجتماعي لأي شخص يحدُّد دوره الاجتماعي وموقعه في المجتمع وحتّى زواجه وموته، ويتحكّم العرف والتقليد على الأخلاق. ويندر الخروج على القواعد والأعراف والأساليب الحاكمة في المجتمع.. وإذا حدث شيء من ذلك يواجه ردود فعل قويّة معاكسة. والطاعنون في السنّ يشكّلون مصادر السنن والأعراف التقليدية، ويتحكّمون على حركة المجتمع. أنّ البيئة الاجتماعية لا تمارس أي دور تحريكي على الأفراد، ولا تدفعهم إلى الإبداع والتجديد. ويجري كلّ شيء تقريباً بشكل تقليدي وثابت. حتّى الزيّ واللِّباس والأكل يتحدّد شكله بصورة مسبقة. ولا أمل يساور أحداً في أن تتطوّر مثل هذه المجتمعات وتتحرّك للأمام، وتجري في جوّ قائم ثابت غير متطوِّر.

هؤلاء الناس يعيشون للطموحات وللأفراح والمسرّات الصغيرة في مسير حياتهم اليومية، وسعداء من ناحية أُخرى بالحياة الأبديّة السعيدة التي ينتظرونها بعد الموت[1].

مثل هذا التصوّر عن المجتمعات الخاضعة للسنن أمر شائع في الكتب الاجتماعية. وعلماء الاجتماع ـ في الغالب ـ ينظرون إلى المجتمعات المرتبطة بالسنن والمواريث الحضارية بهذه النظرة السلبية والقاتمة.

---

١ ـ نقلاً عن كتاب (علم الاجتماع) لـ أ. ج. آريان پور: ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

وبطبيعة الحال فأنّ هذا التصوّر يشمل المسيرة الإلهيّة على وجه الأرض في التاريخ، فأنّ هذه المسيرة مرتبطة بسنن ثابتة تتوارثها جيلاً بعد جيل وتحكمها ضوابط وحدود وأعراف وقيم وأخلاق ثابتة وغير متغيِّرة، وتحرص أجيال هذه المسيرة أن لا تنحرف عن الخط والطريق، وأن لا تستبدل المواريث الحضارية التي ورثوها من السّلف بالأعراف والقيم والتصوّرات الجاهلية التي استحدثها الناس ويعتبرون أي انحراف عن طريق السّلف من البِدعة المحرّمة وكلّ أتباع لمسيرة السّلف الصالح من السنّة الواجبة والمندوبة.

وبناءاً على هذا التصوّر تدخل هذه المجتمعات ضمن التصنيف المذكور في عِداد المجتمعات غير الحركية.

ولابدّ أن نشير هنا إلى المفارقة العلمية التي يقع فيها كثيراً من الباحثين من هذا النمط حيث يختلط لديهم حساب الثوابت القائمة في حياة الإنسان بحساب القديم وتقليد القديم والجمود على القديم.. وهذا الخلط هو سبب المفارقة التي يقع فيها هؤلاء.

إنّ في حياة الإنسان ثوابت لن تتغيّر ولا تخضع لحسابات الزمن. وهذه الثوابت هي الأبعاد الرئيسية للإنسان والقيم الحقيقية لشخصيّة الإنسان، وتجاوز هذه الثوابت يؤدّي إلى مسخ شخصيّة الإنسان وتشويهه.

وللمحافظة على شخصية الإنسان بأبعاده الحقيقية، لابدّ من المحافظة على هذه الثوابت، وقد تكون هذه الثوابت في المحتوى فقط، وقد تكون في المحتوى والشكل معاً.

فالحاجة الجنسيّة من الحاجات الثابتة في حياة الإنسان، وطريقة تصريف

هـذه الحاجة أيضاً من العناصر الثابتة في حياة الإنسان. فلا يمكن أن يتجاوز الإنسـان الحاجـة الجنسـيّة من حيث المحتوى والمضمون، كما لا يمكن أن يتجاوز الزواج وبناء العائلة من حيث الشكل.

ويصحّ أيضاً فـي حاجـة الإنسـان إلـى المعاشـرة الاجتماعيـة مـن حيث المضمون أحياناً فقط دون الشكل، ومن حيث المضمون والشكل أحياناً.

ويصحّ أيضاً في الجانب الاقتصادي من حياة الإنسان: وهذه المجوعة من الثوابـت تشـكّل مجموعة كبيرة وواسعة من الحاجات الأساسية في شخصية الإنسـان، لا يجـوز للإنسـان أن يـتجاوزها أو يسـتبدلها بشكل من الأشكال.. وأيّ محاولة لتخطّي هذه الحاجات تجرّ الإنسان إلى أن يتجاوز نفسه.

وهـذه الأبعـاد الأساسـية الثابتة لشخصية الإنسان هي التي ترسمها الأديان الإلهـية بالإجمـال والتفصـيل، ويدعـو إلـيها ويعمـل بهـا الأنبـياء والمرسلون وعـباد الله الصـالحون، وهـي ما أسميناه بالتراث والمواريث والسنن، في مقـابل الـبدع التـي تعـبّر عـن تجـاوز الإنسـان للسـنن الإلهـية الثابتة في حياة الإنسان.

وإزاء هـذه الحالـة (حالة الالتزام بالثوابت الإلهية في حياة الإنسان) هناك حالـة أُخرى وهي حالة التبعيّة والجمود على القديم والتهيّب من تجاوز كل شيء قديم، والتعصّب للآباء.

والقرآن الكريم يذمّ هذه الطائفة من الناس:

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا﴾[1].

﴿قَـالُواْ أَجِئْتَـنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي

---

١ ـ الأعراف: ٢٨.

الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[١].

﴿قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أُمّة وإنّا على آثارهم مهتدون﴾[٢].

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إلاّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[٣].

وهذه هي حالة الجمود والتبعيّة والتقليد غير الواعي، وهي تختلف اختلافاً كبيراً عن حالة إتباع السنن الإلهيّة التي يأمر بها الإسلام، والتي تشكل العمق الحقيقي للإنسان وأصالته والثوابت الإلهيّة في حياته.

الثوابت والفطرة والصبغة:

وهذه الثوابت في شخصية الإنسان هي التي يعبّر عنها القرآن الكريم بـ (الفطرة) كما يبدو:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[٤].

ويظهر من الآية الكريمة إنّ الفطرة هي مجموعة الخصائص التي أودعها الله تعالى في الإنسان[٥]، والتي خلق الله الإنسان عليها، وهذه الخصائص تشكل الجانب الثابت من شخصية الإنسان، وتعقّب الآية الكريمة على ذلك

---

١ ـ يونس: ٧٨.

٢ ـ الزخرف: ٢٢.

٣ ـ الزخرف: ٢٣ ـ ٢٤.

٤ ـ الروم: ٣٠.

٥ ـ معنى الفطرة: الخلق والإبداع، ومعنى الآية الكريمة على هذا تكون كما يلي: لا تبديل لخلق الله في الكيفيّة والشكل الذي خلق الله الناس وأبدعهم عليها.

بقوله تعالى: ﴿لا تَبْديلَ لِخَلْقِ اللَّه﴾ أي لا يمكن التلاعب والتغيير والتبديل في خلق الله بشكل من الأشكال.

وإنّما (الدّين) استجابة تشريعية لهذه الحاجات والأبعاد التكوينية الثابتة في شخصيّة الإنسان، والإنسان عندما يستجيب لسنن الله التشريعية ومنهجه الذي سلكه الأنبياء والمرسلون، يستجيب لهذا الجانب الثابت من شخصيّته.

وقد ورد التعبير عن هذه الثوابت في شخصية الإنسان في القرآن بـ(صبغة الله):

﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾[1].

وهو تعبير بديع عن الجانب الثابت في الإنسان.

فإنّ الله تعالى قد خلق الإنسان بلونه وصبغته الخاصّة التي ميّزه بها، وهذه الصبغة واللّون الذي يتميّز به الإنسان صبغة من صبغة الله صبغ بها شخصيّة الإنسان، والدّين، هو الجانب التشريعي من هذه الصبغة الذي يتناسق مع الصبغة الإلهيّة في جانبه التكويني.. وهما معاً صبغة الله أحدهما الوجه التكويني لهذه الصبغة والأُخرى الوجه التشريعي لها، ولذلك فهما متناسقان منسجمان.

أمّا الأصباغ والألوان الجاهلية التي يصبغون بها حياة الإنسان في الأخلاق والأعراف والقوانين والتصوّرات والرؤى، فهي لمّا كانت صبغة غير صبغة الله تأتي غير متناسقة لهذه الصبغة الإلهيّة التي صبغ الله تعالى شخصيّة الإنسان بها في التكوين.

روي عن رسول الله ﷺ انّه قال:

---

١ ـ البقرة: ١٣٨.

«يا عباد الله أنتم كالمرضى، وربّ العالمين كالطبيب، فصلاح المرضى فيما يعلمه الطبيب وتدبيره به، لا فيما يشتهيه المريض ويقترحه، ألا فسلِّموا لله أمره تكونوا من الفائزين»[١].

ويقول الإمام الصادقعليه السلام لمفضل بن عمرو:

«ولكنّه خلق الخلق، فعلم ما تقوم به أبدانهم وما يصلحهم، فأحلّه لهم وأباحه تفضّلاً منه عليهم لمصلحتهم، وعلم ما يضرّهم فنهاهم عنه وحرّمه عليهم»[٢].

٢ـ القيمة الإيحائيّة والتربويّة للوراثة

تعطي التربية الإسلامية أهمية خاصّة للوراثة في بناء شخصية الإنسان المسلم، ذلك أنّ تعميق الإحساس بالوراثة للأنبياء والشهداء والصديقين، والارتباط بهذه المسيرة المباركة يمنح الإنسان حالة الاستعلاء على الحياة الدنيا وزخارفها، والترفّع عن الهوى والأنا والشهوات.

فإنّ الإنسان إذا عمّق في نفسه الإحساس بالارتباط الأُسري لا يسمح لنفسه التفريط في ما أعطاه الله من المواهب والنعم.

كرامة الأسرة وموقعها الاجتماعي:

وهذا هو سرّ تأثير الوضع العائلي للإنسان في سلوكه ومعيشته.. فإذا شعر الإنسان بأنّه يرتبط بأكرم أُسرة في حضارة الإنسان، وهي أُسرة الأنبياءعليهم السلام، وأنّه خَلَفُ هذه الأُسرة، وحلقة الارتباط بين أجيال هذه الأُسرة.. فليس من

---

١ ـ مجموعة ورّام ٢: ١١٧.

٢ ـ وسائل الشيعة: كتاب الأطعمة والأشربة: ٢٣٦.

شكّ أنّ هذا الإحساس يبعث في نفسه قدرة كبيرة على الترفّع على المنكرات والمرديات، ويمنحه القدرة على مكافحة الشهوات والأهواء، ويضعه في موضع الاستعلاء على اللّذّات والشهوات التي حرّمها الله عليه.

إنّ الشعور بالبنوّة والوراثة لأُسرة التوحيد والارتباط بها يمنح الإنسان إحساساً قويّاً بقيمته التاريخية والحضارية، فلا يفرّط في قيمه وموقعه.

وهذا هو سر اهتمام الإسلام بالأساليب التي تشد الإنسان بهذا المحور الحضاري الربّاني.

فالقرآن الكريم يعتبر إبراهيمعليه السلام أباً للمؤمنين ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[1].
ولاشكّ أنّ هذه البنوّة ليست هي البنوّة النسبية، وإنّما هي بنوّة العمل ووراثة العقيدة والرسالة.

وعن هذه البنوّة والانتماء يقول رسول اللهصلى الله عليه وآله لسلمان الفارسيّ:

«سلمانُ منّا أهل البيت»[2].

وينفي القرآن الكريم أن يكون ابن نوحعليه السلام من أهله:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[3].

والأهليّة هنا تساوي العمل، والعمل وحده هو الذي يرفع الإنسان، ويضع الإنسان، ويربطه بإبراهيم خليل الرّحمنعليه السلام، وأُسرته من الأنبياء والأئمّةعليهم السلام، ويقطعه عنهم، ويجعله في امتداد هذه المسيرة المباركة ويبتره عنها.

---

١ ـ الحج: ٧٨.

٢ ـ بحار الأنوار ٢٢: ٣٢٦ ح٢٨ عن عيون أخبار الرضاعليه السلام للصدوق ١: ٧٠.

٣ ـ هود: ٤٦.

إذن، فهناك تداعي مباشر بين الوراثة والعمل، فالعمل تحقّق الوراثة الصالحة، والإحساس بالوراثة يعدّ الإنسان للعمل الصالح.

ومن هنا تأتي قيمة زيارة الأنبياء والأئمةعليهم السلام بعد وفاتهم وخطابهم بالنصوص الواردة في الزيارات.

فانّ السعي لزيارة الأنبياء والأئمةعليهم السلام يعمّق في نفس الإنسان الإحساس بالارتباط بهم باستمرار، ويغذّي هذا الشعور بصورة مستمرّة، كما أنّ إحياء مناسباتهم يؤدّي دوراً فعّالاً في تحقيق هذه الصلة الروحيّة بين الإنسان المؤمن وهذه المسيرة الحضارية الربّانية المباركة.

وبشكل خاصّ تؤكّد النصوص على زيارة الحسينعليه السلام سيمّا زيارة عاشوراء، وفي كلّ يوم للموقع الحسّاس الذي يحتلّه سيّد الشهداء الحسينعليه السلام في هذه المعركة المصيرية بين معسكر الرّحمن ومعسكر الشيطان، ولأجل تعميق الصلة بالموقف الحسيني الشامخ والصلب في كربلاء.

والذين ينتقدون هذه الشعائر الإسلامية... يفهمونها بسطحية ظاهرة.. إنّ الارتباط بالأنبياء والمرسلين والأئمّة والصالحينعليهم السلام بالوسائل والطرق المشروعة من المسائل التي يتّخذها الإسلام أداة للتربية، وشدّ الإنسان المسلم بالمسيرة الإسلامية الكبرى في التاريخ. ولذلك يذكّر القرآن بقصص الأنبياء والصالحين، وبصورة مكثّفة، وبتكرار، وتأكيد بليغ.

ولاشكّ أنّ توفير هذا المناخ الحضاري للإنسان المسلم والارتباط بهذا الجوّ منذ آدمعليه السلام إلى رسول اللهصلى الله عليه وآله من أهم أهداف القرآن الكريم في التذكير بقصص الأنبياء والصالحين. والإحساس بالوراثة يعمّق شعور

الإنسان بالمسؤولية بصورة مؤثِّرة وقويّة، فإنّ الإنسان عندما يشعر أنّه جزء لا يتجزّأ من مسيرة طويلة ذات جذور بعيدة في التاريخ يستشعر بمسؤوليّة المحافظة على خط الآباء والأسلاف ومكاسبهم وإنجازاتهم وتثمينها ودعمها، ويشعر أنّ عليه مسؤولية نقل هذه الأمانة التي استلمها من الجيل السابق إلى الأجيال التي تأتي من بعد، وانّه حلقة من حلقات هذه السلسلة الطويلة يربط الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل، والجسر الذي يمتد بين الأجيال، يصل فيما بينها.

إنّ هذه المحاسبة في المواريث يعمّق شعور الإنسان بالمسؤولية، وتبعث في نفسه الغيرة على مواريث السّلف والوفاء لهم والحرص على الأجيال المقبلة، وتشعره أنه جزء لا يتجزّأ من سلسلة طويلة ممتدّة وليس من حقِّه أن يفرِّط في هذا الميراث الكبير الذي ورثه من أسلافه وآبائه الصالحين.

وهذه الحالة تختلف كثيراً عمّا لو كان الإنسان يشعر أنّه لوحده مشروع مستقل، غير مرتبط بمن قبله ومن بعده، وهو كيان قائم بنفسه[1]، ولا يرتبط بمسؤوليّة تجاه الآباء، ولا بمسؤوليّة تجاه الأبناء. وشتّان ما بين هذين الشعورين وما ينشأ عنهما من مواقف.

إنّ النمط الأوّل هو النمط المسؤول من الناس والنمط الثاني هو النمط اللاّمسؤول من الناس، والإحساس من النوع الأوّل هو الإحساس الذي يبني في نفس الإنسان الشعور العميق بالمسؤولية. والإحساس من النوع الثاني يرفع الإحساس بالمسؤولية عن كاهل الإنسان.

---

١ ـ أو كما يقول الوجوديون: يسبق وجوده هويته وماهيته.

والإحساس من النوع الأوّل يبني في نفس الإنسان شعوراً بأنه جزء من كلّ مترابط ومتضامن على البُعدين الزماني والمكاني. والإحساس من النوع الثاني يخلق في نفس الإنسان شعوراً بأنه شيء منفصل عن التاريخ، وعن المستقبل، ولا يحمل أيّ مسؤولية عن الماضي والمستقبل. وإنّما يعيش لنفسه، وفي حدود إطار ذاته وشخصيّته.

وهكذا نجد أنّ الإحساس بالارتباط بالسّلف، يحمي الإنسان عن سلطان الهوى والشهوات، ويمنحه المناعة، ويحصّنه ضدّ الشيطان ووساوسه ووسائله ومكره، ويعطي الإنسان قدرة على الصمود والثبات أمام الضغوط التي يمارسها الطاغوت على المؤمنين لحرفهم عن مسيرة السّلف.

ونذكر هنا بعض الشواهد التاريخية على هذه النقطة.

محمّد بن أبي عُمير في سجون العبّاسيين:

وأودّ أن أذكر نموذجاً من نماذج الصمود والثبات من تاريخنا من المؤمنين الذين تعرّضوا للفتنة، فحماهم الله تعالى بمواقف آبائهم وإخوانهم الذين سبقوهم في الإيمان والابتلاء، فلم يخضعوا للإرهاب والتعذيب، وهو محمّد بن أبي عمير ﵀.

كان من خيار أصحاب الإمام موسى بن جعفر والإمام الرضا عليّ بن موسى والإمام الجواد محمّد بن عليّ ﵃، وقد أدركهم جميعاً.

وروي عن الإمام الرضا والجواد ﵉، ذكر ابن بطّة أنّ له أربعاً وتسعين كتاباً[1].

---

١ ـ معجم رجال الحديث للسيد الخوئي ١٤: ٢٨١.

يقول النجاشي:

«رُوي أنّه حبسه المأمون.. وقيل أنّ أُخته دفنت كتبه في حالة اختفائه وكونه في الحبس أربع سنين، فهلكت الكتب.. فحدّث من حفظه، وممّا كان سلف له في أيدي الناس. فلهذا أصحابنا يسكنون إلى مراسيله. وقد صنّف كتباً كثيرة»[1].

وقد كان ﷺ طويل السجود، كثير الذِّكر والعبادة.

روى الكشي، عن الفضل بن شاذان، قال:

«دخلتُ العراق فرأيت واحداً يعاتب صاحبه ويقول له: أنت رجل عليك عيال وتحتاج أن تكسب عليهم، وما آمن عليك أن يذهب عيناك لطول سجودك، فلمّا أكثر عليه، قال: أكثرت عليّ ويحك لو ذهبت عينا أحد من السجود لذهبت عين ابن أبي عمير. ما ظنّك برجل سجد سجدة الشكر بعد صلاة الفجر فما يرفع رأسه إلاّ زوال الشمس»[2].

ويقول فضل بن شاذان: أخذ يوماً شيخي بيدي وذهب إلى ابن أبي عمير، فصعدنا في غرفة وحوله مشايخ له يعظِّمونه ويبجِّلونه. فقلت لأبي: من هذا؟

قال: هذا ابن أبي عمير.

قلت: الرجل الصالح العابد؟ قال: نعم[3].

وقد ألقى هارون عليه القبض «وضُرِبَ ابن أبي عمير مائة خشبة

---

١ ـ رجال النجاشي: ٢٢٩، الطبعة الحجرية.

٢ ـ رجال الكشي: ٤٩٤، ط. النجف.

٣ ـ المصدر السابق.

وعشرون خشبة بأمر هارون. تولّى ضربه السندي بن شاهك على التشيّع»[١].

وروى الفضل بن شاذان قال:

«سُعيَ بمحمّد بن أبي عمير إلى السلطان أن يُعَرِّفَ أسامي الشيعة بالعراق، فأمره السلطان أن يسمّيهم، فامتنع، فجرّد، وعلّق بين القفّازين فضرب مائة سوط.

قال الفضل: فسمعت ابن أبي عمير يقول: لمّا ضربت فبلغ الضرب مائة سوط، أبلغ الضرب الألم إليّ، فكدت أن أُسمّي، فسمعت نداء محمّد بن يونس بن عبد الرحمن، يقول: يا محمّد بن أبي عمير: اذكر موقفك بين يدي الله تعالى، فتقوّيت بقوله وصبرت، ولم أُخبر، والحمد لله»[٢].

والإنسان العامل عندما يشعر أنّه جزء لا يتجزّأ من مسيرة متّصلة بعيدة الأغوار في التاريخ، ممتّدة على امتداد الزمان، لا يشعر بالفشل والانكسار والضّعف.

فإنّ الفشل يصيب الإنسان، إذا كان لوحده مشروعاً قائماً بالذات، يموت العمل بموته، ويعيش بحياته، وينجح بنجاحه، ويسقط بفشله. وأمّا حينما يكون الإنسان جزءاً من مسيرة مترابطة متماسكة تمتد عبر الزمان، فلن تتوقّف المسيرة إذا مات، ولن تفشل إذا فشل، ولن يكون الفشل إلاّ انتكاسة في المسيرة، سرعان ما تستطيع المسيرة أن تتجاوزه وأن تجبر الخسارة.

إنّ هذه المسيرة قد جاوزت نمرود وفرعون وقوم عاد وثمود ومئات الجبابرة والطغاة المستكبرين على وجه الأرض الذين كانوا يَتَحدَّوْنَ الأنبياء

١ ـ المصدر السابق.

٢ ـ تنقيح المقال في علم الرجال للعلاّمة المامقاني ٢: ٦٢ حرف الميم.

والمرسلين عليهم السلام، فلم تتوقّف المسيرة، وواصلت عملها وتقدّمها.

ومن هذه الزاوية، فليس في حساب هذه المسيرة الفشل والهزيمة بالمعنى الذي يعرفه الناس.. وأكثر ما فيه انتكاسة، أو كما يقول القرآن الكريم: قرح، قد أصاب العدوّ مثله أو أكثر منه، وسرعان ما تتجاوز المسيرة الانتكاسة، ويندمل القرح، وتنشط المسيرة، ولن يكون القرح إلاّ تمحيصاً وتزكية للّذين آمنوا، وهذا هو شعور الدعاة إلى الله العاملين في سبيل الله، إذا أصابهم قرح في المعركة أو أصابتهم انتكاسة في ساحات القتال والصراع.

ولنتأمّل هذه الآيات المباركات من سورة آل عمران:

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

لم تنزل هذه الآيات بعد معركة بدر الظافرة، وبعد نشوة من نشوات النصر، وإنّما نزلت بعد مرارة نكسة أُحد بالذات. بعد هذه النكسة المرّة يقول الله تعالى للمؤمنين: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾، وليس من موجب للإحساس بالوهن والحزن.

فإنّ ما أصابهم في أُحُد لن يزيد على أن يكون قرحاً قد أصاب العدو مثله. ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾، ومسيرتكم هي الظافرة المؤيّدة من عند الله، والنصر

١ ـ آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٢.

لا يتجاوزكم. وما أصابكم من قرح في (أُحُد) فهو لكم تمحيص وتطهير وتزكية، يريد الله أن يزكّيكم به، ولن تدخلوا الجنّة ما لم يصبكم أمثاله، وما لم يطهّركم الله ويزكّيكم ويمحّصكم به.

إنّ الإنسان العامل الداعية إلى الله يشعر أنّ هذه المسيرة لن تُبتدأ به، ولن تُختتم به، ولن يكون جهده وعمله إلاّ جزءً من المجهود الكبير المتواصل الذي تبذله الأجيال من المؤمنين.

وهذا المجهود عتيد ومتّصل عبر الأجيال والزمان، ولن ينقطع. فإذا نصره الله خلال تحرّكه وعمله فسوف يضيف على مكاسب السّلف مكسباً جديداً وعلى إنجازاتهم إنجازاً جديداً في حساب النصر. وإذا ابتلاه الله بقرح وانتكاسة فسوف يكون سبباً في تمحيصه وتمحيص المؤمنين وتمحيص المسيرة جميعاً، ويطهّر المسيرة والصف من نشوات النصر وما يلحق هذه النشوات من الغرور والبطر والرياء.

فلا موجب إذن للإحساس بالوهن والحزن، ولا موجب للشعور باليأس والخوف.

إنّ الداعية عندما يندمج في المسيرة، ويتحوّل من مشروع مستقل قائم بذاته إلى جزء من هذه المسيرة لا يكاد أن يساوره شعور بالخوف واليأس والوهن والضعف إلاّ عندما تنتابه حالات ضعف الإنسان، فيدركه الله تعالى برحمته ونوره وقوّته، ويبعث في نفسه الأمل والقوّة والثقة بالله تعالى ويشرح صدره ويُذهب عنه الخوف واليأس والشكّ.

وممّا يُصيب العاملين في سبيل الله عندما ينهضون برسالة الله في أجواء الجاهلية: الإحساس بالوحشة والغربة.

الغربة في كلّ شيء: في التصوّرات، والأفكار، والعقائد، والأعراف، والمصطلحات، والأخلاق، والتقاليد، والصلاة، والصيام، وذكر الله.

والشعور بالوحشة والغربة عندما يتعمّق في نفس الداعية، يعزله ويزويه ويبعث في نفسه اليأس والوهن وأحياناً الخوف.

إنّه يتحرّك على عكس التيّار، وماذا تراه يستطيع أن يفعل في وسط هذا الجو الحاشد بمظاهر الجاهلية والفساد.

وليس أضرّ على الدعاة من هذا الشعور، ولا شيء يبعث في نفوسهم اليأس والخيبة أكثر من هذا الإحساس.

أمّا عندما يرتبط الداعية نفسيّاً بأُسرة التوحيد الضاربة في أعماق التاريخ والممتدّة في أعماقه، ويشعر بأنه عضو في هذه الأُسرة المباركة، وشوط من هذه المسيرة الربّانية على وجه الأرض، وصدى لدعوات الأنبياء والمرسلين وامتداد لهم.. يشعر بالراحة والطمأنينة والثقة والأُلفة والقوّة.

وتتمكّن الثقة من نفوس الدعاة العاملين في سبيل الله عندما يرجعون إلى تاريخ أُسرة التوحيد ومعاناتهم.. فيرون إلى جانب هذه المعاناة والتمحيص، والمطاردة، والاضطهاد، والتعذيب، والتشهير، والتسقيط الذي يرافق حياة هذه الصفوة من الدعاة العاملين في سبيل الله.. يرون إلى جانب هذه الصورة الدامية وإلى جانب الدموع والدماء.. نصر الله تعالى لهذه العصبة المؤمنة وتأييده، ويرون يد الله القويّة والقاهرة والرحيمة معاً في كلّ مراحل حياتها.. كلّما نزلت بهم محنة، وكلّما حلّت بهم كارثة، وكلّما ضاقت بهم الأرض بما وسعت، وكلّما قست عليهم الظروف.

ويرون أنّ هذا النصر والتأييد الإلهي للعصبة المؤمنة العاملة في سبيل الله،

ليس صدفة، ولا حادثاً طارئاً، وإنّما هو سنّة من سنن الله الثابتة التي لا تتحوّل ولا تتبدّل.

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[1].

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ * وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ * وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[2].

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾[3].

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[4].

﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[5].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾[6].

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾[7].

---

١ ـ القصص: ٥ ـ ٦.

٢ ـ النور: ٥٥.

٣ ـ الانشراح: ٥ ـ ٦.

٤ ـ الصافّات: ١٧١ ـ ١٧٣.

٥ ـ البقرة: ٢٤٩.

٦ ـ آل عمران: ١٢٣.

٧ ـ التوبة: ٢٥.

فيزول من نفوس الدعاة العاملين في سبيل الله كلّ شكّ وريب وكلّ يأس وخوف، وتنشرح صدورهم بالثقة بالله تعالى ونصره وتأييده.

فمهما تطول معاناة المؤمنين، ويطول عذابهم، وتطول محنتهم، فإنّ الله تعالى لن يتخلّ عنهم ولن يتركهم لوحدهم في مواجهة الظالمين والطغاة، ولا بدّ أن ينصرهم الله، كما نصر الله تعالى نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله، وكما نصر الله تعالى الصالحين من عباده.

وهذا الإحساس بمعيّة الله تعالى وتأييده ونصره لأُسرة التوحيد يبعث في نفوس الدعاة إلى الله الثقة والأمل والطمأنينة والثبات، ويدعم نفوسهم ويربط على قلوبهم، ويشرح صدورهم، ويزيل عنهم الإحساس بالوحشة والغربة في الطريق، مهمّا قلّ العاملون على الطريق.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«أيّها الناس لا تستوحشوا من طريق الهدى لقلّة أهله، فإنّ الناس قد اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل»[1].

وإذا كانت الموائد التي تستقطب الناس، شبعها قصير، وجوعها طويل، فما أحرى بالدّعاة إلى الله أن يعتزلوا هذه الموائد إلى المائدة الإلهيّة التي يجتمع حولها الأنبياء والدّعاة إلى الله والصالحون من عباد الله:

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2].

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[3].

---

١ ـ نهج البلاغة: خطبة ٢٠١.

٢ ـ الشورى: ٣٦.

٣ ـ طه: ١٣١.

ويكتب أمير المؤمنين عليه السلام لأخيه عقيل، وقد آثر الحياة الدنيا على أخيه أبي الحسن:

«ولا يزيدنّ كثرة الناس حولي عزّة، ولا تفرّقهم عنّي وحشة. ولا تحسبنّ ابن أبيك ولو أسلمه الناس متضرّعاً متخشّعاً، ولا مقرّاً للضيم وهناً، ولا سلس الزّمام للقائد، ولا وطيء الظهر للرّاكب المتقّد»[١].

وفي هذه المسيرة عَمَلُ الآباء للأبناء ذكرى ودرس، وخبرة الآباء تنتقل إلى الأبناء كدروس، ولا يبدأ الدعاة إلى الله عملهم من نقطة الصفر، لا في العمل ولا في خبرات العمل.

وإنّما تنتقل خبرات العمل من جيل إلى جيل، وفي كلّ مرحلة، يزداد العاملون في سبيل الله نضجاً في العمل، وخبرة في أساليب الدعوة إلى الله، وفي أساليب مواجهة الطغاة، ووعياً للعقبات وصعوبات الدعوة إلى الله، وفهماً لأساليب مواجهة هذه الصعوبات والعقبات.

والله تعالى يُعلّم نبيّه صلى الله عليه وآله أن يتعلّم الصبر ممّن سبقه حتّى أُولى العزم من الأنبياء:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[٢].

ويَقصّ الله تعالى على نبيّه وعلى المؤمنين قصصاً من أنباء الرّسل، ليكون لهم عظة وذكرى:

﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

---

١ ـ نهج البلاغة: الكتاب ٣٦.

٢ ـ الأحقاف: ٣٥.

٣ ـ هود: ١٢٠.

وبعد، فهذه بعض الإيحاءات التي يعطيها الإحساس بالانتماء إلى أُسرة إبراهيم عليه السلام، والشعور بوراثة الأنبياء والأولياء والصالحين من عباد الله.

وهذه طائفة من التأملات التي توحيها على الإنسان الكلمات الواردة في زيارة (وارث) المعروفة التي تصف الإمام الحسين عليه السلام بوارث الأنبياء.

وراثة الإمام الحسين عليه السلام للأنبياء عليهم السلام

موقف الحسين عليه السلام من البيعة ليزيد:

لمّا مات معاوية، أرسل يزيد إلى الوليد بن عتبة عامله على المدينة، ليأخذ البيعة من الحسين عليه السلام وعبد الله بن عمر وعبد الرّحمن بن أبي بكر وعبد الله ابن الزبير.

فأرسل الوليد إلى الحسين عليه السلام وابن الزبير منتصف اللّيل، فصار إليه الحسين عليه السلام في ثلاثين من مواليه وأهل بيته وشيعته شاكين الأسلحة ليكونوا على الباب فيمنعوه إذا علا صوته، وبيده قضيب رسول الله صلى الله عليه وآله. ولمّا استقرّ المجلس بأبي عبد الله عليه السلام، نعى الوليد إليه معاوية، ثمّ عرض عليه البيعة ليزيد، فقال له الحسين عليه السلام:

«مثلي لا يُبايعُ سراً، فإذا دعوت الناس إلى البيعة دعوتنا معهم، فكان أمراً واحداً».

فاقتنع الوليد منه، لكن مروان ابتدر قائلاً: إن تركته وفارقك الساعة ولم يُبايع، لم تقدر منه على مثلها حتّى تكثر القتلى بينكم، ولكن احبس الرّجل حتّى يبايع أو تضرب عنقه.

فقال الحسين عليه السلام: «يا ابن الزرقاء[1]!! أأنت تقتلني أم هو؟ كذبت وأثمت».

ثم أقبل على الوليد، وقال:

«أيها الأمير: إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة، بنا فتح الله وبنا يختم. ويزيد رجل فاسق شارب الخمر، قاتل النفس المحترّمة، معلن بالفسق، ومثلي لا يُبايعُ مثله، ولكن نصبح وتصبحون وننظر وتنظرون أيّنا أحقّ بالخلافة».

فأغلظ الوليد في كلامه، وارتفعت الأصوات، فهجم تسعة عشر رجلاً قد انتضوا خناجرهم وأخرجوا الحسين عليه السلام من منزله قهراً[2].

والذي يتأمل في الحوار الذي جرى بين الحسين عليه السلام ومروان، يلمس بوضوح خلفيّات كلام كل منهما، أنّ مروان يتسلّح بقوّة الأمير (الوليد) وقدرته على السجن والقتل والبطش: (ولكن احبس الرّجل حتّى يُبايع أو تضرب عنقه).

وأمّا الحسين عليه السلام فهو يتحدث عن خلفية تاريخية ذات جذور راسخة وعميقة وأصالة، ويقول: «إنّا أهل بيت النبوّة» من بيت النبوّة وأُسرة رسول الله صلى الله عليه وآله، «ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة» والنبع الصافي. وللرسالة

---

١ ـ نقل سبط ابن الجوزي في كتابه «تذكرة الخواص»: ٢١٨ ط. النجف، عن الأصمعي، عن ابن إسحاق: إنّ أمّ مروان اسمها أميّة، وكانت من البغايا في الجاهلية، وكان لها راية مثل راية البيطار تُعرف بها، وكانت تسمّى (أم حبتل الزرقاء)، وكان مروان لا يُعرف له أب، وإنما نُسبَ الى الحكم كما نُسبَ عمرو الى العاص.

٢ ـ مقتل الحسين عليه السلام للسيّد عبد الرزّاق المقرم: ١٢٧ ـ ١٢٨، نقلاً عن ابن الأثير الكامل ٤: ٦، ومقتل الخوارزمي ١: ١٨٣، والطبري ٦: ١٨٩، ومناقب ابن شهر آشوب.

والنبوّة جذور عميقة في هذه الأُسرة، كما أنّ للمعدن جذور عميقة في الأرض. «بنا فتح الله وبنا يختم» وقد فتح الله تعالى الرسالة بهذه الأُسرة وختمها بها. ومن هذه الأُسرة أبو الأنبياء عليه السلام، ومن هذه الأُسرة خاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله، ثمّ يقول:« ويزيد شارب الخمر، قاتل النفس المحترّمة، معلن بالفسق»، فالفاصلة بين هاتين الأُسرتين كبيرة، ولا يمكن أن يصافح الحسين عليه السلام يزيد، أو يبايعه ويعترف بإمارته، وهو الفاسق المعلن للفسق شارب الخمر، وقاتل الأنفس البريئة، «ومثلي لا يُبايعُ مثله».

الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء:

وللحسين عليه السلام كلام آخر في يوم عاشوراء خاطب به جيش عمر بن سعد ننقل منه الجملة التي نريد أن نستشهد بها فقط.

«ألا وأنّ الدّعيّ ابن الدّعيّ قد ركز بين اثنتين: بين السّلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلّة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حميّة ونفوس أبيّة، من أن نؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام»[1].

وما أروع الصورة التي يرسمها الحسين عليه السلام، وهو في قلب الأعداء، يوم عاشوراء لهذه المعركة.

إنّه يشخص أوّلاً العدوّ تشخيصاً دقيقاً، ويشخص موضعه وأصله ونبعه، انّه على وجه الدّقّة (الدّعي ابن الدّعي)، ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من هذا التشخيص والتوضيح، ويصفع الطاغية بهذا الكلام أمام جنده وقوّاته، وهو

---

١ ـ نقل الخطبة السيد عبد الرزّاق المقرّم في مقتله: ٢٦٢ ـ ٢٦٣، عن اللهوف للسيد ابن طاووس: ٥٤، وابن عساكر في تاريخ الشام ٤: ٣٣٤، والخوارزمي في المقتل ٣: ٦.

في قبضتهم، ويعلن أنّ الدّعيّ ابن الدّعيّ يخيِّره بين (الذِّلّة) ومبايعة يزيد بن معاوية الفاسق وبين (سِلَّة) البطش والقتل.

ثمّ يعلن موقفه من هذا الخيار الصّعب: «وهيهات منّا الذِّلّة».

يقول لهم أنّ هذا الموقف ليس موقفاً شخصياً، يمكن أن يتزلزل أو يخضع للإغراء والوعود، أو للضغط والإرهاب، وإنّما هو موقف يفرضه عليه (الله) و(رسوله)، وهذا هو البُعد الأوّل لموقف الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، ينبع من الولاء (لله) و(الرسول) والإيمان بالله والرسول صلى الله عليه وآله.

ثمّ يقول عليه السلام: «والمؤمنون» وهذا هو البُعد الثاني للموقف، فالمؤمنون في كلّ مكان يرفضون له الاستسلام والانقياد للفاسق يزيد بن معاوية، ويطلبون منه الثبات والصمود وعدم الخضوع للإغراء والإرهاب.

ثمّ يقول عليه السلام: «وحجور طابت وطهرت وأُنوف حميّة ونفوس أبيّة» وهذا هو البُعد التاريخي الثالث والجذور التاريخية العميقة لهذا الموقف. وكأنّ الحسين عليه السلام يريد أن يقول لجيش ابن زياد يومئذٍ أنّه ليس كسائر الناس؛ خشبة عائمة على مجرى الماء، يأخذه التيّار حيث يتّجه، وإنّما هو جزء من بنيان كبير وعريق وأصيل، يرتبط بالله ورسوله من جانب، ويرتبط بالمؤمنين من جانب آخر، ويرتبط بأُسرة طاهرة نقيّة أبيّة للضيم رافضة للظلم من جانب ثالث، فلا يمكن أن يختار طاعة اللِّئام على مصارع الكرام.

عاشوراء (ودّ) و(قدوة)

وُدّ يقذفه الله في قلوب المؤمنين، وقدوة في حياتهم

إنّني ألمس في تفاعل الجماهير مع (عاشوراء) أمرين لا أشك فيهما مهما شككت في شيء:

ألمس يد الله عزّ وجلّ في هذا التلاحم العجيب بين الجماهير وعاشوراء، فلا يكاد يتم هذا التلاحم والتعاطف والتفاعل بصورة عفوية، وطبقاً للقوانين والسّنن التي يعرفها النّاس في علم النّفس والإجتماع والإعلام ثم يدوم ويستمر بهذه الدرجة من القوّة، لو لم تتدخل الإرادة الإلهية في تحريك جماهير المؤمنين باتجاه عاشوراء، وربط عواطف جمهور المؤمنين ومشاعرهم بهذا اليوم.

الوُدّ الذي يجعله الرحمن للذين آمنوا:

إنّ حبّ الصالحين ومودتهم أمر يقذفه الله تعالى في قلوب عباده ولا يمكن أن يصنعه الناس أو ينتزعه الناس. والأساليب الإعلامية المتطورة قد تحرّك عواطف الناس باتجاه معين، وتخلق موجة من العواطف والأحاسيس تجاه شخص، وترفع شخصاً من حالة الخمول إلى قمة المجد أيّاماً أو سنين، وتحيطه بهالة من العواطف والمشاعر والأحاسيس. ومن الممكن أن تجتذب وسائل الإعلام عواطف الناس وأحاسيسهم ولكن ذلك شيء يختلف اختلافاً كيفياً وكميّاً عن حالة التعاطف والتفاعل الوجداني العميق

المستقرة والثابتة في قلوب المؤمنين، كما كان يختلف عصا موسى عليه السلام عمّا كان يصنعه سحرة فرعون عندما حاولوا أن يعارضوا معجزة موسى عليه السلام بسحرهم.

وهذا هو الود والحب الذي يجعله الله للصالحين في قلوب عباده.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[١].

وهذا الود المتميز هو مما يجعله الله تعالى في قلوب عباده وليس للإنسان دور في صنع ذلك إلاّ أن يعد نفسه لذلك إعداداً، ويجعل نفسه في موضع نزول الرحمة الإلهية. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يُعلّم علياً عليه السلام أن يقول في دعائه (اللهم أجعل لي عندك عهداً، وأجعل لي في قلوب المؤمنين ودّاً)[٢].

فإنّ الله تعالى يتصرّف في قلوب عباده كما يشاء. وقد ورد في الرواية أنّ (قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن)[٣]. ولا شك أنّ للقلوب جذب ودفع. فقلوب الصالحين تنجذب للصالحين وتحبّ الصالحين، وتنفر من الفاسقين وتبرأ منهم، وقلوب الفاسقين تنجذب لأمثالها وتنفر من الصالحين. وهذا الجذب والدفع من خلق الله تعالى وصنعه... ونحن نعلم علم اليقين أنّ الله تعالى يتصرّف في قلوب عباده، كما يحب ويشاء، ويبعث فيها ما يشاء من حبّ ونفور وإقبال وإدبار واستجابة وإعراض، كما يصنع الله تعالى في سائر ملكه وسلطانه.

والتعبير القرآني دقيق ورقيق في هذا المجال.

---

١ ـ مريم: ٩٦.

٢ ـ تفسير الميزان ١٤: ١١٥. ط. بيروت.

٣ ـ عوالي اللئالي ١: ٤٨ح٦٩، النهاية لابن الأثير٣: ٩، تفسير الرازي ١: ٢٥٤.

﴿..وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ..﴾[١].

ولكلّ امرءٍ ما يشتهيه ويكرهه ويحبّه ويبغضه وهذا قوام شخصية (الإنسان) والحبّ والبغض والرغبة والنفور من فعل القلب... ومع ذلك، ومع هذا الالتصاق الشديد، بين (المرء وقلبه) فإنّ الله تعالى (يحول بين المرء وقلبه).

ولا أعرف تعبيراً أبلغ من هذا التعبير في نفوذ سلطان الله تعالى على القلوب. وانقياد القلوب ورضوخها لمشيئة الله تعالى وصنعه وفعله.

وقد ورد في تفسير هذه الآية الكريمة عن الإمام الصادق عليه السلام: إنّ الإنسان قد يشتهي شيئاً بسمعه وبصره فإذا أراد أن يغشى شيئاً منه أنكره قلبه[٢] ومهما أنعم الإنسان النظر فلا يكاد يبلغ عمق هذا التعبير القرآني في نفوذ سلطان الله تعالى ومشيئته على القلوب.

فهذه القلوب التي يقول عنها الإمام الصادق عليه السلام: (إزالة الجبال أهون من إزالة قلب عن موضعه)[٣] تستجيب هكذا، طائعة ومنقادة لمشيئة الله تعالى، وينفذ فيها أمر الله تعالى نفوذاً مطلقاً في الحبّ والبغض، والإقبال والإدبار، والاستجابة والإعراض، والرغبة والكراهية. ويصنع الله تعالى فيها ما يشاء وما يحب كما يصنع في سائر ملكه وسلطانه.

وليس من مؤمن صالح أو متكبر طالح إلاّ كان قلبه تحت نفوذ سلطان

---

١ ـ الأنفال: ٢٤.

٢ ـ بحار الأنوار ٧٠: ٥٨. أوردت الرواية بالمضمون ونص الرواية (يشتهي الشيء بسمعه وبصره ولسانه ويده. أمّا أنّه لا يغشى شيئاً منها وإن كان يشتهيه، فأنه لا يأتيه إلاّ وقلبه منكر لا يقبل الذي يأتي العرف إنّ الحقّ ليس فيه).

٣ ـ بحار الأنوار ٧٨: ١٩٧.

الله تعالى وأمره المباشر.

وقد حكى لنا القرآن الكريم كيف جعل الله عزّ وجلّ في قلب فرعون حبّ موسى عليه السلام منذ أن التقطه من البحر، وكيف ألقى الله عزّ وجلّ حبّ موسى عليه السلام على قلب عدوه فرعون ﴿..وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾[١].

ولست أشكّ أن هذا الالتحام والتفاعل الذي يشد جمهور المؤمنين بيوم عاشوراء شيء من أمر الله تعالى وإرادة الله تعالى، هيأ له أسبابه.

عاشوراء قدوة للجمهور في حركته إلى الله :

والأمر الآخر الذي ألمسه في هذا الانشداد والتفاعل الجمعي العجيب هو أن الجمهور يجد في (عاشوراء) شيئاً يتفاعل مع ضميره وعقله وقلبه، ويجد في هذا اليوم بغيته التي يطلبها في حركته ومسيرته. فإن الناس يحتاجون في حركتهم الشاقة إلى الله في الحياة الدنيا إلى (توجيه) وإلى (مثال) يقتدون به. ولا يكفي التوجيه وحده.

الإنسان يحتاج دائماً إلى من يرشده ويعلّمه. وهذه ضرورة لا نقاش فيها، ولكنّه يحتاج أيضاً إلى من يتقدّمه ليمشي خلفه باطمئنان وثقة، وهذا الاطمئنان والثقة في الحركة لا يصنعه التوجيه والإرشاد وحده، وإنّما يصنعه الذي يتقدّم المسيرة بنفسه، ويكون قدوة ومقياساً ومعياراً عينياً متجسّداً في حركة واقعية على طريق العاملين. والناس في مسيرة الحياة كما (يطلبون المَعْلَم) والمُعَلِّم، يطلبون (القدوة) والمثال أيضاً، فإنّ الحركة إلى الله تعالى

---

١ ـ طه: ٣٩.

شاقة وعسيرة وكادحة. وعندما تكون الحركة شاقة وكادحة لا يكفي التوجيه وحده، وإنّما يحتاج الإنسان إلى قدوة أمامه، يضع خطاه في موضع خطاه، ويسير من خلفه. إنّ الحركة الكادحة إلى الله تختلف عما يتلقاه الطلبة في المعاهد والمدارس من العلم. فإن العلم لا يحتاج إلى أكثر من (المُعَلِّم)، وأما السير والحركة إلى الله واجتياز عقبات (الهوى) و(الطاغوت) واقتحام أهوال الطريق فلا يؤدي فيه (المُعَلِّم) إلاّ دوراً ناقصاً، ولابدّ من قدوة ومثال على الطريق ليبعث الثقة والطمأنينة والشجاعة في نفوس العاملين. إن الحركة إلى الله تتطلب الكثير من الإخلاص والوعي واليقين والتضحية والعطاء والقِيَم.

ولابدّ من أن يتجسد كلّ ذلك في (القدوة)، بصورة عينية، وحقيقية، وماثلة أمام أعين العاملين. ولابدّ أن يبرأ (القدوة) من الشكّ، والضعف، والزلل والانكسار، والهزيمة النفسية أمام العقبات وأهوال الطريق. ولابدّ أن يتجسّد في القدوة كلّما تتطلبه هذه الحركة من قدرة روحية وثقة عالية بالله تمكن الإنسان من مواجهة وتحدي العقبات ومتاعب الطريق.

إن (القدوة) في هذه الحالة تكون له قيمة توجيهية وحركية عالية في تحريك الأُمّة ويعتبر عاملاً أساسياً لا يمكن الاستغناء عنه في حركة المجتمع.

إن في نفوس الناس خيراً وشراً، وقوّة وضعفاً، وإيماناً وشكّاً، وثقة وقلقاً، وشجاعة وجبناً، وإقداماً وتراجعاً، وتختلط هذه المعاني في نفوس الناس بدرجات مختلفة... ونقاط الضعف هي العقبات الداخلية في نفوس العاملين، ولكي يتغلبوا على نقاط الضعف هذه في نفوسهم لابدّ لهم من

صور مشرقة متكاملة تخلص من نقاط الضعف هذه.

وعندما لا يجد الإنسان هذه الأمثلة على ساحة الحركة يلجأ إلى التجريد والتخيّل لتكتمل الصورة، تماماً كما يعمل الإنسان لتكميل النقص الواقع في قوس الدائرة في خياله. فيلجأ إلى التجريد الخيالي لإبراز هذه الصورة التي يحتاجها في حركته.

وهذا هو الدور الذي يقوم به الشعر والفن في رسم الصورة التجريدية للقدوة التي يحتاجها الإنسان في حركته وعمله.

وهذه الحاجة، ما دامت حاجة حقيقية في حركة الإنسان المسلم إلى الله، فلابدّ أن يكون له موضع مشخص وواضح في المنهاج الإلهي لهداية الإنسان وحركته. ولا يمكن أن تهمل العناية الربانية حاجة أساسية للإنسان في الحركة مثل هذه الحاجة، وهو سبحانه يقول: ﴿..الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1].

فلا يمكن أن يخلو منهج الخلق والهداية من عنصر أساسي وضروري في حركة الإنسان.

عصمة الإمام:

وهذا هو أحد المنطلقات العقلية للقول بعصمة الأنبياء والأوصياء عليهم السلام.

إن العصمة هي الصورة الواقعية المتكاملة للإنسان (القدوة) والتي يحتاجها الناس في حركتهم وكدحهم إلى الله في ساحة عملهم... ولأمر ما، جعل الله عزّ وجلّ الأنبياء والأئمّة معصومين في مسيرة حركة الإنسان وفي

---

١ ـ طه: ٥٠.

ساحة حياته وعمله، وجعل منهم قدوات للتأسي والاقتداء، ليكونوا أمثلة عينية وواقعية ومتحركة في واقع الحياة.

لن يكون الظالم إماماً للناس :

بعد أن منّ الله تعالى على عبده وخليله إبراهيم عليه السلام فجعله إماماً للناس طلب إبراهيم عليه السلام من الله تعالى: أن يجعل الإمامة في ذريته فأستثنى الله تعالى من ذريته الذين تلّبسوا بالظلم، فلا يمكن أن ينالهم عهد الله تعالى، ولا يمكن أن يكونوا أئمّة للمسلمين.

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1].

فالإمام لابدّ أن يكون قدوةً للناس يقتدي به الناس في حياتهم. ومن يتلبس بالظلم على نفسه أو على الآخرين لا يستطيع أن يكون مثالاً يتقدّم الآخرين ويقتدي به الناس.

الدعوة إلى الاقتداء بالصالحين:

وتكتمل هذه الصورة في المنهاج الإلهي في تربية الناس وتوجيههم بالآيات التي تدعوا الناس إلى أن يجعلوا من أنبياء الله ورسله قدوة لهم وأُسوة في العمل والحركة والقول والفعل. يقول تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله وللمؤمنين، بعد أن يذكر أسماء جملة من الأنبياء والمرسلين بتفصيل:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ..﴾[2].

---

١ ـ البقرة: ١٢٤.

٢ ـ الأنعام: ٩٠.

ويدعـو الله تعالى المؤمنين أن يجعلوا من رسول الله ﷺ أُسوة حسنة لهم ﴿لَقَـدْ كَـانَ لَكُـمْ فِـي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[1].

ويدعونـا الله تعـالى أن نجعـل مـن إبراهـيم عليه السلام ومـن معـه مـن المؤمنيـن الصـالحين قـدوة وأسـوة ﴿قَـدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ..﴾[2].

العناصر الثلاثة الضرورية في الحركة:

ولكي تكتمل هذه الصورة التي رسمناها لموضع القدوة في حركة الناس إلى الله تعالى نقول:

إنّ الحـركة إلى الله تتطلب ثلاثة عناصر أساسية يتولاها الله تعالى ويعدّها للنـاس فـي أنبـيائه ورسـله ومن يختارهم الله تعالى ويجتبيهم أئمّةً للمسلمين وهي:

أولاً: الهدايـة والتوجيه والتزكـية والتعلـيم، وينهض الأنبياء في هذا الأمر بدور المعلم والمربي لتزكية الأُمّة وتربيتها وتعليمها.

﴿هُـوَ الَّـذِي بَعَـثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِه وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[3].

﴿لَقَـدْ مَـنَّ اللَّـهُ عَلَـى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو

---

١ ـ الأحزاب: ٢١.

٢ ـ الممتحنة: ٤.

٣ ـ الجمعة: ٢.

عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

ثانياً: القيادة والولاية والإمامة. وهذه مهمة أُخرى تختلف عن المهمة الأُولى، ضرورية وأساسية في توجيه المجتمع وحركته إلى الله... فلا تتم هذه الحركة من دون قيادة وطاعة.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[2].

﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ﴾[3].

﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم﴾[4].

﴿..وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ..﴾[5].

ثالثاً: القدوة والأُسوة، وهو العنصر الضروري الثالث في هداية الإنسان وحركته إلى الله، وهي التي يتولاها الله تعالى ويرزقها لعباده الذين يجتبيهم لإمامة عباده. ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ﴾[6].

وهذه الثلاثة لابدّ منها جميعاً، وفي إطار واحد ليكمل بعضها بعضاً، وليؤدّي جميعها مهمة توجيه الإنسان إلى الله...

---

١ ـ آل عمران: ١٦٤.

٢ ـ المائدة: ٥٥.

٣ ـ النساء: ٨٠.

٤ ـ النساء: ٦٩.

٥ ـ النساء: ٥٩.

٦ ـ الأحزاب: ٢١.

شهادة رسول الله ﷺ، والأمّة الشاهدة:

وإلى هذا المعنى يشير القرآن الكريم، حيث يتخذ رسول الله ﷺ شهيداً على هذه الأُمّة ويتخذ هذه الأُمّة شهيدة على الناس أجمعين يقول تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[1].

وفي الآية الكريمة يتّخذ الله تعالى الرسول ﷺ شاهداً على هذه الأُمّة، كما يتّخذ هذه الأُمّة شاهدة على الناس.

والشاهد هنا بمعنى القدوة[2] بقرينة السياق فإن شهادة الأُمّة على الناس لا تستقيم إلاّ بهذا المعنى الذي ذكرناه وشهادة الرسول ﷺ على الأُمّة تأتي بنفس السياق[3].

فهذه الأُمّة ـ بمجموعها ـ قدوة للناس جميعاً، حيث جعلها الله تعالى أُمّة وسطاً لا تفريط فيها ولا إفراط ولا تجنح إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولا تحكم فيها النزعة المادية البحتة، ولا النزعة الروحية الخالصة. والخطاب للأُمّة ككل، وليس إلى أفراد الأمّة ـ والأُمّة بهذه الصفة وفي هذا الموقع الوسط من حضارة الإنسان مؤهلة من جانب الله تعالى لأن تكون قدوة وشاهدة على الناس جميعاً. وأن يجد فيها الناس مثالاً عينياً واقعياً للاعتدال والاستقامة على منهج الله في الحياة.

---

١ ـ البقرة: ١٤٣.

٢ ـ راجع من التفاسير تفسير نمونه ١: ٣٥٥، والمنار ٢: ٥.

٣ ـ تفسير السيد الطباطبائي في الميزان ٢: ٣٢٠ ـ ٣٢٣ ط. بيروت. الشهادة هنا بمعنى تلقي الشهادة وأداءها الى الله يوم القيامة كما يقرب من هذا المنحى الشيخ البلاغي في (آلاء الرحمن): ١٣٣ مطبعة العرفان ـ صيدا ـ ١٩٣٣ م وتفسير الكاشف ١: ١٢٤ و ٥: ٣٥٣.

كما أن رسول الله ﷺ قدوة لهذه الأُمّة المسلمة. في علاقته بالله تعالى وفي علاقته بالناس وفي سلوكه وحركته وعمله وقوله وفعله.

الأمّة الشاهدة معيار للقياس:

والتعبير بالشهادة عن القدوة من التعبيرات القرآنية المتميزة الخاصة بالقرآن، وكأنّ هذه الأُمّة في موقعها الحضاري الوسط يصلح أن تكون معياراً لتشخيص الموقع الحضاري الصحيح في الحياة وشاهدةً على ألوان الانحرافات الحضارية في حياة الإنسان.

فكلما يتقدّم هذا الموقع الحضاري الوسط فهو انحراف، وكلما يتأخر عن هذا الموقع الوسط فهو من الانحراف... والشاهد على هذه الانحرافات هو الموقع الوسط الذي أحلّ الله تعالى فيه هذه الأُمّة... تماماً كما تشهد الوحدة القياسية بالزيادة والنقصان في الكميات التي تقاس بها... فإنّنا لا نستطيع أن نفهم بالنظرة الأوليّة الزيادة والنقيصة في الكميات بشكل دقيق، ولكن عندما نقيس هذه الكميات بالوحدات القياسية نستطيع أن نشخص الزيادة والنقيصة (بشهادة) هذه الوحدات القياسية بشكل دقيق.

وكذلك هذه الأُمّة في موقعها الحضاري الوسط تصلح أن تكون شاهدة على انحرافات الناس وأداة لتشخيص هذه الانحرافات ومقياساً للتصحيح والتعديل والتهذيب والإصلاح.

ولابدّ في هذا الخضم الهائج من الأفكار والاتجاهات والأهواء والنزاعات من وجود أُمّة في موقع حضاري وسط على وجه الأرض، يقيس الناس أنفسهم بها. وتشهد على الناس في انحرافاتهم، وزيغهم، وشططهم... وأقول أُمّة ولا أقول أفراداً وجماعات. ففي هذه الأُمّة أيضاً من الانحراف

والزيغ الشيء الكثير... ولكن من الصحيح أيضاً أن نقول أن هناك أُمّة مؤمنة في هذا البحر الهائج المضطرب في الموقع الحضاري الوسط المعتدل... وأن هذه الأُمّة معيار ومقياس دقيق للتشخيص والتمييز لسائر الناس، وقدوة لسائر البشر، وحركة عينية واقعية إلى الله بين هذه الحركات المضطربة والقلقة في واقع حياة الناس.

وكما تتطلب رحمة الله تعالى بعباده وجود أُمّة مؤمنة في هذا الموقع الحضاري الوسط على وجه الأرض لتكون قدوة للناس... كذلك تتطلب الرحمة الربّانية أن يكون هناك قدوة للمؤمنين من أنفسهم ولهذه الأُمّة منها... ففي هذه الأُمّة كما ذكرنا الكثير من الزيغ والانحراف الذي تختلط بالكثير من الحقّ والصواب، ومن مجموعها تتكون هذه المسيرة الإلهية... فلابدّ من وجود قدوة لهذه الأُمّة ولهذه المسيرة أيضاً. كما كان لابدّ من قدوة للناس أجمعين. وإذا كانت هذه الأُمّة هي الصفوة من البشرية التي اجتباها الله تعالى لتكون قدوة للناس فإن رسول الله ﷺ هو صفوة الصفوة في هذه الأُمّة اتخذه الله تعالى قدوة لهذه الأُمّة ليكون مقياساً ومعياراً للاستقامة والاعتدال والسلوك والحركة إلى الله، وليقيس المؤمنون أنفسهم به، ويجدوا فيه مثالاً كاملاً للإنسان العامل الكادح إلى الله، ولنقرأ هذه الآية المباركة من سورة الحج:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ

فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[1].

يدعو الله تعالى في هذا النداء عباده المؤمنين ـ والخطاب هنا خاصّ بالمؤمنين ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..﴾: ـ يدعوهم إلى إقامة الصلاة، وإلى عبادته، ويدعوهم إلى فعل الخيرات والجهاد في الله، حقّ الجهاد.

فإن الله تعالى قد اجتباهم وأحلهم في هذا الموضع الوسط من حضارة الإنسان، واختارهم لهذا الموقع الخطير من الأرض، ومن حياة الناس ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾، وسمّاهم المسلمين، ﴿مِن قَبْلُ﴾، في حياة إبراهيم عليه السلام، وفي الكتب السابقة على القرآن، ﴿وَفِي هَذَا﴾ وفي القرآن، فشرفهم الله تعالى بهذه التسمية ﴿مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾.

وجعلهم امتداداً لإبراهيم ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾، وجعلهم أُسرة واحدة ممتدة على وجه الأرض وفي التاريخ... كل ذلك من دون أن يحملهم في هذا الاجتباء والاختيار ضيقاً وحرجاً، ومن دون أن يكلّفهم في هذا الاجتباء شدّة وضيقاً لا يطيقونه ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

...كل هذا النداء والدعوة إلى إقامة الصلاة وفعل الخير والجهاد، وكل هذا الاجتباء والاختيار والتشريف لهذه الأُسرة الإبراهيمية، والتسمية... كل ذلك ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

كلّ ذلك لإيجاد تيار معتدل مستقيم نظيف في وسط هذه التيارات المتضاربة والمنحرفة، ليكون قدوة للناس، وليكون مثالاً وشاهداً حيّاً على

---

١ ـ الحج: ٧٧ ـ ٧٨.

طريق الناس إلى الله، وقدوة محسوسة عينية في حياة الناس، وليس من قبيل الأفكار والنظريات، قدوة يراها النّاس، ويحسّونها، وتعيش معهم في السرّاء والضرّاء ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾... ثم بعد ذلك ليكون في وسط هذا التيار قدوة، هو صفوة الصفوة، للسائرين في هذا التيار، ومن هذه الأُمّة، ليكون شاهداً عليهم وعلى المسيرة والحركة، وليكون مقياساً لتشخيص حالات الضعف والعجز والتخلّف، وباعثاً على تلافي نقاط الضعف والتخلّف، وقدوة في المسيرة والحركة، ومقياسا لمعرفة الحق على طريق العاملين والسائرين إلى الله، يضعونه نصب أعينهم، ويضعون أقدامهم مواضع خطاه ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾.

فلا يمكن أن تستقيم حياة الناس وحركتهم من دون وجود هذا التيار في وسط الناس، ولا يمكن أن تستقيم حركة هذا التيار من دون وجود قدوة صافية نقية في قلب هذا التيار.

* * *

ولنعد إلى حيث كنا من حديث عاشوراء قلت إنني ألمس في التحام الناس بعاشوراء وتعاطفهم مع قضية الحسين، إن الناس يجدون في هذا اليوم وفيما جرى فيه من أحداث، وفيما يستبطنه هذا اليوم من القيم والمعاني شيئاً يتفاعل مع ضمائرهم وقلوبهم وعقولهم.

إن الناس يبحثون في حركتهم الشاقة والعسيرة إلى الله تعالى عن الصور الصافية والنقية لهذا الكدح وهذه الحركة... الصورة التي تخلص من كلّ كدر وغش، وتسلم من كلّ نقص وضعف، ليضعوا أمامهم هذه الصور الحيّة المتحركة.

ففـي خضـم الحـياة، وخضم الصراع، ومتاعب الحركة يلتقي الإنسان في نفسه وفـي واقـع الحـياة الكثـير مـن الضـعف، والشـك، والجبـن، والحسـد، والطمـع، والجشـع، وحـبّ الـذات، والاسـتئثار، والظلم... فيجد نفسه بحاجة إلـى هـذه الصـورة النقـية الصـافية مـن الإيمـان بالله، واليقين، والإخلاص لله تعـالى، والـثقة، والـتوكل علـى الله، والقـوّة، والشـجاعة، والإيـثار، ونكـران الـذات، والإخـلاص... فـيجد كـلّ هـذه العناصـر، التـي يبحـث عـنها، والتي تتطلـبها الحـركة، متجسـدة، متحركة في ساحة الطف في يوم عاشوراء في هالـة مـن الـنور، وفـي مقـابل هـذه القمّة السامقة من القيم والأخلاق الربّانية المتجسـدة فـي الحسـين عليه السلام وأصـحابه... يجـد حضـيضاً من الدناءة، واللؤم، والاسـتئثار، والتعلق بحطام الدنيا، وحبّ الذات، والكبرياء، والشك، والجبن، والحسد، والطمع، والجشع في الجانب الآخر من المعركة.

وكمـا تـتجمع القـيم، وتـتكامل، وتتشـكل قمة سامقة وهالة من النور. في الجانـب الأول، يـتجمع اللـؤم، والمكـر، والكـيد، والظلـم فـي الجانب الثاني بشكل صارخ.

وهذا من خصائص الصراع والمواجهة.

فـإن الصـراع يـبرز كـلّ طرف على حقيقته، ويكشف حقيقة كلّ طرف، وكـل القـيم والمسـاوئ التـي يسـتبطنه الإنسان ويتستر عليه أو يشهره ويعلن عـنه، فـإن الصـراع بطبيعـته كشّـاف. وأكثر ما ينكشف الإنسان، ويظهر على حقيقته ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[1]، وساعات المواجهة والصراع.

فيجد الجمهور أمامه طرفين متصارعين يوم عاشوراء، يمثل أحدهما قمّة

---

١ ـ الطارق: ٩.

القيم والأخلاق، ويمثل الآخر حضيض اللؤم والسقوط، فيتعلق بذا وينفر من ذاك، ويجد في يوم عاشوراء كلّما يطلبه ويحتاجه من القيم والمثل والأخلاق والإخلاص والشجاعة والثقة والإقدام.

وهذا هو الذي يشدّ الجمهور إلى عاشوراء، ويدعوه إلى التفاعل والتعاطف مع هذا اليوم بمثل هذه الدرجة من القوّة والعمق.

فإن أكثر ما يحتاج الإنسان إلى القدوة في حياته في ساحات الصراع والمواجهة ومن ساحات الصراع والمواجهة، ذلك أن الإنسان لا يحتاج إلى أن يستجمع كلّ عزمه وقوته وعقله وإيمانه وثقته بالله، كما يحتاجه في ساحات المواجهة وساحات الصراع، ولا يهتز الإنسان ويتزلزل، ويتعرض للزلازل والهزات، كما يتعرض لها في ساحات المواجهة والصراع. فمن السهل أن يحافظ الإنسان على اتزانه، وتعقله، ودينه، وثقته بالله في أيّام اليسر والرفاه، وعندما يعتزل المجتمع والعمل... أما عندما ينزل إلى ساحة العمل، والمواجهة، ويتعرض للزلازل، والهزات، والأعاصير، من داخل نفسه، ومن الخارج، فسوف يجد نفسه بحاجة شديدة وماسّة إلى أن يلتمس لنفسه أمثلة وشواهد وقدوات على الطريق ومن ساحة الصراع بالذات، تثبته على أرض المعركة، وتبعث في نفسه الإيمان واليقين والثبات والثقة والصبر. ولابدّ أن تكون هذه الأمثلة والقدوات في الساحة الساخنة بالصراع، لتطمئن إليها قلوب العاملين.

وهذا بالذات ما يجده المؤمنون في حركتهم ومسيرهم إلى الله، وفي مواجهتهم الحامية للهوى والطاغوت في (رحاب عاشوراء) فإن مسيرة التاريخ مسيرة حافلة بالصراع والمواجهة والفتن والابتلاء وخلال هذه

المسيرة يجد المؤمنون في (عاشوراء) النموذج والقدوة لكل القيم التي يتطلبها الصراع ويحتاجها المؤمنون في حركتهم وعملهم، فينشدّون إليها بقوّة، ويتعاطفون، ويتفاعلون معها بهذه الصورة القوية والمؤثرة.

الفهرس

ثأر الله: القيمة الذاتية للشهادة

ثأر الله: القيمة الحركية للشهادة

ثأر الله: رحلة الشهادة في القرآن الكريم

ثأر الله: رحلة الشهادة في السنّة الشريفة

خطاب الاستنصار الحُسيني

الولاء والبراءة في مرآة عاشوراء

المتخلفون عن ثورة الإمام الحسين عليه السلام

(الضحاك بن عبد الله المِشرقي)

قيمة الوراثة في حياة الإنسان

عاشوراء (ودّ) و(قدوة)